النهج الرشيد
في التعليق
على القول السديد
في مقاصد التوحيد

تأليف:
أد. محمد بن عبد الرحمن الخميس

اعتنى به:
عبد الرحمن بن مقبل الشمري

ج٢

بسم الله الرحمن الرحيم

٢١- باب: ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله

١- روى مالك في «الموطأ»: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»**[(١)].

٢- ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى**﴾[(٢)] قال: كان يلت لهم السويق، فمات فعكفوا على قبره[(٣)]. وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج[(٤)].

٣- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج». رواه أهل السنن[(٥)].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان.

الثانية: تفسير العبادة.

الثالثة: أنه صلى الله عليه وسلم لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

السادسة: - وهي من أهمها- صفة معرفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

---

(١) رواه بهذا اللفظ مالك في «الموطأ» (١/١٧٢/ عبد الباقي) مرسلًا، وهو مرسل صحيح، وقد رواه موصولًا: أحمد في «مسنده» (٧٣٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، وهو صحيح، وشطره الأخير في الصحيحين؛ كما تقدم في الباب السابق.

(٢) النجم: ١٩.

(٣) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢/٤٧) ط هجر.

(٤) رواه البخاري (٤٨٥٩). ولفظه: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فِي قَوْلِهِ: {اللَّاتَ وَالعُزَّى} [النجم: ١٩] «كان اللّات رجلا يلتّ سويق الحاج».

(٥) رواه أبو داود (٣٢٣٦)، والترمذي (٣٢٠)، والنسائي (٢٠٤٣)، وحسنه الترمذي، وقال بعض أهل العلم: اللفظ الأصح «**زورات**» الذي خرج مخرج المبالغة.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية.

التاسعة: لعنه زوارات القبور.

العاشرة: لعنه من أسرجها.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله:

ما ذكر المصنف في البابين يتضح بذكر تفصيل القول فيما يفعل عند قبور الصالحين وغيرهم، وذلك أن ما يفعل عندها نوعان: مشروع وممنوع، **أما المشروع:** فهو ما شرعه الشارع من زيارة القبور على الوجه الشرعي من غير شد رحل، يزورها المسلم متبعا للسنة فيدعو لأهلها عموما، ولأقاربه ومعارفه خصوصا، فيكون محسنا إليهم بالدعاء لهم وطلب العفو والمغفرة والرحمة لهم، ومحسنا إلى نفسه باتباع السنة وتذكر الآخرة والاعتبار بها والاتعاظ.

أما الممنوع: فإنه نوعان: **أحدهما:** محرم ووسيلة للشرك كالتمسح بها والتوسل إلى الله بأهلها، والصلاة عندها، وكإسراجها والبناء عليها، والغلو فيها وفي أهلها إذا لم يبلغ رتبة العبادة.

والنوع الثاني: شرك أكبر كدعاء أهل القبور والاستغاثة بهم، وطلب الحوائج الدنيوية والأخروية منهم، فهذا شرك أكبر، وهو عين ما يفعله عباد الأصنام مع أصنامهم، ولا فرق في هذا بين أن يعتقد الفاعل لذلك أنهم مستقلون في تحصيل مطالبه، أو متوسطون إلى الله، فإن المشركين يقولون: ﴿**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى**﴾(١)، ﴿**وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**﴾(٢)، فمن زعم أنه لا يكفر من دعا أهل القبور حتى يعتقد أنهم مستقلون بالنفع ودفع الضرر، وأن من اعتقد أن الله هو الفاعل وأنهم وسائط بين الله وبين من دعاهم واستغاث بهم [لم] يكفر، من زعم ذلك فقد كذب ما جاء به الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة من أن من دعا غير الله فهو مشرك كافر في الحالين المذكورين، سواء اعتقدهم مستقلين أو متوسطين، وهذا معلوم بالضرورة من دين الإسلام، فعليك بهذا التفصيل الذي يحصل به الفرقان في هذا الباب المهم

---

(١) الزمر: ٣.

(٢) يونس: ١٨.

الذي حصل به من الاضطراب والفتنة ما حصل، ولم ينج من فتنته إلا من عرف الحق واتبعه.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى أحاديث الباب إجمالا:

الحديث الأول: خاف ﷺ أن يقعَ في أُمَّتِهِ مَعَ قبرِهِ ما وَقَعَ مِنَ اليهود والنصارَى مَعَ قبورِ أنبيائِهِم مِنَ الغلوّ فِيهَا حتَّى صارت أوثاناً، فَرَغِبَ إلى ربِّه أن لا يجعلَ قَبْرَهُ كذلك، ثم نبه ﷺ على سبب لحوقِ شدَّةِ الغضب واللعنة باليهود والنصارى؛ أنَّه ما فَعَلُوا في حقِّ قبورِ الأنبياءِ حتَّى صَيَّرُوهَا أوثاناً تُعْبَدُ، فوقعوا في الشركِ العظيم المضاد للتوحيد(١).

والحديث الثاني: يدعو ﷺ باللعنة وهي الطردُ والإبعادُ عن رحمةِ اللهِ للنساء اللاتي يَزُرْنَ القبور، لأنَّ زيارتَهُنَّ يترتب عليها مفاسدُ مِنَ النياحة والجزع وافتتانِ الرجال بهنَّ، وَلَعَنَ الذين يتَّخِذُونَ المقابِرَ مواطن عبادة أو يُضِيئونَهَا بِالسُّرُج والقناديل؛ لأنَّ هذا غلوٌّ فِيهَا ومدعاة للشركِ بأصحابها(٢).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان النصوص الشرعية التي تبين أن الغلو في قبور الصالحين يجعلها أوثانا تعبد من دون الله ؛ فالغلو يجعل المغلو فيه معبودا من دون الله.

فهاهنا أربعة أمور تبين موضوع الباب:

الأول: التحذير من الغلو في قبور الصالحين.

الثاني: أن الغلو فيها يؤول إلى عبادتها.

الثالث: أنها إذا عبدت سميت أوثانًا ولو كانت قبور الصالحين.

الرابع: التنبيه على العلة في المنع من البناء عليها واتخاذها مساجد

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ الفوزان (صـ ١٧٨).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٨٠).

والأوثان هي المعبودات التي لا صورة لها، كالقبور والأشجار والعمد والحيطان والأحجار ونحوها(١).

الفقرة الثانية:شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن الغلو وهو مجاوزة الحد في تعظيم قبور الصالحين يجعلها أوثانًا وآلهة تعبد من دون الله تعالى.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض المصنف هو بيان أن من أعظم أسباب الوقوع في الشرك الأكبر الغلو في قبور الصالحين؛ فمن أراد البعد عن عبادة غير الله تعالى فعليه بالبعد عن الغلو؛ لأنه سبب عظيم من أسباب وقوع الشرك.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن أوضح المصنف نتيجة الغلو، وبعض صوره، وما يؤدي إليه من الشرك الأكبر؛ ناسب أن يبين هنا أن الغلو في القبور يجعلها أوثانًا تعبد ويستغاث بها وتدعى من دون الله، فيجتنب الغلو فيهم وفي قبورهم؛ لأن ذلك كله وسيلة للشرك.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

الحديث الأول: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا»: استدل به المصنف للدلالة على أن القبور قد تصير أوثاناً، وأن النبي صلى الله عليه وسلم خاف أن يقع في أمته ما وقع لغيره من الأمم السابقة؛ فتجعل قبره وثنا يعبد من دون الله، ولذلك دعا الله تعالى.

وأما أثر مجاهد: ففيه التصريح بأن اللات كان رجلا صالحًا، وأن تعظيمه، والعكوف على قبره، والغلو فيه، كان سببًا في وقوع الناس في الشرك الأكبر.

حديث ابن عباس مرفوعا: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص٢٨٤).

القبور...». أورده المصنف؛ لأن فيه تصريح لعن الزائرات للقبور، والمتخذين السرج عليها؛ لأن ذلك تعظيم للمقبور، يخشى منه الوقوع في الشرك، وأن تكون سببًا في الشرك الأكبر.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الغلو يجعل المخلوق معبودًا من دون الله:

الغلو مجاوزة الحد، والغلو عواقبه وخيمة؛ فإنه قد يؤدي إلى الشرك الأكبر؛ خصوصًا إذا كان الغلو في الصالحين، وقبورهم؛ كما غلا أناس في صالحي قوم نوح صارت قبورهم وصورهم بعد ذلك أوثانًا تعبد من دون الله(١).

وهكذا الحال في كل مقبور غلا فيه أهله تجد أن صورته، أو قبره، قد أصبح وثنا يُعبد من دون الله، مثل: قبر الحسين في العراق، وقبر السيدة زينب في مصر، وقبر البدوي، وقبر النقشبندي وغيرهم.

وهكذا فعل طائفة من هذه الأمة غلت في النبي صلى الله عليه وسلم حتى عبدوه من دون الله؛ فصاروا يسألونه الحاجات، ويطلبون منه الشفاعات.

الفقرة الثانية: خوف الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته من الغلو في قبره:

إن النبي صلى الله عليه وسلم خاف أن يقع من أمته ما وقع لغيرهم من الأمم السابقة فيجعلوا قبره وثنا يعبد من دون الله؛ فدعا صلى الله عليه وسلم الله ربه قائلا : «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**»، وقد استجاب الله دعاء نبيه فحمى قبره بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه.

الفقرة الثالثة: الغلو في قبر اللات جعله وثنًا يعبد:

اللات وصف لرجل صالح من الأمم السابقة كان يلت السويق للحاج؛ فمات

---

(١) فقد روى البخاري (٤٩٢٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما: «... أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم، أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وَتَنَسَّخَ العلم عُبِدت».

فعكفوا على قبره حتى عبدوه وصار قبره وثنًا من أوثان المشركين[(١)]، فالغلو في تعظيم الصالحين، وفي تعظيم قبور الصالحين، والعكوف عليها يؤدي إلى الشرك المنافي للتوحيد.

الفقرة الرابعة: اتخاذ السرج على القبور معناه وحكمه:

معناه: إضاءتها بالمصابيح، وهو محرم؛ لأن فيه إضاعة للمال في غير فائدة، وإفراطًا في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام من جهة، وذلك وسيلة إلى الشرك من جهة أخرى، وهذا الفعل من الكبائر الملعون فاعله، كما هو نص الحديث الذي ذكره المصنف في هذا الباب بلفظ: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور، والمتخذين عليه المساجد والسرج».

الفقرة الخامسة: لعن زائرات القبور:

ظاهر حديث ابن عباس: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم زائرات القبور»: يدل على تحريم زيارة المقابر للنساء، وهو مذهب أحمد، وجماعة من أهل العلم، والسبب في منع النساء من الزيارة:

١ - لأنهن يجزعن ويندبن وينحن؛ فيؤذين الميت، ويذكرن الحي فيحصل تجديد للحزن، وتذكير بالغم.

٢ - لأنهن يفتن الحي.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «وما علمنا أحدًا من الأئمة استحب لهن زيارة القبور، ولا كان النساء على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور، ... ومع ذلك فقد ثبت في «الصحيح» أنه صلى الله عليه وسلم نهى النساء عن اتباع الجنائز»[(٢)][(٣)].

وقال الإمام عبد العزيز بن باز رحمه اللَّه: «فيه حرمة زيارة القبور على النساء على الصحيح للأدلة، وكما في حديث حسان بن ثابت، وأبي هريرة

---

(١) تقدم التعريف به ومما ذكر في عبادته: أنه صخرة مربعة كانت بالطائف، وكان يهودي يلُت عندها السُّويق، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها، فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المغيرة بن شعبة رضي الله عنه فهدمها وحرَّقها بالنار.
انظر: الأصنام لهشام الكلبي (ص ١٣- ٢٧)، وسيرة ابن هشام (١٢٩/١)، وأخبار مكة للأزرقي (١٩٦/١).

(٢) رواه البخاري (١٢٧٨)، ومسلم (٩٣٨) من حديث أم عطية رضي الله عنها.

(٣) ينظر: «مجموع فتاوى» لشيخ الإسلام (٢٤/ ٣٤٥).

بمعناه[١]؛ فزيارة القبور مختصة بالرجال»[٢].

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

ينظر ما تقدم تحت المقصد الرابع في الباب رقم (١٩).

(١) حديثهما بلفظ: «**زوارات القبور**»، أما حديث أبي هريرة: فأخرجه الترمذي (١٠٥٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، وقال الترمذي: «حسن صحيح».
وأما حديث حسان فأخرجه ابن ماجه (١٥٧٤)، وحسنه البوصيري.

(٢) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١١٩).

٢٢- باب: ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك(١).

١- وقول الله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾(٢).

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**» رواه أبو داود بإسناد حسن(٣) ورواته ثقات.

٣- وعن علي بن الحسين رضي الله عنه أنه رأى رجلا يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا علي، فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم**» رواه في «المختارة»(٤).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده أمته عن هذا الحمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

---

(١) ستأتي في الباب رقم (٦٦) تتمة لمعنى هذا الباب .

(٢) التوبة: [١٢٨-١٢٩].

(٣) رواه أبو داود (٢٠٤٢)، وصححه النووي في «خلاصة الأحكام» (١٤٣٩)، وحسنه الحافظ في «نتائج الأفكار» (٢٢/٤)، وكذلك حسنه شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم» (١٧٠/٢).

(٤) رواه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٤٢٨) دون قوله: «وصلوا عليّ»، وفي إسناده لين، لكن يشهد له ما قبله، فهو صحيح لغيره.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.

الثامنة: تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

التاسعة: كونه صلى الله عليه وسلم في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

من تأمل نصوص الكتاب والسنة في هذا الباب، رأى نصوصا كثيرة تحث على القيام بكل ما يقوي التوحيد وينميه ويغذيه، من الحث على الإنابة إلى الله وانحصار تعلق القلب بالله رغبة ورهبة، وقوة الطمع في فضله وإحسانه والسعي لتحصيل ذلك، وإلى التحرر من رق المخلوقين وعدم التعلق بهم بوجه من الوجوه، أو الغلو في أحد منهم، والقيام التام بالأعمال الظاهرة والباطنة، وتكميلها وخصوصا حث النصوص على روح العبودية وهو الإخلاص التام لله وحده.

ثم في مقابلة ذلك نهى عن أقوال وأفعال فيها الغلو بالمخلوقين، ونهى عن التشبه بالمشركين؛ لأنه يدعو إلى الميل إليهم، ونهى عن أقوال وأفعال يخشى أن يتوصل بها إلى الشرك، كل ذلك حماية للتوحيد، ونهى عن كل سبب يوصل إلى الشرك، وذلك رحمة بالمؤمنين ليتحققوا بالقيام بما خلقوا له من عبودية الله الظاهرة والباطنة وتكميلها، لتكمل لهم السعادة والفلاح، وشواهد هذه الأمور كثيرة معروفة.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آية هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨].

قال السعدي: «يمتن تعالى على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن

الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم»[١].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو بيان حماية النبي صلى الله عليه وسلم التوحيد من جهة الأفعال، وسيأتي ترجمة أخرى في بيان حمايته صلى الله عليه وسلم للتوحيد من جهة الأقوال؛ فهو صلى الله عليه وسلم قد حمى التوحيد من الجهتين الأفعال، والأقوال، حتى يحذر الناس من الوقوع في الشرك وما يوصل إليه.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

عقد المؤلف هذا الباب لبيان ما جاء به صلى الله عليه وسلم من التوحيد وحمايته له من الأقوال والأفعال الشركية؛ أي: حمايته صلى الله عليه وسلم للتوحيد بالتحذير من الشرك وما يوصل إليه من أقوال وأفعال، فالنبي صلى الله عليه وسلم حمى جناب التوحيد، وسد كل الطرق الموصلة إلى الشرك، وهذا يعني وضوح التوحيد، وجمال بيانه صلى الله عليه وسلم له؛ فإنه إذا كان قد حمى جناب التوحيد فإن بيانه للتوحيد أوضح وأجلى.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

مقصود المصنف بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم بَلَّغ البلاغ المبين، وأنه صلى الله عليه وسلم كما بيّن التوحيد فإنه صلى الله عليه وسلم بين ما يحميه من كل ناقض أو ناقص، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يترك شيئًا يهدم جنابه أو يشينه إلا وبينه.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بين المصنف في الأبواب السابقة بعض الأمور التي تدل على بيان

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٣٥٦).

النبي صلى الله عليه وسلم للتوحيد، وبيان ما ينقضه أو ينقصه ناسب أن يذكر أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمى جوانب التوحيد، فليس لأحد أن يقول: لا، هذا لم يبينه، أو هذا تركه، أو هذا الباب يؤخذ من العقل، أو يؤخذ من الذوق، أو يؤخذ من أصحاب النحلة، أو نحو ذلك.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ**﴾ [التوبة:١٢٨]: استدل به المصنف على بيان شدة حرصه صلى الله عليه وسلم على أمته، وأنه رحيم بهم، وهذا يلزم منه أن يبين كل ما يوقعهم في الردى، ومن أعظم ذلك بيانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتوحيد، وضده، وبيانه لأسباب ووسائل الشرك، وطرقه؛ فقد نهى عن أمور كثيرة تؤدي إلى الشرك؛ كالغلو، والعبادة عند الأوثان، ومعاقل الجاهلية، وتعظيم القبور، واتخاذ الصور، ونحو ذلك مما هو وسيلة إلى الشرك [(١)].

وأما حديث: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**»**:** فقد استشهد به المصنف؛ لأنه أفاد ألا تجعل البيوت قبورًا، فمنع من تعطيلها من الصلاة فيها، والدعاء، والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، وهذا فيه الدلالة على أن القبور لا يُصلى فيها، ولا تعظم، بل ولا يُعيَّنُ وقت لزيارتها؛ كالأعياد والجمع، فإن ذلك من اتخاذها عيدًا [(٢)]، وكذلك حديث علي رضي الله عنه يدل على ما دل عليه هذا الحديث.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: البيان أعظم وظيفة للنبي صلى الله عليه وسلم:

أعظم وظيفة للنبي صلى الله عليه وسلم هي بيان حق الله تعالى على عباده، وبيان الأحكام، وتحذير الناس من الشرك وأسبابه، وبل وبيان كل ما يضر بالناس في دينهم ودنياهم، قال الله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾ [النحل: ٤٤]، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الوظيفة على

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ٩٥).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٩٦).

الوجه الأكمل، فما ترك بابًا من أبواب الخير إلا ودل عليه، وما ترك بابًا من الشر إلا وحذر منه.

الفقرة الثانية: رأفة الرسول صلى الله عليه وسلم بأمته، وحرصه على إبعادهم عن الشرك:

أرسل الله للأمة كلها ولقريش خاصة رسولًا منهم، يعرفونه ويعرفون نسبه، ويعلمون صدقه وأمانته، رءوف بالمؤمنين عطوف عليهم، شديد على الكفار والمشركين، حريص على هدايتهم وإسلامهم، فأمرهم بالتوحيد، وحث الناس على الاستقامة عليه، وحذر من الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبالغ في نهيهم عنه، وبين لهم وسائله الموصلة إليه.

ولا أدل على ذلك من تصويره صلى الله عليه وسلم بما ضرب من المثل لنفسه وأمته بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مثلي كمثل رجل استوقد نارا؛ فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش، وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن ويغلبنه، فيقتحمن فيها. قال: فذلكم مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار: هلم عن النار، هلم عن النار، فتغلبوني، تقحمون فيها**»[1]. فهذه كانت صفة النبي صلى الله عليه وسلم وحاله، فالواجب اتباعه ومحبته.

الفقرة الثالثة: معنى حماية النبي صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد:

المراد بالحماية: صيانته عما يقرب منه، أو يخالطه من الشرك، وأسبابه، وقد بذل النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل ذلك كل غال ونفيس.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ: «الجناب هو الجانب، واعلم أن في الأبواب المتقدمة شيئًا من حمايته صلى الله عليه وسلم لجناب التوحيد، ولكن أراد المصنف هنا بيان حمايته الخاصة، ولقد بالغ صلى الله عليه وسلم وحذَّر وأنذر وأبدأ وأعاد، وخصّ وعمّ، في حماية الحنيفية السمحة، التي بعثه الله بها؛ فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل؛ كما قال بعض العلماء: هي أشد الشرائع في التوحيد والإبعاد عن الشرك، وأسمح الشرائع في العمل»[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (صـ ٣٤٧-٣٤٨).

الفقرة الرابعة: تحري العبادة دون المقابر:

رغب الشارع في تحري العباد في البيوت دون المقابر؛ فقال -عليه الصلاة والسلام-: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا**»؛ أي: لا تعطلوها عن الصلاة فيها والقراءة فتكون بمنزلة القبور، وهذا فيه أن البيوت ينبغي أن يجعل فيها النوافل، وقراءة القرآن، والذكر، وأما المقابر فهي مهجورة عن الصلاة، وقراءة القرآن، والذكر؛ فلا ينبغي فعل هذه العبادات إلا في الأماكن التي شرعها الله عَزَّوَجَلَّ أو شرعها رسوله صلى الله عليه وسلم.

فشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم العبادة في البيوت تفريقًا بينها وبين المقابر التي لا يُعبد الله فيها، ونهى عن تحري العبادة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم الذين اتخذوا قبور الأنبياء مساجد ومكان للعبادة[١].

الفقرة الخامسة: زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم:

إن زيارة القبور بوجه عام شرعت لهدفين:

الأول: الاعتبار وتذكر الموت والآخرة.

والثاني: الدعاء لأهلها والاستغفار لهم.

وأما زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم خصوصًا بمعنى: شد الرحال إليها، والسفر لأجلها، فإنها غير مشروعة، وإنما المشروع شد الرحال لزيارة مسجده صلى الله عليه وسلم والصلاة فيه؛ كما ثبت أنه صلى الله عليه وسلم رغب في ذلك[٢]، ولم يرغب في السفر إلى قبره وإلى قبر غيره، ويسن لمن أتاه أن يأتي الحجرة النبوية، فيصلي ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه أبي بكر وعمر ويترحم عليهما، من غير تمسح بالقبر ولا تقبيل ولا غيره، فإنه من الغلو المؤدي إلى الوقوع في الشرك.

---

(١) انظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (٢٢/١)، وإغاثة اللهفان لابن القيم (١٩٢/١).

(٢) ومن ذلك الحديث: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، ومسجد الحرام، ومسجد الأقصى**». رواه البخاري (١١٨٩)، ومسلم (١٣٩٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك حماية منه صلى الله عليه وسلم لجناب التوحيد من أن يجعل مكان قبره عيدًا وموضعًا للاجتماع، فكيف بغيره من الخلق؛ فمن باب أولى ألا تتخذ قبورهم أعيادًا، ولا يجوز الاجتماع عندها كما يزعم من الاجتماعات والاحتفالات عند قبور بعض الصلحاء ويسمونها الموالد، وغير ذلك، ﴿**أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ**﴾ [الشورى: ٢١].

الفقرة السادسة: أهل آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ينهون عن اتخاذ القبر عيدًا:

أنكر علي بن الحسين على الرجل في الأثر السابق، وبين له أن هذا ليس بمشروع، وأن التسليم على النبي صلى الله عليه وسلم يكون من كل مكان، وفي حال المرور على المدينة، دون قصد زيارة القبر، ولا الجلوس عنده.

قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذه سنة جاءت عن أهل البيت، وكلهم بينوا أن اتخاذ القبر عيدًا وسيلة إلى الشرك، إذا عكفوا عنده، وصلوا عنده، ودعوا عنده، جَرَّهم هذا إلى الشرك والغلو؛ فحسم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المادة، ومن اتخاذ القبور مساجد، والبناء عليها وتجصيصها وفرشها يؤدي إلى اعتقاد العامة أنها معظمة، وأنها تنفع، وكل هذا قد وقع مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حمى جناب التوحيد وحذر من الشرك» (١).

الفقرة السابعة: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم **من أحسن القربات:**

شرع الله تعالى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وأرشدنا صلى الله عليه وسلم أن نكثر من الصلاة عليه؛ فقال عليه الصلاة والسلام-: «**صلوا علي؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**» أي: إن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبعدكم عنه؛ فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيدًا تترددون إليه لأجل ذلك، وهذا صريح بأنه صلى الله عليه وسلم يبلغ الصلاة والسلام، وقد وردت صيغ عدة للصلاة والسلام، ومنها صيغة: «**اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم**

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١١٦).

بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[١].

وفي مشروعية الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أنه صلى الله عليه وسلم يُدعى له ويُطلب له، وهذا من حقه علينا أن نطلب له المنزلة الرفيعة، والدرجة العالية، لا أن نأتي القبر فندعو ونطلب منه؛ فإن ذلك من البدع والشرك، وفرق بين الطلب له والطلب منه.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

لقد انتشر بين الناس قبل بعثة الرسول ﷺ دعاء غير الله من الأوثان والأشجار وغيرها لجلب نفعٍ أو دفع ضر، ولذا فإن الرسول ﷺ قد حرص على سد كل باب يمكن أن يفضي بالناس إلى الإشراك في عبادة الله تعالى ودعائه، لذا فإنه ﷺ قد نهى الناس عن زيارة القبور في بداية الأمر كي لا تكون ذريعة لدعائهم وصرف العبادة لهم من دون الله تعالى، حتى خلصت عقائد الناس وتخلصوا من أدران الشرك، فأذن لهم بزيارة القبور بعد ذلك بدليل قول النبي ﷺ: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، فإنها تذكِّر الآخرة)[٢].

وبعد مدة تغير حال الناس في زيارة القبور وخاصة في الأزمنة المتأخرة فتجدهم خالفوا الشرع فيما يلي: ١/ نهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها المشاهد.

٢/ نهى النبي ﷺ عن الصلاة إلى القبور وهؤلاء يصلون إليها.

٣/ نهى النبي ﷺ عن إيقاد السرج على القبور وهؤلاء يوقدون القناديل والمصابيح عليها.

٤/ نهى النبي ﷺ عن اتخاذ القبور عيدا وهؤلاء يتخذونها عيدا ومواسم يجتمعون فيها.

٥/ أمر النبي ﷺ بتسوية القبور وهؤلاء يرفعونها.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٦) من حديث كعب بن عُجرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب اتباع النساء الجنائز، برقم (١٢٧٨)، ومسلم، كتاب الجنائز، باب نهي النساء عن اتباع الجنائز، برقم (٩٣٨).

٦/ نهى النبي ﷺ عن الكتابة على القبور وهؤلاء يكتبون عليها.

بل أفضى بهم الغلو إلى عبادة قبور الأولياء والصالحين ويفزعون إليهم عند الشدائد ويحلفون بأسمائهم ويطوفون حول قبورهم، والله المستعان على غربة الدين.

٢٣- باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

١- وقول الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا**﴾(١).

٢- وقوله تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**﴾(٢).

٣- وقوله تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا**﴾(٣).

٤- عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**». قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**» أخرجاه(٤).

٥- ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بِسَنَةٍ بعامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بِسَنَةٍ بعامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا**»(٥).

٦- ورواه البرقاني في «صحيحه»، وزاد: «**وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم**

---

(١) النساء: ٥١.

(٢) المائدة: ٦٠.

(٣) الكهف: ٢١.

(٤) رواه البخاري حديث رقم (٣٤٥٦)، ومسلم حديث رقم (٢٦٦٩)، وليس فيه: «**حذو القذة بالقذة**»، فهذا خارج الصحيحين، وليست من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، ولفظ الصحيحين: «**لتتبعن سَنَنَ من قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه**»، قلنا يا رسول الله: اليهود، والنصارى؟ قال: «**فمن؟**».

(٥) رواه مسلم (٢٨٨٩)، ولفظ مسلم: «**بِسَنَةٍ عامة**».

النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى»(١).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء.

الثانية: تفسير آية المائدة.

الثالثة: تفسير آية الكهف.

الرابعة: - وهي أهمها-: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع؟ هل هو اعتقاد قلب؟ أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلًا من المؤمنين.

السادسة: - وهي المقصود بالترجمة- أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: تصريحه بوقوعها: أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.

الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة مثل المختار مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمدًا خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار(٢) في آخر عصر الصحابة وتبعه فئام كثيرة.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمى: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم.

---

(١) هذه الزيادة صحيحة، رواها أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٠٢، ٢٢١٩، ٢٢٢٩)، وابن ماجه (٣٩٥٢).

(٢) هو: المختار بن أبي عبيد الثقفي، الذي خرج بالكوفة، وتتبع قتلة الحسين فقتلهم، كذب على الله وادعى أن الوحي يأتيه، وأنه يعلم الغيب. ينظر: «تاريخ الإسلام» (٧٠٦/٢)، و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (٥٣٨/٣).

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة، **منها:** إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال.

وإخباره بأنه أعطي الكنزين.

وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين.

وإخباره بأنه منع الثالثة.

وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يرفع إذا وقع.

وإخباره بإهلاك بعضهم بعضًا، وسبي بعضهم بعضًا، وخوفه على أمته من الأئمة المضلين.

وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة.

وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة.

وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدة منها من أبعد ما يكون في العقول.

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان:

مقصود هذه الترجمة الحذر من الشرك والخوف منه، وأنه أمر واقع في هذه الأمة لا محالة، والرد على من زعم أن من قال: لا إله إلا الله، وتسمى بالإسلام أنه يبقى على إسلامه ولو فعل ما ينافيه من الاستغاثة بأهل القبور ودعائهم، وسمى ذلك توسلًا لا عبادة، فإن هذا باطل، فإن الوثن اسم جامع لكل ما عبد من دون الله لا فرق بين الأشجار والأحجار والأبنية، ولا بين الأنبياء والصالحين والطالحين في هذا الموضع -وهو العبادة- فإنها حق الله وحده، فمن دعا غير الله أو عبده فقد اتخذه وثنًا وخرج بذلك عن الدين، ولم ينفعه انتسابه إلى الإسلام، فكم انتسب إلى الإسلام من مشرك وملحد وكافر ومنافق، والعبرة بروح الدين وحقيقته لا بمجرد الأسامي والألفاظ التي لا حقيقة لها.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ [النساء:٥١].

قال السعدي: «وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله.

فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حَمَلهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله -عبدة الأصنام- على طريق المؤمنين فقال: **{وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا}** أي: لأجلهم تملقًا لهم ومداهنة، وبغضًا للإيمان: **{هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا}** أي: طريقًا، فما أسمجهم وأشد عنادهم وأقل عقولهم! كيف سلكوا هذا المسلك الوخيم والوادي الذميم؟ هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقلَ أحد من الجهلاء، فهل يُفَضَّل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنداد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال، فهل هذا إلا من الهذيان، وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلًا وإما من أعظمهم عنادًا وتمردًا ومراغمة للحق، وهذا هو الواقع»(١).

٢- وقول الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

قال السعدي: «﴿قُلْ﴾ لهم مخبرًا عن شناعة ما كانوا عليه: **﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ**

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ١٨٢).

مِن ذَٰلِكَ﴾ الذي نقمتم فيه علينا، مع التنزل معكم، ﴿**مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ**﴾ أي: أبعده عن رحمته ﴿**وَغَضِبَ عَلَيْهِ**﴾ وعاقبه في الدنيا والآخرة ﴿**وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**﴾ وهو الشيطان، وكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت، ﴿**أُولَٰئِكَ**﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿**شَرٌّ مَّكَانًا**﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم، ورضي الله عنهم وأثابهم في الدنيا والآخرة، لأنهم أخلصوا له الدين.

وهذا النوع من باب استعمال أفعل التفضيل في غير بابه، وكذلك قوله: ﴿**وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ أي: وأبعد عن قصد السبيل»[١].

٣ـ وقول الله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

قال السعدي: «قال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر: ﴿**لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾ أي: نعبد الله تعالى فيه، ونتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم، وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدًا، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى»[٢].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو الاستدلال على وقوع الشرك في هذه الأمة، وأن بعض هذه الأمة ستعبد الأصنام، وأن طوائف من هذه الأمة ستلحق بالمشركين، فإنها غير معصومة بأفرادها عن الوقوع في الشرك.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٢٣٧).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٤٧٢).

هذا الباب أراد به المصنف بيان الأدلة الدالة على أن الشرك ليس حصرًا على المشركين، وأن المسلمين قد يقع منهم الشرك.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

مقصود المؤلف التحذير من الشرك والتخويف منه، وأنه أمر واقع في هذه الأمة لا محالة، وأنها غير معصومة من الوقوع في الشرك، وهذا جلي واضح، ولكن لما أنكر أقوام ذلك بوب عليه المصنف حتى لا يغتر مغتر، ولا يقع العجب؛ فيترك الناس معرفة التوحيد بحجة أنه لا يقع في الأمة.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بين المصنف أن النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، وحمى جنابه، أكد ذلك ببيان تحذيره صلى الله عليه وسلم أمته من الوقوع في الشرك، وأن الشرك واقع فينبغي الحذر منه، وهذا من تمام المناسبة؛ حيث إنه صلى الله عليه وسلم بَين التوحيد، وبَيَّن الشرك، وبَيَّن مُكَمِّلات التوحيد وبين نواقض ونواقص التوحيد، وبين وقوع بعض هذه الأمة في الشرك، كل ذلك من حمايته صلى الله عليه وسلم للتوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ..﴾ [النساء:٥١]: ذكرها المصنف للدلالة على أن الذين أوتوا الكتاب من قبلنا وهم اليهود والنصارى وقعوا في الشرك، والإيمان بالجبت والطاغوت وتزيين الباطل للناس؛ فهذا خبر الله عن أهل الكتاب والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبر أن هذه الأمة ستتبع سنن الذين من قبل؛ فهذا دليل واضح على وقوع بعض هذه الأمة في الشرك، وعبادة الطواغيت، وتزيين الباطل للناس تحت أي مسمى كان.

الآية الثانية: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ﴾ [المائد:٦٠]: أوردها للدلالة على أن من أهل الكتاب من عبد الطاغوت، وأنهم استوجبوا لعنة الله وغضبه لذلك، وكذلك من يتبعهم من هذه الأمة فإنهم سيقعون في عبادة الطاغوت، ويستوجبون بأفعالهم لعنة الله وغضبه، ويخرجون من التوحيد، ومن رحمة الله.

الآية الثالثة: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ [الكهف:٢١]: ذكرها لأنها أفادت أن الأمم السابقة منهم من اتخذ المساجد على القبور، وهم الذين كانت لهم الغلبة، فكذلك يكون في هذه الأمة.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله: «وقد وقع في آخر القرن الأول من الرافضة الذين بنوا المساجد، وعظموا القبور ، ثم تبعهم من يدعي الإسلام كما هو حال المسلمين»(١).

وأما حديث أبي سعيد رضي الله عنه وفيه: «**لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم**»: بين به المؤلف أن هذه الأمة ستسلك طريق من قبلهم فيما فعلوه، ومن ذلك دعاء الأموات، وعبادة الأوثان، والبناء على القبور... إلخ.

حديث ثوبان : «لا تقوم الساعة حتى يلحق فئام من أمتي بالمشركين»: فيه الدلالة على أن من هذه الأمة من سيعبد الأصنام، وأنهم يشركون بالله، ويكون كالمشركين.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله: «يدل على أن الشرك سيقع في هذه الأمة، وقد حصل، وهذه هي الوثنية حصلت في جزيرة العرب وغيرها»(٢).

وهذا لا يتعارض مع حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما؛ حيث قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»(٣)، وغيرها من الأحاديث التي في معناه(٤).

فمعنى هذا الحديث: أن الشيطان أيس أو يئس أن يجتمعوا كلهم على الكفر والشرك(٥).

وهذا المعنى موافق لقوله تعالى: {الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ}[المائدة الآية ٣]؛ قال غير واحد من المفسرين: إن المشركين كانوا يطمعون في عودة المسلمين إلى دينهم، فلما قوي الإسلام وانتشر يئسوا من

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١٢٦).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٢٩).
(٣) صحيح مسلم برقم (٢٨١٢).
(٤) زعم بعض المخالفين من الذي يبررون الشركيات الواقعة في أمة الإسلام، أن الشرك لا يقع فيها، لدلالة مثل هذه الأحاديث على ذلك. انظر: الصواعق الإلهية في الرد على الوهابية لسليمان بن عبد الوهاب (ص٤٤-٤٥)، ومفاهيم يجب أن تصحح للمالكي (ص٢٧).
(٥) انظر: دحض شبهات على التوحيد لعبد الله أبابطين (ص٣٤).

رجوعهم عن الإسلام إلى الكفر(١)، وهذا معنى إياس الشيطان لما رأى من ظهور الإسلام وانتشاره وتمكنه من القلوب ورسوخه فيها، وعلى هذا فلا يدل الحديث: أن الشيطان يئس من وجود شرك في جزيرة العرب أبد الآبدين(٢).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: "وقوله: {الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ} قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عباس: يَعْنِي يَئِسُوا أَنْ يُرَاجِعُوا دِينَهُمْ «٢» ، وَكَذَا رُوِيَ عَنْ عطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ وَالسُّدِّيِّ وَمُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ، وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى يَرِدُ الْحَدِيثُ الثَّابِتُ فِي الصَّحِيحِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ بِالتَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»"(٣).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: سبب نزول الآية الأولى:

روى ابن أبي حاتم بسنده عن عكرمة، قال: «جاء حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف اليهوديان إلى أهل مكة، فقالوا لهما أنتم أهل الكتاب، وأهل العلم، فأخبرونا عنا، وعن محمد؛ فقالا: أنتم خير وأهدى سبيلًا، فنزل قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا**﴾ [النساء:٥١](٤).

الفقرة الثانية: ما وقع في الأمم السابقة من الشرك، وبناء المساجد على القبور، وقع في هذه الأمة كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم:

بعض هذه الأمة ستتبع طرق الأمم السالفة، وتماثلها وتساويها في جميع ما عملته، وتقلدها؛ ففيهم أناس تشبهوا بالنصارى في غلوها، وكذا اليهود في

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٨/٧٧)، وتفسير البغوي (٣/١٢).
(٢) انظر: دحض شبهات على التوحيد لعبد الله أبابطين (ص٣٥).
(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٢).
(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٦٠٣)، وسعيد بن منصور في «التفسير من سننه» (٦٤٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣/٩٧٤)، وورد موصولًا عن ابن عباس، وهو أصح عن عكرمة.

التعظيم للصالحين، والغلو فيهم، بل وعبادة القبور، واتخاذها مساجد، وإذا ثبت أن هذه الأمة ستعمل ما عمله أهل الكتاب؛ فإنها ستبني المساجد على القبور مع التعظيم والغلو فيها، وسيؤدي بهم ذلك إلى عبادة أصحابها، وقد حدث هذا بالفعل في بعض بلاد الإسلام وابتلي به كثير من الناس، فالله المستعان.

فإن كان حصل التشبه بالكفار في أصل الدين وأساسه وهو التوحيد والنبوات فكيف بما دونه؟!.

ألم يقع في الأمة من بعض الناس التشبه بالكفار في الأحكام والقوانين والأوضاع، والتشبه بالكفار في اللهو واللعب؟!.

وإذا وقع التشبه بالكفار في التوحيد الذي هو أساس الدين فإن وقوع التشبه بالكفار فيما دون ذلك أمر وارد وعادي، وإن البعد عن التشبه بالكفار في الأمور العادية والعبادية سبب عظيم من أسباب الحفاظ على الدين وعلى التوحيد، وعلى الهوية الإسلامية، والشخصية السُّنية السنية.

الفقرة الثالثة: صفات اليهود الواردة في الآية:

١ - الإيمان بالجبت كلمة تقع على السحر ونحوه من كل شرك وكفر وباطل.

٢- الإيمان بالطاغوت، وهو كل ما عبد من دون الله وهو راض بالعبادة، ورأسهم ورئيسهم إبليس.

٣- تفضيل دين الكفار على دين المؤمنين ولو ظاهرًا استكبارًا وعنادًا.

٤ - استبدال دينهم بما ذكر من الأمور السابقة.

الفقرة الرابعة: التشبه باليهود والنصارى:

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض هذه الأمة ستقلد الأمم السابقة في عباداتها، وسياساتها، وديانتها، وأنها ستحاول مشابهتهم في كل شيء، كما تُشبه ريشة السهم بالريشة الأخرى، ثم أكد هذه المشابهة والمتابعة بأن الأمم السابقة لو دخلت جحر ضب مع ضيقه وظلمته لحاولت هذه الأمة دخوله.

ولقد وقع الأمر كما أخبر صلى الله عليه وسلم تمامًا، فأصبح عامة المسلمين يقلدون الكفار في معظم أمور حياتهم حتى ابتدعوا في دينهم بدعًا

كثيرة، مثلما فعل أهل الكتاب من قبلهم، وغلوا في دينهم كما غلا أهل الكتاب من قبلهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

والعجب أن هذه الأمة قد علمت بنصوص الكتاب والسنة بأن أهل الكتاب أمة محرفة مغيرة مبدلة، ومع ذلك يقع منها الاتّباع لهم، أليس الله تعالى قد جعل منهم القردة والخنازير؟! فكيف نتبعهم؟!.

إن هذا التقليد الأعمى لأهل الكتابين إنما سببه الجهل في المسلمين بحقيقة الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الدين الكامل الذي تركه المصطفى صلى الله عليه وسلم وهو الدين الباقي في الوحيين: الكتاب والسنة، والحجة قائمة بهما، والنصر على الأعداء والكفار يكون بالرجوع إليهما.

وحكم التشبه بالكفار إنما يكون بحسب ما تشبه به لهم: فقد يكون اتباع أهل الكتاب في أمر يسير وهو من التشبه، وقد يكون في أمر كبير وهو من التشبه، وقد يكون في الابتداع وهو من التشبه، وقد يكون في الكفر والشرك وهو من التشبه؛ فالكل تشبه إلا أن بعض التشبه دون بعض، وإن كان الشرع حرم الكل، ومنع من الكل سدًّا للذرائع، واللفظ فيه عام: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»[١].

فالتشبه قد يكون كفرًا، وقد يكون بدعة، وقد يكون كبيرة، وقد يكون صغيرة.

الفقرة الخامسة: فعل وقول الأغلبية ليس دليلًا على صحة الأمر في دين الله تعالى:

أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم أن أصحاب الكهف لما خرجوا من كهفهم وعرف الناس بحالهم : ﴿**فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ**﴾، أي: سدوا عليهم باب كهفهم، وذروهم على حالهم: ﴿**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا**﴾ [الكهف: ٢١]، حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين:

أحدهما: أنهم المسلمون منهم.

والثاني: أهل الشرك منهم. فالله أعلم[٢].

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ[٣]، ولكن هل هم

(١) رواه أبو داود (٤٠٣١) بإسناد حسن.
(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٥/٢١٦)ط هجر.
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير (٥/١٣٣).

محمودون أم لا؟ فيه نظر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**». يحذر ما فعلوا[(١)].

وقد روينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق أمر أن يخفى عن الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدها عنده فيها شيء من الملاحم وغيرها»[(٢)].

وقال ابن جرير رحمه الله: «فبنوا عندهم كنيسة اتخذوها مسجدًا يصلون فيه»[(٣)]. وهذا دليل على أن أهل الكتاب هم الذين بدءوا بالبناء على القبور، واتخذوا القبور مواضع للعبادة.

ومما يدل على أن فعل وقول الأغلبية ليس فيه حجة، هو أن الغالب إنما يكونون من الرعاع والمتسلطين، ولا يكونون من العلماء والمتفقهين، ولهذا ذم الله تعالى الكثرة من الناس في قوله: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ [سبأ:١٣]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [الأنعام:١١٦].

الفقرة السادسة: خوف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من الأئمة المضلين:

لقد خاف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من الأئمة المضلين، سواء كان هؤلاء الأئمة المضلين من الأمراء والحكام أو من العلماء والطغام، أو من العُبّاد وأشباههم، فإنهم يحكمون بغير المنزل؛ فيُضلون ويضلون.

وفي الصحيحين: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العِباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبق عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جهالًا،**

---

(١) رواه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة وابن عباس رضي الله عنهم.

(٢) رواه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (صـ ٦٦)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣٨٢/١) من حديث أبي العالية، وذكره الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٣٧٦/٢) ط هجر، وقال: «وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية».

وقال ابن القيم: «ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار من تعمية قبره؛ لئلا يفتتن به الناس، ولم يُبْرزوه للدعاء عنده والتبرك به، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون الله، فهم قد اتخذوا من القبور أوثانًا مَنْ لا يُداني هذا ولا يقاربه، وأقاموا لها سَدنَة، وجعلوها معابد أعظم من المساجد». «إغاثة اللهفان» ط عالم الفوائد (٣٦٩/١).

(٣) ينظر: «تفسير الطبري» (١٩٦/١٥) ط هجر.

فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا»[١].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لزياد بن حُدير: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟» قلت: لا، قال: «يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين»[٢].

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ: «وهل أفسد الدين إلا الملوك *** وأحبار سوء ورهبانها»[٣].

وإن للأئمة المضلين علامات كثيرة، ومنها:

١ - أنهم يحكمون بغير الشرع، كالتحاكم إلى العقل، أو إلى الذوق، أو إلى العادات والتقاليد، أو كالتحاكم إلى القوانين الغربية، ونحو ذلك.

٢ - أنهم لا يعملون بالمنزل من الكتاب والسنة، كحال علماء السوء.

٣- أنهم لا يعلمون المنزل من الكتاب والسنة؛ كحال العُبّاد الجهلة.

٤- أنهم إنما حصلوا الضلال بسبب عدم المبالاة بفهم المنزل كما فهمه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم؛ فإن اتباع فهمهم عصمة من الضلال، وإن الفرق الضالة إنما ضلت بسبب أنها اتبعت فهومها في الكتاب والسنة، وفهمت على أهوائها.

٥- أنهم قد لا ينهون الناس عن الشرك، ويسمون الشرك بغير اسمه، كتسميتهم له بالتوسل، وكتسميتهم المعبود من دون الله وليا.

٦- أنهم يسوغون للناس البدع، ويحسنون في نظرهم المحدثات بحجة أنها حسنة، أو خير، أو فيها تثبيت للناس على الدين!.

٧- أنهم يأكلون أموال الناس بالباطل، فقد يأكل بالتمائم الشركية، وقد يأكل بالرقى البدعية، وقد يأكل الخُمس، ونحو ذلك.

٨- أنهم يخفون الكتاب، ويعلمون الناس المنامات والقصص والخرافات.

٩ - أنهم يتبعون أئمة الكفر، ويعظمونهم كأرسطو، وأفلاطون، ونحوهم.

١٠ - أنهم يذمون السلف الصالح.

١١- أنهم ينظرون إلى العامة، ويراعون حال العامة، ولا ينظرون إلى

(١) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٢) رواه الدارمي في «سننه» (٢٢٠) بإسناد صحيح.
(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٢/٢١٣).

الشرع، فصار همهم إرضاء العامة.

الفقرة السابعة: لا نبي بعد نبينا محمد ﷺ:

إن مسألة ختم النبوة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم أمر بين واضح، وفيه نصوص محكمة في الكتاب والسنة، ومع ذلك أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه سيكون هناك من يدعي النبوة، أو يدعى له ختم النبوة على يديه، ودعوى الكفار للنبوة أمر قد يكون لعدم إيمانهم بختم النبوة، ولكن أن يكون مدعي النبوة من أمة الإسلام فهذا عجب.

قال المصنف الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «والعجب العجاب بخروج من يدعي النبوة مثل: المختار، مع تكلمه بالشهادتين وتصريحه أنه من هذه الأمة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم حق، وأن القرآن حق، وفيه: أن محمدًا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله مع التضاد الواضح»(١).

وهكذا يخرج المدعون للنبوة كما خرج في هذا الزمن بعض زعماء الباطنية، كالمدعو بالباب صاحب الطريقة البابية، والبهاء صاحب الطريقة البهائية، وميرزا غلام أحمد القادياني صاحب الطريقة القاديانية، وهؤلاء كانوا يشهدون أن لا إله إلا الله، ويقرون برسالة الإسلام في الظاهر، ومع ذلك ادعوا النبوة ولهم أتباع، وهذا يدل على أن الأمر قد يكون واضحًا ومع ذلك تجد الناس على خلافه؛ فأمر التوحيد واضح وغالب الناس على خلافه، مع شهادتهم أن لا إله إلا الله؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله.

الفقرة الثامنة: لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق:

أخبر النبي صلى الله عليه وسلم فِي الأحاديث السابقة أن الأمة ستختلف، وأن هناك طائفة من الناس لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم شيئًا، وهذه الطائفة التي هي على الحق هي بالنسبة إلى أمة الإسلام قليلون؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أخبر أن هذه الأمة ستختلف إلى ثلاث وسبعين فرقة، وأنها كلها متوعدة بالنار إلا واحدة وهي الناجية المنصورة بالحق.

ولهذه الطائفة المنصورة علامات كثيرة، ومنها:

---

(١) تقدم هذا النص قريبًا في متن الباب.

١ - اتباعهم للكتاب.

٢ - اتباعهم للسنة النبوية الثابتة.

٣- اتباعهم طريقة المؤمنين من الصحابة ومن تبعهم بإحسان.

٤- اهتمامهم بعلم الرواية والدراية، والدعوة بالكتاب والسنة، وإلى الكتاب والسنة، لا إلى حزبية، ولا إلى طائفية، ولا إلى مذهبية، ولا إلى أغراض دنيوية.

٥- أنهم منصورون ظاهرون.

الفقرة التاسعة: دلائل النبوة من حديث ثوبان رضي الله عنه:

إن الدلائل الدالة على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من أن تُحصَر، ومن أعظمها هذا الكتاب المنزل عليه، وهو أُمي لا يقرأ ولا يكتب، ودلائل النبوة في السنة كثيرة، فحديث ثوبان فقط فيه من الدلالات ما يأتي:

١ - الإخبار بأن ملك هذه الأمة سيبلغ المشارق والمغارب، وقد حدث هذا بالفعل، فقد وصل الدين الإسلامي الحنيف إلى الشرق والغرب، من الصين إلى المغرب.

٢ - إخباره صلى الله عليه وسلم بأن المسلمين سيملكون بلاد الفرس والروم ويستولون على كنوزهم، وهذا قد وقع كذلك.

٣ - إخباره صلى الله عليه وسلم بما ستكون عليه الأمة من أنها لن تهلك بقحط عام.

٤ - إخباره صلى الله عليه وسلم بأن أعداء الإسلام لن يتمكنوا من الاستيلاء على ملك هذه الأمة، وأن بيضة المسلمين ستكون باقية وإن تسلط الكفار على بعض نواحيها.

٥- إخباره صلى الله عليه وسلم بأن سبب هزيمة هذه الأمة وسبب تسلط الكافرين على هذه الأمة إنما هو بسبب اختلافها وتقاتلها وأن بأس هذه الأمة سيكون بينهم.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

قال محمد تقي الدين الهلالي: «من سوء حظنا في هذا الزمان أننا نرى أوثانًا لها بيوت وأفنية يُذبح لها، ويطاف بها، وتُقَبَّل، ويُتمسَّح بها بقصد التبرُّك؛ أكثر مما كان عند العرب، ونحن عاجزون عن هدمها؛ لأن عُبَّادها لا يزال عددهم كثيرًا، ولكننا نستطيع القضاء عليها إذا وفقنا الله -تعالى- بدعوة الناس إلى هجرها والكفر بها، فيطول عليها الزمان فتتهدم من تلقاء نفسها، ويستريح الناس من شرها[1].

---

١)) ينظر: «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» للشيخ تقي الدين الهلالي (٢/٣١١).

٢٤- باب ما جاء في السحر

١- وقول الله تعالى: **﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾**(١).

٢- وقوله: **﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾**(٢).

٣- قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان(٣).

٤- وقال جابر: الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد.

٥- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**». قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»(٤).

٦- وعن جندب مرفوعًا: «حد الساحر ضربه بالسيف» رواه الترمذي. وقال: الصحيح أنه موقوف(٥).

٧- وفي «صحيح البخاري» عن بجالة بن عبدة قال: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر(٦).

٨- وصح عن حفصة رضي الله عنها أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها، فقتلت (٧).

---

(١) البقرة: ١٠٢.

(٢) النساء: ٥١.

(٣) علقه البخاري في (كتاب التفسير، باب **﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾** [النساء: ٤٣]، ٤٥/٦)، ووصله سعيد بن منصور في «سننه» (٢٥٣٩)، والطبري في «تفسيره» (١٣٥/٧)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩٧٤/٣-٩٧٥)، وغيرهم؛ كما في «فتح الباري» (٢٥٢/٨)، وقواه الحافظ.

(٤) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٥) رواه الترمذي (١٤٦٠)، وقال: «هذا حديث لا نعرفه مرفوعًا إلا من هذا الوجه, وإسماعيل بن مسلم المكي يضعف في الحديث من قِبل حفظه، ... والصحيح عن جندب موقوف، والعمل على هذا عند بعض أهل العلم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وغيرهم، وهو قول مالك بن أنس، وقال الشافعي: إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل في سحره ما يبلغ به الكفر، فإذا عمل عملا دون الكفر فلم نر عليه قتلًا».

(٦) رواه البخاري (٣١٥٦) وليس فيه الأمر بقتل الساحر، وبتمامه رواه أحمد (١٦٥٧)، وأبو داود (٣٠٤٣)، وإسناده صحيح.

(٧) رواه مالك في «الموطأ» (٨٧١/٢/ عبد الباقي) بلاغًا، ورواه موصولًا عبد الرزاق في

٩- وكذلك صح عن جندب(١). قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية النساء.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

السادسة: أن الساحر يكفر.

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر فكيف بعده؟

(سيأتي تعليق السعدي في «القول السديد» على هذا الباب في الباب التالي)

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢].

= «المصنف» (١٨٠/١٠ برقم ١٨٧٤٧)، وابن أبي شيبة «المصنف» (٤٥٣/٥ برقم ٢٧٩١٢) وغيرهما، وإسناده صحيح.

(١) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧٧/٢ برقم ١٧٢٥)، والدارقطني (٣٢٠٥)، والبيهقي (١٦٥٠١) وإسناده صحيح، ولفظه: عن أبي عثمان النَّهْدِيِّ، أن ساحرًا، كان يلعب عند الوليد بن عقبة فكان يأخذ السيف ويذبح نفسه ويعمل كذا ولا يضره، فقام جندب إلى السيف فأخذه فضرب عنقه، ثم قرأ: {**أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ**} [الأنبياء: ٣].

قال السعدي: «﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي: اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ﴾ أي: نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلًا ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة»(١).

٢- وقول الله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء:٥١].

قال السعدي: «وهذا من قبائح اليهود وحسدهم للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله، والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله، فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت»(٢).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو ذكر ما يتعلق بالسحر، ووجه إدخال السحر في كتاب التوحيد؛ لأن كثيرًا من أقسامه لا يتأتى إلا بالشرك، والتوسل بالأرواح الشيطانية، والتقرب إليهم بالعبادة.

ووجه دخول السحر في الشرك من جهتين:

١ - من جهة ما فيه من استخدام الشياطين ومن التعلق بهم.

٢- ومن جهة ما فيه من ادعاء علم الغيب الذي استأثر الله بعلومه وادعاء التأثير.

وإنما ذكر المصنف الباب مجردًا عن الحكم؛ لأن السحر بعض أنواعه لا يكون كفرًا، وإنما يدخل تحت مسمى السحر من حيث اللغة، وهذا مثل ما يكون من خفة اليد، وما يفعله النمام من الإفساد بين الخلان، ونحو ذلك؛ فلهذا ينظر في السحر: فإن كان من قبيل الشرك والكفر فإنه يكفر، وإلا فهو بحسبه.

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٦١).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٨٢).

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن السحر نوع من أنواع الشرك، وأن فاعله مشرك، وأنه لا يتأتى إلا بالشرك، وبيان الوعيد الشديد الذي جاء فيه.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف هذا الباب لبيان ما جاء في السحر من الوعيد الشديد، والتحذير منه وبيان خطورته؛ لأن كثيرًا من أقسامه لا يتأتى إلا بالشرك المنافي للتوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بين المصنف أن الغالب من الناس يتبعون أهل الكتابين، كما دل على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة، فكذلك يقع منهم الاتباع لأهل الكتابين في فعلهم وتعاملهم بالسحر، فناسب أن يذكره؛ لأنه ناقض للتوحيد، لأن السحر نوع من أنواع الشرك.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢]: استشهد بها المصنف لبيان أن الساحر لا حظ له في الآخرة عند الله، وهذا يدل على أنه شرك وكفر.

الآية الثانية: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾: أوردها لما فيها من الدلالة على أن اليهود آمنوا بالجبت وهو السحر؛ فسماه الله إيمانًا في معرض الذم فدل على أنه من الشرك.

وأما حديث: «اجتنبوا السبع الموبقات»: فقد بين به المؤلف أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر باجتنابه، وأخبر أنه من الموبقات، وأنه قرينة الشرك.

أثر جندب: أورده المصنف للدلالة على أن فهم الصحابة يدل على أن الساحر كافر؛ فلهذا كان حده القتل.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى السحر وحكمه:

السحر لغة: عبارة عما خفي ولطف سببه، وأصل السِّحْرِ صَرْفُ الشَّيْء عَن حَقِيقَتِهِ إِلَى غيره؛ تَقول الْعَرَب للرّجل: مَا سَحَرَكَ عَن وَجْه كَذَا وَكَذَا، أَي مَا صرَفَك عَنهُ، ومنه قوله تعالى: {فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} (الْمُؤْمِنُونَ: ٨٩) مَعْنَاهُ فَأَنَّى تُصْرَفُون[١].

وشرعًا: ذكر العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: أن (أن السحر في الاصطلاح لا يمكن حدّه بحدّ جامع مانع؛ لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته، ولا يتحقّق قدر مشترك بينها يكون جامعا لها مانعا لغيرها، ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حدّه اختلافا متباينا) [٢].

وهناك من أهل العلم من اجتهد في حدّه وتعريفه، وكان من بين تلك التعريفات قولهم: إن السحر هو ما يتعاطاه السحرة من عُقد وعزائم ورقى وأعمال تؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه.

قال ابن قدامة رحمه الله: (هو عقد وَ رُقَى، وكلام يتكلم به، أو يكتبه، أو يعمل شيئًا يؤثر في بدن المسحور، أو قلبه، أو عقله، من غير مباشرة له، وله حقيقة، فمنه ما يقتل، وما يُمرض، وما يأخذ الرجل عن امرأته، فيمنعه وطأها، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه، وما يُبغض أحدهما إلى الآخر، أو يحبب بين الاثنين) [٣].

حكم السحر: هاهنا حكمان:

أحدهما: حكم عمل السحر.

الثاني: حكم تعلم السحر وتعليمه.

فكلاهما محرمان، ومن الكبائر بالإجماع؛ حكى الاتفاق والإجماع على ذلك غير واحد من أهل العلم، منه الحافظ النووي رحمه الله حيث قال: (فعمل السحر

---

(١) انظر: تهذيب اللغة للأزهير (١٧٠/٤)، والصحاح للجوهري (٦٧٩/٢)، ولسان العرب (١٨٩/٦).
(٢) أضواء البيان (٤١/٤).
(٣) المغني (٢٨/٩).

حرام وهو من الكبائر بالإجماع[(١)].

وقال ابن قدامة رحمه الله: (إن تعلم السحر وتعليمه حرام، لا نعلم فيه خلافا بين أهل العلم)[(٢)].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (والسحر محرم بالكتاب والسنة والإجماع)[(٣)].

وأما من جهة الحكم بالكفر والشرك، سواء من جهة العمل به، أو من جهة تعلمه وتعليمه، فقد اختلف أهل العلم في ذلك على قولين:

القول الأول: أنه كفر أكبر، وشرك بالله تعالى؛ وصاحبه كافر بالله العظيم، وهو قول جمهور العلماء، وعلى رأسهم أئمة المذهب الثلاثة، أبو حنيفة، ومالك، وأحمد رحمهم الله تعالى.

وعلل أهل العلم ذلك: أن عمل السحر وتعلمه وتعليمه لا يتأتى إلا بالشرك والكفر، واستخدام الشياطين، وعبادة غير الله تعالى.

القول الثاني: قول الإمام الشافعي وأصحابه وهو التفصيل: أي أنه قَدْ يَكُونُ كفرا، وقد لايكون كُفْرًا بَلْ مَعْصِيَتُهُ كَبِيرَةٌ؛ فَإِنْ كَانَ فِيهِ قَوْلٌ أَوْ فِعْلٌ يَقْتَضِي الْكُفْرَأواعْتَقَدَ مَا يُوجِبُ الْكُفْرَ، مِثْلَ التَّقَرُّبِ إِلَى الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ، وَأَنَّهَا تَفْعَلُ مَا يَلْتَمِسُ، أَوِ اعْتَقَدَ حِلَّ السِّحْرِ: كَفَرَ

وَإِلَّا فَلَا يكفر بل يفسق؛ لِأَنَّهُ شَيْءٌ يَضُرُّ بِالنَّاسِ، فَلَمْ يُكَفَّرْ بِمُجَرَّدِهِ كَأَذَاهُمْ.

وكذلك القول في تَعَلُّمُهُ وَتَعْلِيمُهُ؛ فَإِنْ تَضَمَّنَ مَا يَقْتَضِي الْكُفْرَ كَفَرَ، وَإِلَّا فَلَا[(٤)].

والتحقيق كما قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: (ليس بين القولين اختلاف، فإن من لم يكفر لظنه أنه يتأتى بدون الشرك وليس كذلك بل لا يأتي السحر الذي من قبل الشياطين إلا بالشرك وعبادة الشيطان والكواكب، ولهذا سماه الله كفرًا في قوله: {إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ}، وقوله: {وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا}...وأما سحر الأدوية والتدخين ونحوه فليس بسحر، وإن سمي سحرًا فعلى سبيل المجاز كتسمية القول البليغ والنميمة سحرًا، ولكنه يكون

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم (١٤/١٧٦).
(٢) المغني (٩/٢٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/١٧١).
(٤) انظر: المغني لابن قدامة (٩/٢٩-٣٠)، والمنهاج شرح صحيح مسلم (١٤/١٧٦).

حرامًا لمضرته يعزر من يفعله تعزيرًا بليغًا [(١)].

الفقرة الثانية: حد الساحر:

دلت الأدلة الشرعية على أن حد الساحر القتل، ومن الأدلة على ذلك:

١ - ما روي عن جندب رضي الله عنه مرفوعًا: «**حد الساحر ضربة بالسيف**».

٢- ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أنه كتب إلى عماله أن اقتلوا كل ساحر وساحرة».

٣- ما صح عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها: «أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت». فهؤلاء كما قال الإمام أحمد رَحِمَهُ الله: ثلاثة نفر من الصحابة صح عنهم ذلك[(٢)].

٤- أن الساحر مغير لدينه وإن ادعى الإسلام؛ لأنه قد وقع في الشرك بسحره، وقد جاءت الأدلة على أن المبدل لدينه يقتل، كما قال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : «**من بدل دينه فاقتلوه**»[(٣)].

٥- الإجماع قائم على أن المبدل للدين يقتل، وأجمعوا على أن من تعاطى السحر بشرك أو كفر أنه كافر ومشرك، وأنه يقتل، وإنما اختلفوا فيما إذا لم يثبت تعاطيه السحر والكهانة وإنما كان خفة يد ونحو ذلك من الدجل[(٤)]؛ فعلى الدولة المسلمة كف شر السحرة عن المسلمين، وذلك بمنع كتب السحر من الدخول إلى بلاد الإسلام، ومنع السحرة من الدخول إلى بلاد الإسلام إن كانوا غير مسلمين، وإن دخلوا بلاد المسلمين فالواجب إقامة الحدود الشرعية عليهم، ومنعهم من الإفساد في الأرض.

الفقرة الثالثة: حكم الذهاب للسحرة للعلاج:

لا يجوز الذهاب إلى السحرة من أجل العلاج، قال الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله: «وهو الصحيح عند أهل العلم، ولو كان من باب التداوي، ولو لم

---

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٣٢٧).
(٢) تقدم تخريج كل ذلك في أول الباب.
(٣) رواه البخاري (٣٠١٧).
(٤) ينظر: «معارج القبول» للشيخ حافظ حكمي (٢/٥٥٨).

يكن يرضى بذلك؛ لأن الذهاب إليهم دعوة لهم إلى الشرك، وأن يفعلوا ما حرَّم الله؛ بل يتعاطى الأدوية الشرعية»[١].

الفقرة الرابعة: معنى السبع الموبقات:

الأعمال والذنوب المهلكة في حديث أبي هريرة رضي الله عنه هي:

١ - الشرك بالله: وهو أعظم الذنوب، وهو عبادة غير الله مع الله، أو صرف العبادة لغير الله مطلقًا.

٢- السحر: وذكر السحر؛ لأنه قرين الشرك؛ فالسحر لا يتأتى بدون الشرك.

٣- قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، أي: نفس المسلم، أو الذمي المعاهد، أو المستأمن، أي: قتل معصوم الدم عمدًا.

٤- أكل الربا وتعاطيه والمعاملة به.

٥ - أكل مال اليتيم والتعدي عليه والتصرف فيه بغير وجه حق.

٦ - التولي يوم الزحف، أي: الإدبار والفرار من وجوه الكفار إلى غير فئة، إذا كان عدد الكفار ضعف عدد المسلمين، أما إذا كان عدد الكفار أضعاف المسلمين؛ فإنه يحل حينئذ الفرار، حتى يتقوى المسلمون.

٧- قذف المؤمنات الغافلات البريئات بالزنا.

فيجب الحذر من فعل هذه الأعمال المهلكة؛ لأنها من كبائر الذنوب، وتوجب غضب الرب تبارك وتعالى.

الفقرة الخامسة: سُبل الوقاية من السحر:

خير علاج للسحر أن يتقيه المسلم ويحترز منه قبل وقوعه وحدوثه، بفعل المأمورات، وترك المنهيات والبعد عن أسباب الوقوع فيها، والمحافظة على الأذكار، وسؤال الله تعالى العافية، وأهم ما يعالج به المسلم من السحر إذا وقع هو:

١ - قراءة: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾، و﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾، و﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ**

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١٣٥).

النَّاسِ﴾ ثلاث مرات في أول النهار وأول الليل.

٢ - قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه**»[١].

٣ - قراءة آية الكرسي: **﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾** [البقرة:٢٥٥] إلى آخر الآية، وهي أعظم آية في القرآن.

٤- التعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق في الليل والنهار، وعند نزول أي منزل في البناء أو الصحراء؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**من نزل منزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق؛ لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**»[٢] .

٥- قراءة سورة البقرة يوميًّا؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**اقرءوا سورة البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة**»[٣]. قال معاوية: بلغني أن البطلة السحرة. أي أن السحرة لا يستطيعون مقاومتها.

٦- يأخذ سبع ورقات من سدر، ثم يجعلها في ماء، ويقرأ فيه بآية الكرسي، والقوافل: وهي آيات السحر التي في الأعراف، ويونس، وطه، ويغتسل بمائها كل يوم حتى يشفى.

رواه ابن أبي حاتم عن ليث بن أبي سليم قال: (بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم تصب على رأس المسحور؛ الآية التي في يونس □**فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ٨١ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ٨٢**□ □يُونُس□ □يُونُس□ وقوله □**فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١١٨**□ □الأَعۡرَاف□ ، إلى آخر أربع آيات، وقوله: □**إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ٦٩**□ □طه□)[٤] .

وذكر ابن بطال رحمه الله أنه في: (كتب وهب بن منبه أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي وذوات قل، ثم يحسو منه ثلاث حسوات ويغتسل به؛ فإنه يذهب عنه كل

---

(١) رواه البخاري (٥٠٠٩)، ومسلم (٨٠٨) من حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠٨) من حديث خولة بنت حكيم رضي الله عنها.
(٣) رواه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم (١٩٧٤/٦).

ما به إن شاء الله، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله)[١] .

ونقله الحافظ ابن حجر رحمه الله، كالمقرر له[٢]، وقد يقال إنه هذا لا يقال إلا بدليل من الكتاب والسنة، والله أعلم.

٧- يكثر من الدعاء والالتجاء إلى الله تعالى ويكثر من الحسنات ومن ضمن ذلك الصدقات، والصيام، ولا بأس أن يحتجم حتى يضيق على السحر مجاري الدم، وأن يفصد، ونحو ذلك من الأدوية المشروعة، وإذا وجد السحر يقطعه ويتلفه ثم يحرقه أو يدفنه.

الفقرة السادسة: موقف المسلم من السحرة والمشعوذين:

السحر والشعوذة من أعمال الجاهلية التي جاء الإسلام بإبطالها، والتحذير من فعلها، أو إتيان من يمارسها؛ فيجب على المسلم أن يبتعد عن السحرة والمشعوذين، ويحذر منهم ومن إتيانهم وسؤالهم أو تصديقهم؛ فإن ذلك ينقص إيمانه، بل قد يبطل إيمانه كله.

ولا يجوز للمسلم أن يعالج السحر بسحر مثله، بل يعالجه بالشرع؛ فإن شفاه الله فذلك فضل الله تعالى، وإن لم يكتب له الشفاء، فإنه لا يجوز له أن يبحث عن الوسائل المحرمة للخلاص من هذه الفتنة، وليعلم أن ذلك ابتلاء من الله تعالى؛ فليصبر وليحتسب الأجر عند المولى عَزَّوَجَلَّ.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

(سيأتي الكلام عن ذلك في المقصد الرابع من الباب التالي).

---

(١) شرح صحيح البخاري (٤٤٦/٩).
(٢) انظر: فتح الباري (٢٣٣/١٠).

٢٥- باب بيان شيء من أنواع السحر

١- قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن العِيافة والطَّرق والطيرة من الجبت**». قال عوف: العيافة: زجر الطير. والطرق: الخط يخط بالأرض. والجبت: قال الحسن: إنه الشيطان. إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه المسند» منه(١).

٢- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**» رواه أبو داود وإسناده صحيح(٢).

٣- وللنسائي من حديث أبي هريرة: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئا وُكِلَ إليه**»(٣).

٤- وعن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة: القالة بين الناس**» رواه مسلم(٤).

٥- ولهما عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن من البيان لسحرًا**»(٥).

فيه مسائل:

الأولى: أن العِيافة والطَّرق والطيرة من الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق.

الثالثة: أن علم النجوم نوع من أنواع السحر.

الرابعة: أن العقد مع النفث من ذلك.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٠٦٠٤), وأبو داود (٣٩٠٧), والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٠٤٣)، وابن حبان (٣١٣١)، وإسناده ضعيف.

(٢) رواه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦) بلفظ: «**من اقتبس علمًا من النجوم، اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**»، وصححه شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٩٣/٣٥).

(٣) رواه النسائي (٤٠٧٩)، وفي إسناده لين وانقطاع.

(٤) رواه مسلم (٢٦٠٦).

(٥) رواه البخاري حديث رقم (٥١٤٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنه، وإنما رواه مسلم (٨٦٩) من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه.

الخامسة: أن النميمة من ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

وجه إدخال السحر في أبواب التوحيد أن كثيرًا من أقسامه لا يتأتى إلا بالشرك، والتوسل بالأرواح الشيطانية إلى مقاصد الساحر، فلا يتم للعبد توحيد حتى يدع السحر كله قليله وكثيره؛ ولهذا قرنه الشارع بالشرك، فالسحر يدخل في الشرك من جهتين: من جهة ما فيه من استخدام الشياطين ومن التعلق بهم، وربما تقرب إليهم بما يحبون ليقوموا بخدمته ومطلوبه، ومن جهة ما فيه من دعوى علم الغيب، ودعوى مشاركة الله في علمه وسلوك الطرق المفضية إلى ذلك، وذلك من شعب الشرك والكفر.

وفيه أيضًا من التصرفات المحرمة والأفعال القبيحة كالقتل والتفريق بين المتحابين والصرف والعطف والسعي في تغيير العقول، وهذا من أفظع المحرمات، وذلك من الشرك ووسائله، ولذلك تعين قتل الساحر لشدة مضرته وإفساده.

ومن أنواعه الواقعة في كثير من الناس: النميمة، لمشاركتها للسحر في التفريق بين الناس، وتغيير قلوب المتحابين وتلقيح الشرور، فالسحر أنواع ودركات بعضها أقبح وأسفل من بعض.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى أحاديث الباب إجمالًا:

الحديث الأول: فيه بيان بعض أنواع السحر.

الحديث الثاني: يخبر ﷺ في هذا الحديث خبرًا معناه النهي والتحذيرُ أنَّ من تعلم شيئاً مِنَ التنجيم فقد تعلم شيئاً مِنَ السحرِ المحرم ، وكلما زاد تعلُّمه التنجيم زاد تعلُّمه السحرَ؛ وذلك لأنَّ التنجيم تحكم على الغيب، بحيث إنَّ المنجم يحاول

اكتشاف الحوادِثِ المستقبلة التي هِيَ مِنْ علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه(١).

الحديث الثالث: يبين ﷺ نوعاً مِنْ أنواع السحرِ وحكمه، محذراً أُمته من تعاطيه، فيقولُ: إنَّ مِنْ أَنواع السحرِ أنْ يعقد العقد في الخيوط ونحوها، وينفخ في تلك العقدِ نفخاً مصحوباً بالريق؛ وذلك أنَّ السحرة إذا أرادوا عمل السحرِ عقدوا الخيوط، ونفثُوا على كُلِّ عقدة حتّى ينعقد ما يريدون مِنَ السحر، فتتكيف نفسُهُ الخبيثة بالشر، ويستعين بالشياطين، وينفخُ في تلك العقد، فيخرجُ مِنْ نفسِهِ الخبيثةِ نَفَس مقترن بالريقِ الممازج للشر، ويستعينُ بالشياطين فيصيبُ المسحور بإذن الله الكوني القدري(٢).

الحديث الرابع: أراد ﷺ أن يُحَذِّرَ أُمَتَهُ عَنِ السعايةِ بينَ الناس بنقل حديث بعضهم في بعض على وجه الإفسادِ، فافتتح حديثَهُ بصيغة الاستفهام، ليكون أوقع في النفوس وأدعى للانتباه، فسألَهُمْ ما العَضْهُ؟ ـ أي : ما السحرُ ـ ثُمَّ أَجابَ عن هذا السؤال بأنَّ العَضْه هو نقلُ الحديثِ بينَ الناس على وجه الإفسادِ وكثرة القول وإيقاع الخصومَةِ بينهم؛ لأنَّ ذلك يفعلُ ما يفعلُهُ السحرُ مِنَ الفسادِ وتفريق القلوب(٣).

الحديث الخامس: يبين ﷺ نوعاً آخرَ مِنْ أَنواع السحرِ وهو: البيانُ المتمثل في الفصاحَةِ والبلاغة؛ لما يحدثُهُ هذا النوعُ مِنْ أَثرٍ في القلوبِ والأسماع؛ حتَّى رُبَّما يصور الحقَّ في صورةِ الباطِلِ والباطل في صورةِ الحقِّ؛ كما يفعل السحر. والمراد ذمُّ هذا النوع مِنَ البيانِ الذي يلبسُ الحقَّ بالباطل ويموه على السامِعِ.

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان شيء مما يسمى سحرًا؛ وقد يكون منه، وقد لا يكون، وهذا تفصيل للباب الأول، وأن من السحر ما هو دونه في الحكم، وإن اتحد في اللفظ.

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٢٠٥).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٢٠٧).

(٣)ينظر: المصدر السابق (صـ ٢٠٩).

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان شيء من أنواع السحر، حتى يُعرف السحر بأنواعه كلها، ويُعرف حكمه بالتفصيل.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض المصنف أن يبين أن للسحر أنواعًا، وأنه ليس نوعًا واحدًا، وأن حكم كل نوع إنما هو بسببه وطريقته وحسبه.

قال الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله: «أراد المؤلف أن يبين شيئًا مما يسمى سحرًا؛ لينتبه المؤمن، ويجتنبها ويبتعد عنها، وقد تُسمى سحرًا من جهة المعنى والحقيقة الذي هو استخدام الشياطين وعبادتهم؛ فهذا سحر محض؛ أما الثانية فهو يعمل عمل السحر، ويؤذي وإن لم يكن سحرًا في الحقيقة»[١].

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر المؤلف في الباب السابق السحر وخطورته وبيان حكمه، ناسب أن يذكر بعض أنواع السحر، ويبين ما يسمى سحرًا؛ لكي ينتبه المؤمن، ويبتعد عنه، وذلك من أجل بيان خطورتها، والتحذير منها.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

الحديث الأول : «إن العِيافة والطَّرق»: فيه الدلالة على أنواع من السحر.

الحديث الثاني: «من اقتبس شعبة من النجوم»: أراد المؤلف الاستدلال به على أن من تعلم النجوم معتقدًا تأثيرها في الكون أن ذلك من أقوال المنجمين والمشعوذين، وهو باطل، وهو نوع من أنواع السحر[٢].

الحديث الثالث: «من عقد عقدة ثم نفث»: أراد به بيان شيء من أنواع السحر، وأن منها العقد والنفث، وذلك يكون بتعاونهم مع الشياطين، فقد يقع لهم

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١٣٩).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٣٩).

بعض ما أرادوا بتقدير الله تعالى[١].

الحديث الرابع: «ألا أنبئكم ما العضه»، والحديث الخامس: «إن من البيان لسحرا»: استشهد بهما المصنف للتنبيه على ما قد يسمى سحرًا لغة، وليس هو سحرًا شرعًا، وإن كان مذمومًا، وذلك مثل النميمة، والبيان الذي يكون في الكلام.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: أقسام السحر:

السحر قسمان:

١ - قسم يكون بالعقد والنفث، والأدوية الضارة، وهذا موجود معروف.

٢ - قسم يكون بالتخييل، والتلبيس والتزوير؛ كما قال الله تعالى عن سحرة فرعون: ﴿**يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى**﴾ [طه: ٦٦]، وقال: ﴿**وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**﴾ [الأعراف : ١١٦]؛ فسماه عظيمًا لما فيه من التلبيس والتخييل على الناس[٢].

الفقرة الثانية: هل سُحِرَ النبي صلى الله عليه وسلم؟

النبي صلى الله عليه وسلم قد سحر؛ كما في «الصحيح»[٣]، قال الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله: «ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد سحر، لكنه لم

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٤١).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٤١).

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩)، ولفظه: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سُحِر النبي صلى الله عليه وسلم، حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا، ثم قال: «**أشعرت أن الله أفتاني فيما فيه شفائي، أتاني رجلان: فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال أحدهما للآخر ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم، قال: فيما ذا، قال: في مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر، قال فأين هو؟ قال: في بئر ذروان**»، فخرج إليها النبي صلى الله عليه وسلم، ثم رجع فقال لعائشة حين رجع: «**نخلها كأنه رءوس الشياطين**»، فقلت استخرجته؟ فقال: «**لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرًا**» ثم دفنت البئر.

يؤثر عليه شيئًا في أمور الرسالة، وإنما كان فيما يتعلق بينه وبين أهله ...»[(١)].

الفقرة الثالثة: حكم تعلم السحر:

تعلم السحر من الكبائر، وهو محرم حتى لو قُصِد به فك السحر؛ لأنه يترتب عليه عبادة غير الله، أو فعل محرم، أو ترك واجب، وهذا متفق عليه بين الفقهاء، وقد قال الله تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢].

وقد اختلف أهل العلم في كفر من تعمله، على قولين:

أحدهما: أنه يكفر وقال به جمهور العلم، منهم أئمة المذاهب الأربعة الثلاثة؛ أبو حنيفة، ومالك، ورواية عن أحمد رحمهم الله تعالى.

الثاني: التفصيل

الفقرة الرابعة: معنى العيافة والطرق والطيرة وحكمها:

العِيافة: زجر الطير وتنفيرها والتفاؤل بأسمائها وأصواتها.

الطَّرق: الخط يُخط في الأرض يدعون به علم الغيب.

الطيرة: التشاؤم بالأشياء كالطيور وأصواتها[(٢)].

وجميع الأعمال السابقة حكمها حرام وشرك؛ لما فيها من ادعاء لعلم الغيب، واعتقاد في أشياء ليست مؤثرة بنفسها، ولم يجعلها الله تعالى سببًا في التأثير.

الفقرة الخامسة: معنى التنجيم وعلاقته بالسحر:

التنجيم الوارد ذكره في الحديث هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٣٨).
(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٣٣٠/٣)، وإحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد (٢٠٧/٢)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لعلي القاري (٢٨٩٦/٧).

الحوادث الأرضية، كأن يستدل بظهور النجم الفلاني على مولد رجل عظيم، أو الاستدلال بأفول نجم على موت رجل، ونحو ذلك، وهو محرم، وعلاقته بالسحر أن كلا من المنجم والساحر يدعي علم الغيب.

وخلق الله تعالى النجوم لثلاثة:

١ - زينة للسماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ**﴾ [الحجر : ١٦].

٢ - رجوما للشياطين، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ**﴾ [الملك: ٥] .

٣- الاهتداء بها لمعرفة الطرقات والشمال والجنوب، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿**وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ [النحل : ١٦]، ويدخل في كون النجوم يحصل بها الاهتداء لمعرفة الطرقات معرفة طرقات ومواسم الزراعة، والبرودة والحرارة؛ فيعرف أهل الاختصاص أن النجم الفلاني إذا ظهر فإنه علامة على دخول فصل كذا وكذا، وقد جعله الله كذلك.

فمن ادعى في النجوم تأثيرًا أو علامة على الغيب فقد تقول ما لا علم له به، وافترى كذبًا وزورًا، ولذلك من اقتبس منه علم الغيب، أو القول بأنه مؤثر؛ فقد اتخذ النجوم شعبة من السحر.

الفقرة السادسة: معنى العضه وعلاقته بالسحر:

العضه: رويت عَلى وجهين: أحدهما العضه بكسر العين وفتح الضاد المعجمة على وزن العدة والزنة. والثاني: العضه بفتح العين وإسكان الضاد على وزن الوجه وهذا الثاني هو الأشهر في كتب الحديث وكتب غريبه. والأول أشهر في كتب اللغة[1].

والعضه: البهت، والمراد بها هنا النميمة، وهي: نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد بينهم، وهي من الكبائر.

وفسر العضه بالسحر، وهو بلسان قريش، ومنه يقولون للساحرة:

(١) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي (١٥٩/١٦).

عاضهة[1].

وعلاقتها بالسحر: أن النمام يفسد بين الناس ويفرق بينهم بكلامه، وكذلك الساحر يفسد بين الناس ويفرق بينهم بسحره؛ فأورد المصنف هذا الحديث في الباب لبيان التماثل بين تأثير السحر وتأثير النميمة.

الفقرة السابعة: البيان وأنواعه ووجه تشبيهه بالسحر:

البيان في اللغة: البلاغة والفصاحة، وهو نوعان:

١- بيان مذموم وهو الذي يجعل الحق في صورة الباطل، والباطل في صورة الحق، يستميل صاحبه قلوب الجهال حتى يقبلوا الباطل، وينكروا الحق، وهذا هو المقصود في الحديث: «**إن من البيان لسحرًا**»، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٥].

٢ - ممدوح: وهو الذي يوضح الحق ويقرره ويبطل الباطل ويبينه.

ووجه تشبيه البيان بالسحر: لشدة تأثيره في قلوب سامعيه.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

قال محمد تقي الدين الهلالي رحمه الله: «تعلمتُ شيئًا من خط الرمل بقصد الاطلاع؛ فوجدته لا يَمُتُّ بأيِّ صلة إلى علم المـُغيَّبات، وإنما هو حيلة يحتال بها البطَّالون على أكل أموال الناس بالباطل، وأكثر من ينخدع لهم النساء والجهال، ولهم في ذلك مهارة عجيبة؛ فإن أشكال الرمل:

منها: ما سمي باسم يدلُّ على المرغوب؛ كالطريق، والأحيان الفارح والنصرة، والجماعة.

ومنها: ما سمّي باسم يدل على المـَخُوف؛ كالأحيان الأنكيس، والحمرة.

وهي ستة عشر شكلًا؛ أصلها أربعة، فإذا ظهر شكلٌ يدل على الخير -

---

(١) ينظر: غريب الحديث لابن قتيبة (ص٢٤٠)، وفتح الباري لابن رجب (٧٥/١).

كالجماعة مثلًا - يقول العرَّاف للسائل: لعلك تسأل عن شخص غائب عنك، أهو كذلك؟ فيقول هذا السائل المغفل أو السائلة المغفّلة: نعم يا سيدي! رحم الله من علّمك، ابني غاب عني منذ ثلاث سنين، وتبكي السائلة؛ فيقول العرَّاف: أبشري! فقد خرج لك شكل الجماعة؛ فستجتمعين به عن قريب.

وإذا خرج شكل يدل على الشرِّ؛ يقول: إن المسؤول عنه في شدَّة؛ إما في مرض أو سجن أو حزن.

ويعطي ذلك إجمالا؛ فيعطيه السائل أو السائلة التفاصيل، وهو لا يشعر؛ فيعود العرَّاف فيردُّ عليه تلك التفاصيل، ويزخرفها بأكاذيب يزيدها من عنده، فلا يشكُّ هذا المغفّل أو هذه المغفلة أن ذلك العرَّاف أو تلك العرافة قد اطَّلعا على أحواله وتوصَّلا إلى عِلْم الغيب بتلك النُّقط أو الخطوط، وهذا من فشوِّ الجهل والغباوة وما أحسن ما قال الشاعر[1]:

لَعَمْرِي مَا تَدْرِي الطَّوَارِقُ بِالحَصَى وَلَا زَاجِرَاتُ الطَّيْرِ مَا اللَّه صَانِعُ»[2].

وقال محمد تقي الدين الهلالي أيضًا:«وذلك أن الكاهن يضع رملًا أمامه، وينكت في ذلك الرمل بإصبعه نكتًا، كل نكتة فيها كحفرة صغيرة، ويجعلها أربعة أعمدة مبتدأة من الأسفل إلى الأعلى، ثم يسقط تلك العلامات اثنتين اثنتين مبتدئًا من الأسفل إلى الأعلى في الأعمدة الأربعة، ويترك الحفرة الأخيرة والحفرتين الأخيرتين فيتألف له شكل، وكل شكل له اسم فلنفرض أنه أسقط الأعمدة الأربعة اثنتين اثنتين، فبقي من كل عمود نقطة واحدة؛ فيظهر شكل يتألف من عمود فيه أربع نقط، ويسمى هذا: «الطريق»، ثم يعيد العمل فيبقى - مثلًا - من كل عمود نقطتان أو حفرتان؛ فيتألف منهما عمود فيه ثمان نقط أو حفر ويسمى هذا الشكل: «الجماعة»، ويستمر هكذا إلى أن يخرج ستة عشر عمودًا على طريقة الزوج والفرد، ولكل شكل اسم يدل على معنى من المعاني؛ فهناك الطريق والجماعة - كما تقدم-، وهناك النصرة الداخلة والنصرة

---

١)) هو: لبيد بن ربيعة. ينظر: «ديوانه» (صـ ١٧٢)، و«المستطرف» للإبشيهي (صـ ٣٣٥)، و«الحيوان» للجاحظ (٣٠٧/٥)، و«الفاخر» للمفضل بن سلمة (صـ ٩٨)، و«الأوائل» للعسكري (صـ ١٠٩).

٢)) ينظر: «الإلهام والإنعام في تفسير سورة الأنعام» للشيخ تقي الدين الهلالي (صـ ٧٦-٧٧).

الخارجة، والأحيان الأنكيس، والأحيان الفارح، وقد ذكر هذه الأشكال كلها صاحب «القاموس»، وكتب صورها؛ فراجعه.

فإذا فرضنا أن رجلًا أو امرأة جاء أحدهما إلى الكاهن الذي يسمى: «الرَّمَّال»، وقال له: عندي مسافر غائب منذ زمان فأخبرني بخبره أو يقول: عندي حاجة أخبرني بها، فينكت في الرمل فيخرج له في أول مرة: الطريق - مثلًا ، فيقول: أنت تسأل عن شخص مسافر غائب عنك؛ لأن الطريق يدل على ذلك، أصحيح ذلك؟ فيقول السائل: نعم. فيأخذ الكاهن من السائل علمًا تفصيليًّا بعد أن أعطاه علمًا إجماليًّا، ثم يخط فتخرج له الجماعة، فيقول: أنت حريص على الاجتماع به؟ فيقول: إي والله يا سيدي! هو ابني غاب عني منذ أربع سنين، ولم أسمع له خبرًا، فيقول: أبشر ستجتمع به. ثم يخط فيخرج له الأحيان الأنكيس، فيقول: إن صاحبك وقع في شدة عظيمة، ولكن هذا في شكل النصرة الخارجة إلى جانبه يدل على أنه سيخرج منها بسلام وانتصار.

وهكذا لا يزال الكاهن يعطي السائل الغبي أمورًا إجمالية لا يخلو منها زمان ولا مكان والسائل المغفل يعطيه التفاصيل حتى يأخذ التفاصيل منه، ثم يعيدها عليه يسردها سردًا، فيعتقد هذا المغفل أنه علم من خط الرمل كل أخبار المسؤول عنه وأخبره، والحقيقة أن السائل هو الذي أخبر الكاهن بكل شيء، وهو لا يشعر، فإن صدق ما أخبره به; ازداد اعتقادًا في صحة كهانته، وإن أخطأ؛ غفل عن خطئه.

فهذه باختصار إشارة تعرفك أيها القارئ بحقيقة ما يسمى بـ:«خط الرمل»، وأزيدك بيانًا فأقول:

إن رَمّالًا كبيرًا كان يستخرج السرقات - بزعمهم- لقيته فقلت له: كم تأخذ من كل سائل؟ فقال آخذ ربع ريال، فقلت له: إن أجبتني عما سألتك عنه اعطيتك بدل ربع ريال ريالًا كاملًا، فقال: قل، فخبأت له أربعة رؤوس أقلام نحاس أحمر، فأخذ يخط، فقال لي: أولًا: إن هذا الشيء الذي تسأل عنه أحمر؛ لأنه ظهر لي شكل الحمرة، أهو كذلك؟ فقلت له: أنا لا أخبرك بشيء؛ فينقلب المستخبِر –بالكسر- مستخبَرًا -بفتح الباء-، اجمع أشكالًا كلها واستخرج منها الخبر وأخبرني وخذ ريالًا. فقال لي: أنت ليس لك قصد حسن ولا نية طيبة، وهذا الأمر يتوقف على حسن النية، فقلت له: حسن النية هنا لا يؤثر شيئًا، وكذلك سوء النية، إن كنت صادقًا فيما تدعيه من استخراج المغيبات؛ فأخبرني بما سألتك عنه، ثم خط في الرمل، وقال لي: هذا شيء دخل النار وخرج منها، هل هذا صحيح؟ فقلت: أنا سائل لا مُخبر. واستمر معي على هذا الشكل من

الحوار، كلما أراد أن يستخرج مني علمًا تفصيليًّا امتنعت من ذلك؛ لأنني أعرف سر حرفته، فافتضح وعجز.

وأذكر حكاية أخرى تزيد الأمر وضوحًا: كنت أنا ورفيقي وأخي الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة في ضيافة العالم السلفي النبيل الشيخ عبد الرحمن بركات عمدة مدينة «ميت غمر» في مصر، وكنا قد تعشينا وجلسنا نمص قصب السكر ونتحدث، فطرق الباب رجل ففتح له البواب، وقال: من أنت؟ فقال: أنا حكيم مغربي عالم بالروحانيات، أريد زيارة سعادة العمدة، فأذن له في الدخول، فلما جاء سلم على العمدة وجلس فأمر له بالعشاء وتعشى، ثم قال له الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة -رحمة الله عليه-: هاهنا مغربي-يشير إليّ- فأخبره ببلدك في المغرب، فقال: عفوًا! أنا لست مغربيا في الحقيقة، وإنما أستاذي الذي علمني الحكمة والعلم الروحاني كان مغربيا؛ فانتسبت إلى المغرب من هذا الوجه، فقال له: تعرف خط الرمل؟ فقال: طبعا أعرفه، فقال: أريد أن أخبئ لك خبأً، فإن اطلعت عليه وأخبرتني به؛ أعطيتك حلوانًا كبيرًا، فقال: إن السماء متغيمة وخط الرمل ينبغي أن يكون في الصحو. فقال: أنت عالم روحاني وشيخك مغربي؛ فلا يضرك عدم صحو السماء، فقال: طيب؛ اسأل عما بدا لك. فقال: سأكتب سؤالًا، واختر أنت واحدًا من الحاضرين تثق به وأنا أضعه عنده، ثم اشتغل أنت بخط الرمل حتى تعرف ما خبأت لك وأخبرنا به، ثم نخرج السؤال المكتوب، فإن كان جوابك مطابقا له؛ ظهر صدقك وثبت لك الحلوان، وإن ظهر خلاف ذلك؛ لم يثبت لك شيء مما تدعيه.

فأخذ يخط في ورقة بيضاء يضع فيها نقطا على شكل أعمدة -كما تقدم-، واشتغل فيها طويلا، ثم قال في النتيجة إنك تسأل عن شخص أسمر طويل غاب عنك منذ مدة وستجتمع به في زمان قريب، فقال له: هذا السؤال المكتوب واقرأه. وكان قد اختار فضيلة الشيخ عبدالرحمن، فأخذه منه فقرأه، فوجد فيه قوله - تعالى -: ﴿**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾ [الإسراء: ٨١]، فضحك الحاضرون وغضب الزائر وسب الشيخ محمد حمزة -رحمة الله عليه-، وحلف أن لا يبقى في مجلس يوجد فيه، فانصرف يجر أذيال الخيبة.

وليس مقصودي بهاتين الحكايتين وما ذكرت معهما أن الكاهن الحقيقي لا يطلع على شيء أبدا من المغيبات؛ فقد ثبت في «الصحيح» أن النبي ﷺ خبأ لابن صياد في نفسه سورة الدخان، ثم سأل النبي ﷺ ابن صياد بقوله: «**قد خبأت لك خبأ فما هو؟**»، فقال هو الدخ - يعني: الدخان - فقال له النبي ﷺ: «**اخسأ!**

فلن تعدو قدرك»[١]؛ يعني: إنما أنت كاهن، وقال ابن صياد للنبي: «يأتيني صادق وكاذب»[٢]، وهذا شأن الكهنة فإن «الشياطين تخبرهم بالخبر الصحيح وتزيد معه مائة كذبة»[٣]، أما أمثال الكاهنين بل الرَّمَّالين المتقدم ذكرهما؛ فإنهما كانا محتالين على أكل أموال المغفلين بالباطل وما أكثر أمثالهما في هذا الزمان في البلاد الإسلامية التي نكبت بأنواع الدجاجلة لما أعرض أهلها عن كتاب الله وسنة رسوله».

وقال أيضًا: «الاستقسام بالأزلام موجود عند الشعوب الجاهلة بما جاء به الأنبياء والمرسلون من توحيد الله تعالى واعتقاد أنه لا يعلم الغيب غيره والمجرمون المحتالون يستغلون جهل الشعوب فيستقسمون لهم بالأزلام بطرق مختلفة؛ منها ما ذكر في تفسير هذه الآية، ومنها في هذا الزمان شيء يسمى: «قُرعة الأنبياء»؛ وهو جدول كل بيت من بيوته فيه اسم نبي، فيجيء الجاهل أو الجاهلة إلى الكاهن فيضع له الجدول، ويقول: غمض عينيك وضع أصبعك فيضع أصبعه، فإن أصابت سهم آدم أو نوح أو إبراهيم أو موسى يقرأ عليه ما كتب من القصة، فيخبره بأنه سيجري عليه من المصائب أو النعم تقريبا مثل ما جرى على ذلك النبي، ويزيد في ذلك ويزخرف القول، ويجعل النتيجة حسنة والعافية حميدة، فيأخذ منه شيئًا من الدراهم على هذا التكهن، وبعضهم يستعمل خط الرمل، وبعض الكهان يبيتون»[٤].

---

١)) رواه مسلم (٢٩٢٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

٢)) رواه البخاري (١٣٥٤)، ومسلم (٢٩٣٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

٣)) هذا القدر جزء من حديث رواه البخاري (٥٧٦٢)، ومسلم (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

٤)) ينظر: «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» للشيخ تقي الدين الهلالي (١١١/٣)، و«رسائل الهلالي الشخصية» (٨٧٥-٨٧٨)، ورسالة ابن رشد الحفيد: «الرد على من ذهب إلى تصحيح علم الغيب من جهة الخط».

٢٦- باب ما جاء في الكهان ونحوهم

١- روى مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: **«من أتى عرافًا فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»**(١).

٢- وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: **«من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم»** رواه أبو داود(٢).

٣- وللأربعة والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما، عن: [...](٣) **«من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم»**(٤).

٤- ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفًا(٥).

٥- وعن عمران بن حصين مرفوعًا: **«ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم»** رواه البزار بإسناد جيد(٦).

٦- ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: **«ومن أتى»** إلى آخره(٧).

٧- قال البغوي: «العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك»(٨). وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

٨- وقال أبو العباس ابن تيمية: «العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣٠) دون لفظة: «**فصدقه**»، وهي عند أحمد (٢٣٢٢٢).

(٢) رواه أبو داود (٣٩٠٤)، والترمذي (١٣٥)، وابن ماجه (٦٣٩)، وهو صحيح بشواهده.

(٣) قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في «فتح المجيد» (صـ ٢٥٦): «هكذا بيض المصنف لاسم الراوي, وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعا».

(٤) هذا اللفظ: «**من أتى عرافًا أو كاهنًا**» ليس عند الأربعة، إنما رووه دون النسائي بلفظ: «من أتى كاهنا»؛ كما تقدم تخريجه قريبًا، واللفظ المذكور رواه: أحمد في «مسنده» ٩٥٣٦)، والحاكم (١٥)، والبيهقي (١٦٤٩٦).

(٥) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٢/٥ برقم ٢٣٥٢٨)، وأبو يعلى (٥٤٠٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧٦/١٠ برقم ١٠٠٠٥).

(٦) رواه البزار (٣٥٧٨)، وهو صحيح بشواهده.

(٧) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٢٦٢).

(٨) ينظر: «شرح السنة» للبغوي (١٨٢/١٢).

ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق»(١).

٩- وقال ابن عباس - في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم-: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»(٢).

فيه مسائل:

الأولى: أنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنه كفر.

الثالثة: ذكر من تُكهن له.

الرابعة: ذكر من تُطير له.

الخامسة: ذكر من سُحر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: ما جاء في الكهان ونحوهم:

أي: من كل من يدعي علم الغيب بأي طريق من الطرق، وذلك أن الله تعالى هو المنفرد بعلم الغيب، فمن ادعى مشاركة الله في شيء من ذلك بكهانة أو عرافة أو غيرهما، أو صدق من ادعى ذلك، فقد جعل لله شريكًا فيما هو من خصائصه، وقد كذب الله ورسوله.

وكثير من الكهانة المتعلقة بالشياطين لا تخلو من الشرك، والتقرب إلى الوسائط التي تستعين بها على دعوى العلوم الغيبية، فهو شرك من جهة دعوى مشاركة الله في علمه الذي اختص به، ومن جهة التقرب إلى غير الله.

---

(١) ينظر: «مختصر الفتاوى المصرية» لشيخ الإسلام (صـ ١٥٢) بلفظ قريب.

(٢) رواه عبد الرزاق؛ كما في «الجامع» لمعمر بن راشد (٢٦/١١ برقم ١٩٨٠٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٢٤٠/٥ برقم ٢٥٦٤٨)، والبيهقي (١٦٥١٤).

ورواه مرفوعًا بسند ضعيف الطبراني في «المعجم الكبير» (٤١/١١ برقم ١٠٩٨٠).

وفيه: إبعاد الشارع للخلق عن الخرافات المفسدة للأديان والعقول.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى أحاديث الباب إجمالًا:

الحديث الأول: يبين النبي ﷺ الوعيد المترتب على الذهاب إلى الكهان ونحوهم لسؤالهم عن المغيبات التي لا يعلمُهَا إِلَّا الله، أنَّ جزاءَ مَنْ فعل ذلِكَ حرمانُهُ مِنْ ثواب صلاتِهِ لمدة أربعين يوماً؛ لتلبسه بالمعصية.

وفي هذا وعيد شديد ونهي أكيد عَنْ هذا الفعل، مما يدلُّ على أنَّه مِنْ أعظم المحرمات، وإذا كان هذا جزاء من أتى الكاهِنَ فكيف بجزاء الكاهِن نفسِهِ! نَعوذُ باللهِ مِن ذلك ونسألُهُ العافية(١).

الأحاديث الثاني، والثالث، والرابع: الوعيد الشديد على إتيان الكهان والعرافين لسؤالِهم عَنِ المغيباتِ وتصديقهم في ذلِكَ؛ لأنَّ علم الغيب قدِ اختصَّ الله تعالى به، فمنْ أتاهُمُ وصدَّقَهُم فقد كفر بالوحي المنزل على محمد ﷺ(٢).

الأحاديث الخامس، والسادس، والسابع: يقول ﷺ: لا يكون من أتباعنا المتبعين لشرعنا من فعل الطيرة، أو الكهانة، أو السحر، أو فُعِلَتْ لَهُ هذه الأشياء؛ لأنَّ فيها ادعاء العلم الغيب الذي اختصَّ اللهُ بِهِ، وفيها إفساد للعقائد والعقول، ومن يفعل شيئاً من هذه الأمور فقد كفر بالوحي الإلهي الذي جاء لإبطال هذه الجاهليات ووقاية العقول منها.

ويلحق بذلِكَ ما يفعلُهُ بعضُ الناسِ مِنْ قراءَةِ ما يُسمَّى بالكفّ، أو ربط سعادَةِ الإنسانِ وشقائِهِ وحظّه بالبروج ونحو ذلِكَ، وقد بَيَّنَ كل مِنَ الإمامَيْنِ البغوي وابن تيمية معنى العرَّافِ والكاهِنِ والمنجم والرَّمَّال بما حاصِلُه: أنَّ كُلَّ من يدَّعي علم شيءٍ مِنَ المغيبات فهو إما داخل في اسم الكاهِنِ أو مشارك له في المعنى فيلحق به، والكاهن هو الذي يخبرُ عمَّا يحصل في المستقبل ويأخذُ عَنْ مسترق السمع مِنَ الشياطين كما سبق في أول كتاب التوحيد(٣).

الحديث التاسع: يقول ابن عباس: لا أعلمُ، أو لا أظنُّ أنَّ من يكتب حروف

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٢١٢).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٢١٤).

(٣) ينظر: المصدر السابق (صـ ٢١٦).

أبَا جاد وينظر في النجوم ويبني على ذلك الحكم على المستقبل، ما أَرَى لِمَنْ فَعَلَ ذلك نصيباً عند الله؛ لأنَّ ذلك يدخلُ في حكم العرَّافِين المدَّعِين لعلم الغيبِ(١).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو بيان حال الكهان، وكل علم للغيب، بأي طريقة من الطرق، سواء كان عن طريق النجوم، أو الحروف، أو الضرب بالرمل... إلخ.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن الكهانة مخالفة للتوحيد، وأن الكهانة ادعاء للغيب.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض المصنف بيان أن الكهانة منافية للتوحيد، وأن الكهانة ادعاء للغيب؛ ولهذا كانت نوعًا من أنواع الشرك المنافي للتوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن فرغ المصنف من الكلام عن السحر وأنواعه، انتقل إلى الكلام عن شيء آخر مما يوقع في الشرك، وينافي التوحيد، وهو الكهانة ونحوها ممن يدعي علم الغيب، وبيان خطورتها وأنها لا تخلو من الشرك.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

الحديث الأول: «من أتى عرافًا»: أراد به المصنف الاستدلال على أن سؤال العرافين لا يجوز، وأنه محرم؛ وأن من أتاهم فقد عرض نفسه للعقوبة.

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٢١٨).

وفي لفظ للحديث: أنه صلى الله عليه وسلم سُئل عن الكهان؛ فقال: «**ليسوا بشيء**»[(١)]. احتقارًا لهم، وإعراضًا عنهم، وإماتة لشأنهم[(٢)].

الحديث الثاني والثالث: «من أتى كاهنًا»: أوردهما المصنف؛ لأن الحديثين يدلان على أن من اعتقد في الكهان والعرافين، وأنهم يعلمون الغيب، وصدقهم في ذلك فقد كفر؛ لأنه لم يؤمن بقوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ [النمل: ٦٥]؛ فيجب الحذر منهم[(٣)].

الحديث الرابع: «ليس منا من تطير»: ذكره المصنف؛ لأن الحديث فيه وعيد وترهيب لمن فعل هذه الأمور.

أثر ابن عباس: فيه كراهته لكتابة أحرف (أبا جاد)، والنظر في النجوم؛ لأن أحرف (أبا جاد) تشبه الطلاسم التي تكون عند الكهان ونحوهم.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: المراد بالكاهن والعراف:

الكاهن: هو الذي يأخذ عن مسترق السمع، ويخبر عن المغيبات في المستقبل.

العراف: هو الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة، ونحو ذلك.

والكاهن والعراف كلاهما يجتمعان في كونهما يدعيان علم الغيب، ومعرفة المستقبل المغيب.

الفقرة الثانية: حُكْم من يدعي علم الغيب:

كل من ادعى علم الغيب فهو كاذب في دعواه، ويجب على المسلم أن يكذبه بأي طريقة من الطرق التي تفحمه وتبين كذبه، سواء كان هذا المدعي للغيب من العرافين، أو من الكهنة، أو من السحرة، أو من غيرهم.

---

(١) رواه البخاري، (٦٢١٣)، ومسلم، (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١٤٤).
(٣) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٤٥).

ولا ريب أن من ادعى علم الغيب فهو كافر بقوله تعالى: ﴿**قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ [النمل: ٦٥].

ويجب على ولي الأمر المسلم تعزير الكهان والعرافين ومُدَّعي علم الغيب؟

قال الإمام ابن باز رحمه الله: «وحكمهم أنه يجب القضاء عليهم، وتعزيرهم، وتكذيبهم، وعدم سؤالهم».

قال: «و من ادعى علم الغيب فيستتاب وإلا قتل، وإذا لم يَدَّعِ فإنه يعزر حتى لا يعود إليه»[١].

الفقرة الثالثة: حكم الكهانة والعرافة:

الكهانة والعرافة من الشرك، وقد دخلت في الشرك من جهتين:

الأولى: من جهة دعوى مشاركة الله في علم الغيب الذي اختص به، قال الله تعالى: ﴿**قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ [النمل: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿**وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ**﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**﴾ [لقمان: ٣٤].

الثانية: من جهة التقرب إلى غير الله كاستخدام الشياطين والاستعانة بهم، والتقرب إلى غير الله تعالى بنوع من أنواع العبادة شرك، وهؤلاء الدجالون من الكهنة والعرافين يتقربون إلى الشياطين بالذبح والنذر لهم، وإهانة المصحف، ونحو ذلك.

الفقرة الرابعة: عاقبة إتيان الكهان والعرافين:

يجب على كل مسلم أن يحذر من الذهاب إلى الكهان والعرافين وغيرهم ممن يدعون علم الغيب ، وأن يُحذِّر غيره من الذهاب إليهم.

ومن فعل ذلك وأتاهم وصدقهم فيما يقولون ويزعمون؛ فقد كفر بما أُنزِل على محمد صلى اللَّه عليه وسلم؛ لأنه صَدَّق أن هناك من يعلم الغيب غير الله تعالى.

ومن أتاهم ولم يصدقهم لم تقبل له صلاة أربعين يومًا، عقوبة له على

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٤٤-١٤٦).

مجيئه إلى مواطن الكفر والشرك.

قال أبو العباس القرطبي رحمه الله: «ويجب على من ولي الحسبة أن يقيمهم من الأسواق، وينكر عليهم أشد النكير، ولا يدع أحدًا يأتيهم لذلك، وإن ظهر صدق بعضهم في بعض الأمور، فليس ذلك بالذي يخرجهم عن الكهانة، فإن تلك الكلمة إما خطفة جني، أو موافقة قدر ليغتر به بعض الجهال، ولقد انخدع كثير من المنتسبين للفقه والدين فجاءوا إلى هؤلاء الكهان والعرافين فبهرجوا عليهم بالمحال، واستخرجوا منهم الأموال؛ فحصلوا من أقوالهم على السراب... ومن أديانهم على الفساد والضلال»(١).

الفقرة الخامسة: المراد بالمنجم والرَّمَّال وحكمهما:

المنجم: هو الذي يستدل بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية.

والرَّمَّال: هو الذي يدعي معرفة المغيبات بطريق الضرب بالحصى والخط في الرمل.

والتنجيم والضرب بالرمل والخط في الأرض حكمه أنه شرك؛ لأن فيه ادعاء لعلم الغيب الذي هو من خصائص الله تبارك وتعالى.

الفقرة السادسة: حكم تعلم (أبا جاد):

المقصود بـ (أبا جاد) معرفة حساب الجُمَّل؛ فيقطعون حروف «أبجد هوز حطي كلمن...» إلخ. فيجعلون الألف عن واحد، والباء عن اثنين، والجيم عن ثلاثة، والدال عن أربعة إلى نهاية الحرف العاشر، ثم يبدءون بالكاف من «كلمن» فيجعلونها عن عشرين واللام عن ثلاثين، وهكذا إلى أن تتم حروف هذه الكلمات.

وتعلم (أبا جاد) على نوعين:

١ - نوع محرم: وذلك إذا كان مقصود من يتعلمها ادعاء علم الغيب بها، أو جعلها رموزًا للأمور المحرمة، ونحو ذلك.

٢- نوع جائز: إذا كان يتعلمها للهجاء وحساب الجمل، ووضعها في

---

(١) ينظر: «المفهم» لأبي العباس القرطبي (٥/٦٣٣).

الاختصارات المفيدة، والتواريخ الجامعة، ونحو ذلك [١].

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

قال محمد تقي الدين الهلالي : «لما زرت بلاد شرقي الحجاز وأوائل نجد؛ وجدت عندهم كاهنات، إذا أراد شخص أن يتزوج أو يسافر أو يتجر في شيء؛ يأتي إلى الكاهنة ويقدم لها الحلوان، ولا يكون أقل من بعير فتبيِّت له وفي الصبح تخبره وتأمره بالإقدام أو الإحجام، وهؤلاء القوم من أهل البادية لم تبلغهم دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فدَعَوتُهم إلى توحيد الله وسنة رسول الله وكان معي أحد أمراء تلك النواحي: ماجد بن موكد أمير النخيل، وقد جاء الإسلام بالاستخارة ...، وقد قال النبي ﷺ : «**ليس منا من تكهن أو تُكهّن له، أم : تطيَّر أو تُطُيِّر له**» [٢] ، ...» [٣].

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ١١٧). وحروف أبي جاد صيغتها: (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ) وحساب الجمل هو أن يجعل لكل حرف رقما، فالألف: يقابلها رقم الواحد، والباء: اثنان، والجيم: ثلاثة، ثم كذلك إلى الياء، وهي عشرة، ثم الكاف: عشرون، واللام: ثلاثون، والميم: أربعون، ثم كذلك إلى القاف، وهي مئة، ثم الراء: مئتان، ثم الشين: ثلاث مئة، ثم التاء :أربع مئة، ثم كذلك إلى الغين المعجمةً، وهي ألف. ، وتعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به. انظر : المعجم الوسيط (١/ ١).

٢)) تقدم تخريجه في أول الباب.

٣)) ينظر: «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» للشيخ تقي الدين الهلالي (٣/١١١).

٢٧- باب ما جاء في النشرة

١- عن جابر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة، فقال: «**هي من عمل الشيطان**»(١). رواه أحمد بسند جيد، وأبو داود وقال: سئل أحمد عنها، فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

٢- وفي البخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أتحل عنه أو ينشر؟ قال: «لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه»(٢).

٣- وروي عن الحسن أنه قال: «لا يحل السحر إلا ساحر»(٣).

٤- قال ابن القيم: «النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان: **أحدهما:** حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور. **والثاني:** النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة فهذا جائز»(٤).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه، مما يزيل الإشكال.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٤١٣٥)، وأبو داود (٣٨٦٨)، وإسناده حسن.

(٢) علقه البخاري في (كتاب الطب/ باب هل يَستخرج السحر؟/١٣٧/٧)، قال الحافظ في «تغليق التغليق» (٤٩/٥): «وصله الطبري في «تهذيب الآثار» ... وابن عبد البر في «التمهيد»، وإسناده صحيح». اهـ.

(٣) ذكر هذا الأثر ابن الجوزي في جامع المسانيد (٨٢/٢). وقال الحافظ في (الفتح "١٠/ ٢٣٣): "أخرجه الطبري في " التهذيب " من طريق يزيد بن زريع عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يرى بأسا إذا كان بالرجل سحر أن يمشي إلى من يطلق عنه , فقال: هو صلاح" , قال الحافظ: "قال قتادة: وكان الحسن يكره ذلك , يقول: لا يعلم ذلك إلا ساحر قال: فقال سعيد بن المسيب: إنما نهى الله عما يضر ولم ينه عما ينفع".

(٤) ينظر: «إعلام الموقعين» لابن القيم (٥٥٨/٦).

باب النشرة:

وهو حل السحر عن المسحور، ذكر فيه المصنف كلام ابن القيم في التفصيل بين الجائز منه والممنوع، وفيه كفاية.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى أحاديث الباب إجمالًا:

الحديث الأول: فيه بيان أن حل السحر بالسحر من عمل الشيطان؛ لأن السحر لا يخلو من شرك.

أثر ابن المسيب: في بيان أن حل السحر بالرقى والتعوذات الشرعية لا يدخل في النهي، بل هو من الأمور النافعة المطلوبة.

أثر الحسن: محمول على حل السحر بسحر مثله.

كلام ابن القيم: في التفصيل بين النشرة الممنوعة والنشرة الجائزة.

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

ذكر ما جاء في النشرة من النصوص الشرعية التي تبين حقيقتها، وأنواعها، وحكمها.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان حكم النشرة، وهو حل السحر عن المسحور، فإن كان بالجائز شرعًا فهو جائز كسائر الأدوية، وإن كان بالمحرم شرعًا فهو محرم كسائر المحرمات، وأن من هذه المحرمات حل السحر بسحر مثله.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان حكم النشرة، وأنه لا خلاف بين السلف في النهي عنها إن كانت بشرك كالسحر ونحوه.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما تكلم المصنف عن السحر والكهانة، وغير ذلك مما له علاقة بالإفساد في الأرض، وادعاء علم الغيب عقد هذا الباب ليبين أن النشرة عمل من أعمال الجاهلية، وأن بعض أنواع النشرة من السحر، وهو لا يحصل غالبًا إلا بالشرك المنافي للتوحيد، فإذا كانت النشرة بهذا النوع فهو منافٍ للتوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

الحديث الأول: «هي من عمل الشيطان»: أراد المؤلف الاستدلال به على أن النشرة التي كانت معروفة في الجاهلية أنها من أعمال الشياطين المحرمة.

أثر ابن المسيب: «رجل به طب»: أورده المصنف لبيان أن الأثر يدل على جواز النشرة الخالية من السحر، إذا قصد بالوسائل الشرعية.

قال الإمام عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ: «وهذا الكلام محمول على الحل الذي لا بأس به، وهو الحل بالرقية، والمعوذات والأشياء المباحة؛ لأن هذا من الإصلاح، والإصلاح مأمور به، والمنكر منهى عنه»[(١)].

أثر الحسن البصري: «لا يحل السحر إلا ساحر»: ذكره المصنف للدلالة على أنه لا يحل السحر بالطرق الشيطانية إلا السحرة.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الوسائل لها أحكام المقاصد:

الوسائل لها أحكام المقاصد، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتم المسنون إلا به فهو مسنون، وطرق الحرام والمكروهات تابعة لها ووسيلة المباح مباح، ويتفرع عليها الأعمال ومكملاتها تابعة لها، وهذه القاعدة أصل

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١٤٩).

عظيم من أصول الشرع، وهي عامة في جميع الأعمال فتشمل جميع أحكام الشرع التكليفية.

والمراد بالوسائل: الطرق التى يتوسل بها ويتوصل بها إلى أمور أخرى، هي مقصودة في نفسها، والوسائل ليست مقصودة إنما هي طرق إلى هذه المقاصد، فعندنا الوسيلة حسب القصد، فإن كان القصد واجبًا كانت الوسيلة واجبة، وهكذا في المحرم والمستحب والمباح والمكروه، ... وهكذا في المكروهات والمحرمات، فالوسائل لها أحكام المقاصد، والشرع جاء بسد الوسائل وبفتحها، فالوسائل المحرمة يجب سدها، والمكروهة يستحب سدها، والواجبة يجب فتحها، والمستحبة يستحب فتحها، والمباحة يباح الأخذ بها أو تركها[١].

الفقرة الثانية: معنى النشرة:

النشرة لغة: الكشف والإزالة، والبسط والحياة، وغير ذلك[٢].

وشرعًا: حل السحر عن المسحور بنوع من العلاج والرقية، وسميت نشرة؛ لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء؛ أي: يكشف ويزال[٣].

الفقرة الثالثة: أنواع النشرة وحكم كل نوع:

النشرة نوعان:

الأول: حل السحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن كما قال ابن القيم، وهذا النوع محرم، وهو شرك؛ لأنه لا يتأتى إلا بسحر وشعوذة وتقرب إلى الجن والشياطين.

الثاني: النشرة بالرقية الشرعية، والتعويذات السنية، والدعوات الطيبة، والأدوية المباحة؛ فمثل هذا جائز ، وعليه يحمل قول سعيد بن المسيب، وكل ما هو جائز شرعًا، ومعلوم أن ما كان سببًا عقلًا وتجربة فإنه يجوز الاستشفاء به.

---

(١) ينظر: «شرح القواعد السعدية» (صـ ٤٠).

(٢) ينظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٢٣٣/١١)، والصحاح للجوهري (٨٢٧/٢).

(٣) ينظر: معالم السنن للخطابي (٢٢٠/٤)، والسنن الكبرى للبيهقي (٩/ ٣٥١)، وشرح السنة للبغوي (١٥٩/١٢)، إعلام الموقعين (٣٠١/٤)،

الفقرة الرابعة: النشرة الشرعية:

النشرة الشرعية: هي حل السحر بالطرق الشرعية، وهو من المباحات المشروعة فهذا يحله أهل العلم والبصائر، وأهل الخبرة والتجارب، ومن القراءة عليه بالفاتحة، ويكرر ، والكافرون، والمعوذتين، وينفث مع القراءة، ويقرأ عليه وعلى زوجته، وهذه رقية استعملها العلماء، ونفع الله بها.

ومن ذلك ما ذكره بعض المتقدمين أنه تؤخذ ورقات من شجر السدر الأخضر فتدق، ويجعل في ماء، ثم يقرأ عليه هذه الآيات ثلاث مرات -ما تيسر- فيشرب منه، ثم يغتسل بالباقي، فيزول عنه ما أصابه، فهذه نشرة شرعية.

ومن المباح: الأدوية المجربة التي لا محظور فيها، ولا تكون نجسة، ولا استعانة فيها بالشياطين، ولا فيها ما حرم الله[١].

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

«لا يجوز تصديق السحرة، ولا تصديق الكُهَّان، ولا الذهاب إليهم، لكن في وقتنا الحاضر السحرة والكهان خرجوا على الناس باسم أطباء ومعالجين، وفتحوا محلات، يعالجون فيها المرضى بالسحر والكهانة، لكن لا يقولون: هذا سحر، ولا يقولون: هذا كهانة، بل يُظهرون أنهم يعالجون النّاس بأمور مباحة، ويذكرون الله عند الناس، وقد يقرءون شيئاً من القرآن من أجل التلبيس، ولكن في الخفاء يقول للمريض: اذبح شاة على صفة كذا وكذا، ولا تأكل منها، خذ من دمها واعمل كذا وكذا، أو اذبح ديكاً أو دجاجة، يصفه بأوصاف، ويقول له: ولا تذكر اسم الله عليه، أو يسأله عن اسم أمه واسم أبيه، أو يأخذ ثوبه وطاقيته من أجل أن يسأل عملاءه من الشياطين؛ لأن الشياطين يخبر بعضهم بعضاً، ثمّ يقول الساحر أو الكاهن-: فلان هو الذي سحرك، وهو كله تدجيل، والواجب على المسلمين أن يتنبهوا لهذا، وأن يحذروا هؤلاء المشعوذين والدجالين الذين يفسدون عقائد الناس، ويأكلون أموالهم بالباطل»[٢].

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٥٠).
(٢) ينظر: «إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ١٤٩).

٢٨- باب ما جاء في التطير

١- وقول الله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾(١).

٢- وقوله: ﴿**قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ**﴾(٢).

٣- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر**» أخرجاه(٣). زاد مسلم: «**ولا نوء، ولا غول**»(٤).

٤- ولهما عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا عدوى، ولا طيرة، ويعجبني الفأل**». قالوا: وما الفأل؟ قال: «**الكلمة الطيبة**»(٥).

٥- ولأبي داود بسند صحيح، عن عقبة بن عامر(٦)، قال: ذُكِرَت الطِّيَرَة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»(٧).

٦- وله من حديث ابن مسعود مرفوعا: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل**»(٨) رواه أبو داود والترمذي وصححه. وجعل آخره من قول ابن مسعود.

٧- ولأحمد من حديث ابن عمرو: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «**أن يقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير**

---

(١) الأعراف: ١٣١.
(٢) يس: ١٩.
(٣) رواه البخاري (٥٧٥٧)، ومسلم (٢٢٢٠).
(٤) لفظ: «**لا نوء**» رواه مسلم (٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظ: «**لا غول**» رواه مسلم (٢٢٢٢) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٥) رواه البخاري (٥٧٥٦)، ومسلم (٢٢٢٤).
(٦) كذا وقع أيضًا عند ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٣)، والصواب: عروة بن عامر، وهو مختلف في صحبته، وجزم المزي بعدم الصحبة.
(٧) رواه أبو داود (٣٩١٩)، وفي إسناده ضعف وإرسال.
(٨) رواه أبو داود (٣٩١٠)، والترمذي (١٦١٤)، وابن ماجه (٣٥٣٨)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح، ... سمعت محمد بن إسماعيل - أي: البخاري - يقول: كان سليمان بن حرب يقول في هذا الحديث، «**وما منا، ولكن الله يذهبه بالتوكل**»: هذا عندي قول عبد الله بن مسعود».

إلا طلبك، ولا إله غيرك»(١).

٨- وله من حديث الفضل بن عباس: «**إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»**(٢).

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿**إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ**﴾(٣) مع قوله ﴿**قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ**﴾(٤).

الثانية: نفي العدوى.

الثالثة: نفي الطيرة.

الرابعة: نفي الهامة.

الخامسة: نفي الصفر.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك، بل مستحب.

السابعة: تفسير الفأل.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل.

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده.

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: الطيرة:

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٧٠٤٥)، وهو حديث حسن.
(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٢٤)، وفي إسناده مَسْلمة الجهني، قال الحافظ في «المطالب العالية» (١٨٦/١١): «مَسْلمة الجهني ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل»، ولم يورد فيه جرحًا ولا تعديلًا، ولم أر من وثقه، وروى عنه غير واحد، فهو مستور، ولمعنى الحديث شواهد كثيرة عن ابن عباس، وعبد الله بن عمرو، ورويفع بن ثابت، وأبي الدرداء رضي الله عنهم».
(٣) الأعراف: ١٣١.
(٤) يس: ١٩.

وهو التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع وغيرها، فنهى الشارع عن التطير وذم المتطيرين، وكان يحب الفأل ويكره الطيرة، والفرق بينهما: أن الفأل الحسن لا يخل بعقيدة الإنسان ولا بعقله، وليس فيه تعليق القلب بغير الله، بل فيه من المصلحة: النشاط والسرور وتقوية النفوس على المطالب النافعة، وصفة ذلك أن يعزم العبد على سفر أو زواج أو عقد من العقود، أو على حالة من الأحوال المهمة ثم يرى في تلك الحال ما يسره، أو يسمع كلامًا يسره مثل يا راشد أو سالم أو غانم، فيتفاءل ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه، فهذا كله خير وآثاره خير، وليس فيه من المحاذير شيء.

وأما الطيرة فإنه إذا عزم على فعل شيء من ذلك من الأمور النافعة في الدين أو في الدنيا، فيرى أو يسمع ما يكره أثر في قلبه أحد أمرين، أحدهما أعظم من الآخر:

أحدهما: أن يستجيب لذلك الداعي فيترك ما كان عازمًا على فعله أو بالعكس، فيتطير بذلك وينكص عن الأمر الذي كان عازمًا عليه، فهذا كما ترى قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله، فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه وأخل بتوحيده وتوكله، ثم بعد هذا لا تسأل عما يحدثه له هذا الأمر من ضعف القلب ووهنه وخوفه من المخلوقين، وتعلقه بالأسباب وبأمور ليست أسبابًا، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله، وهذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله، ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثاني: أن لا يستجيب لذلك الداعي، ولكنه يؤثر في قلبه حُزنًا وهمًّا وغمًّا، فهذا وإن كان دون الأول لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه وموهن لتوكله، وربما أصابه مكروه فظن أنه من ذلك الأمر فقوي تطيره، وربما تدرج إلى الأمر الأول.

فهذا التفصيل يبين لك وجه كراهة الشارع للطيرة وذمها، ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل، وينبغي لمن وجد شيئًا من ذلك، وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية أن يجاهد نفسه على دفعها ويستعين الله على ذلك، ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آية هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ [يس:١٩].

قال السعدي: «قال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: لم نر على قدومكم علينا واتصالكم بنا إلا الشر، وهذا من أعجب العجائب، أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة ينعم الله بها على العباد، وأجل كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة، قد قَدِم بحالة شر، زادت على الشر الذي هم عليه، واستشأموا بها، ولكن الخذلان وعدم التوفيق، يصنع بصاحبه أعظم مما يصنع به عدوه.

ثم توعدوهم فقالوا: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي: نقتلنكم رجمًا بالحجارة أشنع القتلات ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فقالت لهم رسلهم: ﴿طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ وهو ما معهم من الشرك والشر، المقتضي لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع المحبوب والنعمة، ﴿أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ﴾ أي: بسبب أنا ذكرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم، قلتم لنا ما قلتم»(١).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو ما جاء في التطير من النصوص الشرعية التي نهت عن التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع، وغيرها.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان ما جاء في التطير من التحذير الشديد، ونفي أن يكون له أي تأثير.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٦٩٣).

بيان أن التطير نوع من أنواع الشرك، وأنه لا يأتي بخير، وليس له أي تأثير

كما يعتقده الجهال المشركون.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن ذكر المصنف - رحمه الله تعالى ما يتعلق بادعاء علم الغيب ذكر شيئًا آخر مما كان أهل الجاهلية يربطون بينه وبين الأمور المغيبة وهو التطير؛ فإنه ينافي التوحيد أو كماله الواجب؛ لما فيه من تعلق القلب بغير الله؛ فنهى عنه الشارع، وذم المتطيرين.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿**أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ**﴾ [الأعراف:١٣١]، **والثانية:** ﴿**قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ**﴾ [يس:١٩]: أراد المؤلف أن الله تعالى أخبر في الآية أن آل فرعون كانوا إذا أصابتهم الحسنة -وهي الخصب والسعة والرخاء- قالوا: لنا هذه، أي: جديرون بها، ونحن أهلها، وإذا أصابتهم السيئة والبلاء والقحط تطيروا بموسى ومن معه؛ فيقولون بسبب موسى وأصحابه؛ فالمقصود أن الآيتين دلتا على أن التطير من أعمال الكفار، وقد ذمهم الله ومقتهم عليه(١).

وأما حديث أبي هريرة وأنس: «لا عدوى...»: استدل بهما المصنف لما فيهما من نفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان عليه أهل الجاهلية، وما كانوا يعتقدونه من الطيرة والعدوى، وأنها تؤثر بنفسها من غير إرادة الله.

الحديث الثالث: ذكرت الطيرة عند رسول الله: أورده المصنف لأنه يدل على أن الطيرة لا تأتي بالحسنات، ولا تدفع المكروهات، بل الأمر بيد الله الواحد الأحد.

الحديث الرابع: «الطيرة شرك»: استدل به على تحريم الطيرة، وأن التطير

من الشرك، والمراد هنا : الشرك الخفي(٢).

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ١٢١-١٢٠).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٢٤).

الحديث الخامس: «من ردته الطيرة»: فيه الدلالة الصريحة على أن جالب الخير ودافع الشر هو الله وحده لا شريك له ، ويتضمن الاعتماد عليه.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى التطير وحكمه:

التطير لغة: مأخوذ من الطير؛ لأن العرب كانوا يتشاءمون ويتفاءلون بها[١].

وأما اصطلاحا: فالتطير: هو التشاؤم بمرئي أو مسموع من الطيور ونحوها، كأن يرى الغراب، فيقول: هذا يوم مشئوم، أو يرى رجلًا قبيحًا، فيقول: هذا يوم شؤم[٢].

حكم التطير: التحريم؛ لأنه من الشرك؛ فإن هذه الأصوات والطيور والمخلوقات لا تملك لنفسها حولًا ولا قوة، ولا تدري شيئًا عن الغيب لنفسها فكيف لغيرها، ولم يجعلها الله تبارك وتعالى علامة على ذلك؛ فجعلها مؤثرة في الأمور شرك، وجعلها علامة على الأمور خرافة.

الفقرة الثانية: ما كان يتطير به أهل الجاهلية:

كانت الجاهلية الأولى قبل الإسلام تعج بكثير من الخرافات والأوهام التي لا تستند إلى برهان كالتشاؤم بالطيور وأصواتها وممرها، كصياح طير البوم بالليل، فإذا وقع على دار أحدهم فهي تنعي الشخص إلى نفسه، أو أحدًا من أهل البيت، وكذا التشاؤم ببعض الأزمنة كشهر صفر، فكانوا لا يتزوجون ولا يُزوجون فيه، فكل هذا أبطله الشارع لما فيه من تعلق للقلب بغير الله، وهذا شرك به عَزَوَجَلَّ، وهي منتشرة في كثير من بلدان المسلمين اليوم، مع أنها مخالفة للشرع الحنيف.

الفقرة الثالثة: معنى الفأل وحكمه، والفرق بينه وبين الطيرة:

(١) ينظر: الصحاح للجوهري (٧٢٨/٢)، ومقاييس اللغة لابن فارس (٤٢١/١).
(٢) ينظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٣١١/٣)، وفتح المجيد (٥٢٥/٢).

الفأل: وهو الكلمة الطيبة؛ أي: الكلام الحسن يسمعه الإنسان فَيَسُره ويقوى رجاؤه وثقته بالله تعالى، ومثل هذا التفاؤل بالاسم الحسن.

ومثاله: أن يكون الإنسان مريضًا فيسمع رجلًا يقول: يا سالم، أو يكون فاقدًا ضالة فيسمع آخر يقول: يا واجد، فيقع في قلبه أنه يبرأ من مرضه، ويجد ضالته.

ومثل هذا جاء في الشرع كما في صلح الحديبية، عن عكرمة: أنه لما جاء سهيل بن عمرو قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لقد سهل لكم من أمركم**» (١). فهذا تفاؤل بالاسم.

وحكمه: أنه محمود؛ لأنه حُسْن ظن بالله تبارك وتعالى، وما التفاؤل به إلا سبب في زيادة حسن الظن بالله تعالى.

والفرق بين الفأل والطيرة: أن الفأل يستعمل على سبيل الاستبشار، ولا يرد عن العمل ولا يقدمه، وهو حسن ظن بالله تعالى، والطيرة سوء ظن يمنع من الفعل مطلقًا، وفيه اعتقاد أن ذلك المتطير به يجلب السوء أو يمنعه، أو هو علامة عليه.

قال الإمام ابن باز رحمة الله: «والفرق بينهما: أن الفأل الحسن لا يدخل بعقيدة الإنسان، ولا بعقله، وليس فيه تعلق القلب بغير الله؛ بل فيه من المصلحة والنشاط والسرور، وتقوية النفوس على المطالب النافعة»(٢).

الفقرة الرابعة: كفارة التطير:

إن الإنسان قد يقع في قلبه التطير، فإذا وقع فعليه أن يقول: «**اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**»، ومعناه : لا يجلب الخير، ولا يدفع الشر غيرك، ولا معبود سواك، ويتضمن الاعتماد على الله وحده، والإعراض عما سواه، وأن الطيرة لا تضر من كرهها، ومضى في طريقه.

الفقرة السادسة: حد الطيرة الشركية:

---

(١) علقه البخاري في (كتاب الشروط/ باب الشروط في الجهاد/٣/١٩٣)، ورواه موصولًا في «الأدب المفرد» (٩١٥) من حديث عبد الله بن السائب رضي الله عنه، وله شواهد أخرى؛ كما في «فتح الباري» (٥/٣٤٢).

(٢) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١٥١).

حد الطيرة الشركية: هي ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراده أو يمنعه من المضي فيه فيرده التشاؤم بالطيور بأصواتها أو ممرها أو غير ذلك؛ لاعتقاده أن ذلك مؤثر في إيقاع الأمر، أو هو علامة على ذلك، وهي مذمومة؛ لأن فيها اعتمادًا على غير الله وسوء ظن بالله.

الفقرة السابعة: المراد بالعدوى المنفية:

العدوى: اعتقاد أن هذا المرض يصيبه مثلما أصاب صاحب المرض، أو هو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره، والمراد بنفي العدوى: نفي اعتقاد أنها تنتقل بنفسها، كما كان يعتقده أهل الجاهلية، أما أن المرض ينتقل إذا شاء الله تعالى ذلك فهذا واقع لا محالة، وإنما كان القرب وسيلة للانتقال، ولو شاء الله تعالى وجود المرض بغير وسيلة القرب لأمكن.

وبهذا يجمع بين الأحاديث التي تفيد انتقال المرض بسبب القرب كحديث: «**فر من المجذوم فرارك من الأسد**»[1]، وحديث: «**لا يورد ممرض على مصح**»[2]، وحديث الطاعون: «**إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه**»[3].

فهذه الأحاديث كلها تدل على أن الله تعالى قد ينقل المرض بسبب القرب والورود.

الفقرة الثامنة: معنى الغول، والمراد بنفيه:

الغول: اسم للغيلان، والأغوال واحده غول، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أنها تتراءى في الفلاة للناس، وتغولهم؛ أي: تضلهم عن الطريق.

والمراد بنفي الغول: نفي أن يكون الجان والشياطين قادرين على ذلك مع ذكر الله تعالى، وليس المراد نفي وجود الغيلان من الجن والشياطين، فإنها توجد

---

(١) علقه بصيغة الجزم البخاري في (كتاب الطب/باب الجذام/٥٧٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد أفاد الحافظ في «فتح الباري» (١٠/١٥٨) أن أبا نعيم، وابن خزيمة قد وصلاه، وأيضًا وصله أحمد في «مسنده» (٩٧٢٢)، والحديث صحيح بشواهده، وفي معناه ما رواه مسلم (٢٢٣١) من حديث الشريد بن سويد رضي الله عنه، قال: كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنا قد بايعناك فارجع**».

(٢) رواه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (٢٢٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

وتتراءى للناس، ولكن المقصود أنها لا تستطيع أن تضل ذاكرًا لله تعالى.

الفقرة التاسعة: أثر الطيرة في النَّفْس:

من تطير وعلق قلبه بذلك المكروه غاية التعلق، وعمل عليه، تصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله؛ فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه وأخل بتوحيده وتوكله، ثم بعد هذا لا تسأل عما سيحدث له هذا الأمر من ضعف في القلب ووهن فيه وخوفه من المخلوقين، وتعلقه بالأسباب، وبأمور ليست بأسباب، وانقطاع قلبه عن الله تعالى، وإصابته بالوساوس والتخيلات.

وهذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله، ومن الخرافات المفسدة للعقل(١).

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

قال الشيخ تقي الدين الهلالي: «لما كنتُ في بني عوف من قبيلة حرب في ناحية الحناكية؛ وهي قرية بين المدينة، والقصيم رأيتُ الإخوان هناك ينكرون على بعض الأعراب الذين لم يتديَّنوا بعد؛ أي: لم يتبعوا دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب (رحمه الله) إلى توحيد الله، وترك أمور الجاهلية، ينكرون عليهم أنهم يحبسون الغنم المصاب بمرض في حظيرة ويُدخِّنون عليها، ولا يتركون أحدًا يدنو منها لا إنسانًا ولا حيوانًا، فكأنهم يعتقدون أن مرضها من الجن، وأنَّ مَن دنا منها يصيبه شر، وكانوا يحبسونها الليل - كلَّه - حتى الصباح، لا أدري ليلة واحدة أو أكثر!».

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١٥٢).

٢٩- باب ما جاء في التنجيم

١- قال البخاري في «صحيحه»: قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به»(١). انتهى. وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق.

٢- وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر**»(٢) رواه أحمد وابن حبان في «صحيحه».

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدَّق بشيء من السحر، ولو عرف أنه باطل.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب ما جاء في التنجيم:

التنجيم نوعان: نوع يسمى علم التأثير: وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الكونية، فهذا باطل ودعوى لمشاركة الله في علم الغيب الذي انفرد به، أو تصديق لمن ادعى ذلك، وهذا ينافي التوحيد لما فيه من هذه الدعوى

---

(١) علقه بصيغة الجزم البخاري في (كتاب بدء الخلق، باب في النجوم/١٠٧/٤)، وقال الحافظ في «فتح الباري» (٢٩٥/٦): «وصله عبد بن حميد من طريق شيبان عنه به، وزاد في آخره: وأن ناسًا جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة، مَن غرس بنجم كذا كان كذا، ومَن سافر بنجم كذا كان كذا، ولعمري ما من النجوم نجم إلا ويولد به الطويل والقصير والأحمر والأبيض والحسن والدميم، وما عِلْم هذه النجوم، وهذه الدابة، وهذا الطائر، شيء من هذا الغيب».

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٩٥٦٩)، وابن حبان (٥٣٤٦)، وإسناده ضعيف، لكنه يتقوى بما له من شواهد.

الباطلة، ولما فيه من تعلق القلب بغير الله، ولما فيه من فساد العقل لأن سلوك الطرق الباطلة وتصديقها من مفسدات العقول والأديان.

النوع الثاني: علم التسيير: وهو الاستدلال بالشمس والقمر والكواكب على القبلة والأوقات والجهات، فهذا النوع لا بأس به، بل كثير منه نافع قد حث عليه الشارع، إذا كان وسيلة إلى معرفة أوقات العبادات، أو إلى الاهتداء به في الجهات، فيجب التفريق بين ما نهى عنه الشارع وحرمه، وبين ما أباحه أو استحبه أو أوجبه، فالأول هو المنافي للتوحيد دون الثاني.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى أحاديث الباب إجمالًا:

أثر قتادة: فيه بيان الحكمة من خلق النجوم، وبيان أن من ادعى أنها وسيلة لعلم الغيب فقد افترى الكذب، وكذب بالقرآن.

حديث أبي موسى: «ثلاثة لا يدخلون الجنة ...»: فيه بيان وعد الله الشديد بمن صدق بالتنجيم، وبيان أن التنجيم شعبة من السحر.

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو ما جاء في النصوص من بيان حقيقة التنجيم وأنواعه، وحكمه.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان حقيقة التنجيم، وتوضيح صوره، وبيان حكم التنجيم، وأنه قد يكون كفرًا وناقضًا للتوحيد، وقد يكون ناقصًا، وقد يكون غير ذلك.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان صور التنجيم، وحكم كل صورة، وأن من عِلْم النجوم ما هو جائز تعلمه، ومنه ما هو محرم تعلمه.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن رد المصنف على من يدعون علم الغيب عن طريق تعلم (أبا جاد)، وقراءة الكف وغير ذلك، عقد هذا الباب ليبين أن علم التنجيم فيه إخبار بالمغيبات التي لا يطلع عليها إلا الله وحده، وأن بعض أنواع التنجيم من الشرك المنافي للتوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

الأثر الأول: «خلق الله هذه النجوم»: أراد أن الأثر يفيد بطلان زعم من استعمل النجوم في غير هذه الثلاث من ادعاء علم الغيب ونحوه.

الأثر الثاني: «وكره قتادة، ولم يرخص ابن عيينة»: أوردهما لبيان الخلاف في مسألة تعلم منازل القمر.

وأما حديث: «ثلاثة لا يدخلون الجنة»: أراد المصنف أن الحديث من نصوص الوعيد التي كره العلماء تأويلها، وقالوا أَمِرُّوها كما جاءت، وهذا الوعيد يرجع إلى مشيئة الله تعالى، ولما كان التنجيم شعبة من السحر، استدل المصنف بهذا الحديث للتحذير منه.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: أنواع التنجيم وحكم كل نوع:

التنجيم نوعان:

الأول: يسمى علم التأثير، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، وأن النجم الفلاني يؤثر في الأرض بوقوع كذا وكذا فيها، وأن أُفول النجم الفلاني يعني موت كذا وكذا، وهذا النوع محرم؛ لأنه من الشرك المنافي للتوحيد لما فيه من ادعاء علم الغيب وتعلق القلب بغير الله تعالى.

النوع الثاني: علم التسيير، وهو الاستدلال بالشمس والقمر والنجوم على

القبلة، والأوقات، والأزمنة، والجهات، وهذا النوع جائز(١).

الفقرة الثانية: الحكمة من خلق النجوم:

خلق الله النجوم لثلاث خصال:

١ - زينة للسماء، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ**﴾ [الملك:٥].

٢ - ورجوما للشياطين، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ**﴾ [الملك:٥] .

٣- وعلامات يُهتدى بها أي: دلالات على الجهات، والأوقات، والأزمنة، يهتدي بها الناس في ذلك، كما قال تعالى: ﴿**وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ [النحل:١٦].

ومن زعم فيها غير ذلك؛ فقد أخطأ طريق الحق، وأضاع نصيبه من كل خير، وتكلف ما لا علم له به.

الفقرة الثالثة: حكم تعلم منازل القمر:

لقد اختلف العلماء في حكم تعلم منازل القمر، فرخص فيه الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه ولم يرخص فيه الإمام قتادة بن دعامة السدوسي، وسفيان بن عيينة، وقد ذكر هذه الأقوال العلامة حرب بن إسماعيل الكرماني من أجلة أصحاب الإمام أحمد.

ولعل هذا الخلاف راجع إلى ما تقدم في أقسام التنجيم؛ فمن رخص فيه قصد علم التسيير الجائز، ومن لم يرخّص فيه قصد علم التأثير المحرم(٢).

الفقرة الرابعة: حكم من يصدق الساحر:

إذا صدق الشخص أن السحر حقٌّ، وأنه يغير الأشياء عن حقيقتها إلى حقيقة أخرى غير التي خلقها الله عليها، أو أنه ينفع ويضر من دون الله، وأن

---

(١) ينظر: معالم السنن للخطابي (٢١٣/٤)، وشرح السنة للبغوي، (١٨٣/١٢)، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (٧٦٢/٢)، والقول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ٦-٧).
(٢) ينظر: تيسير العزيز الحميد (ص٣٨٤)، والتمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص٣٤٧).

صاحبه على حق، أو أنه يعلم الغيب؛ فهذا لا شك أنه يكون كافرًا.

أما إذا صدق بأنه موجود، وأن له تأثيرًا بتقدير الله، ويعلم أنه حرام، ويبتعد عن السحر وأهله، فهذا مطلوب شرعًا، وهو مقتضى النصوص الشرعية[١].

الفقرة الخامسة: الصفات المذمومة الواردة في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه:

١ - مدمن الخمر: وهو المداوم على شربها ومات على شرب الخمر، ولم يتب منها.

٢- قاطع الرحم وهو الذي لا يصل أقاربه، أو يسيء إليهم بالأقوال والأفعال.

٣- المصدق بالسحر وهو الذي يعتقد أن للسحر مفعولًا وتأثيرًا من دون الله، ومنه التنجيم؛ لحديث: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر**»[٢]. وهذا هو مناسبة الحديث للباب.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

ينظر ما تقدم تعليقه على المقصد الرابع في الباب رقم (٢٥).

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١٥٥).

(٢) رواه أبو داود (٣٩٠٥)، وابن ماجه (٣٧٢٦) بلفظ: «**من اقتبس علمًا من النجوم، اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد**»، وصححه شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٩٣/٣٥).

٣٠- باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

١- وقول الله تعالى: ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾(١).

٢- وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**». وقال: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب**» رواه مسلم(٢).

٣- ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه، قال: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب**»(٣).

٤- ولهما من حديث ابن عباس معناه. وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله هذه الآية: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ [الواقعة:٧٥-٨٢](٤).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج عن الملة.

---

(١) الواقعة: ٨٢.
(٢) رواه مسلم (٩٣٤).
(٣) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).
(٤) رواه مسلم (٧٣)، والحديث لم يروه البخاري، وإنما هو من أفراد مسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الخامسة: قوله: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**» بسبب نزول النعمة.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع.

الثامنة: التفطن لقوله: «**لقد صدق نوء كذا وكذا**».

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها لقوله: «**أتدرون ماذا قال ربكم؟**».

العاشرة: وعيد النائحة.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: الاستسقاء بالنجوم:

لما كان من التوحيد الاعتراف لله بتفرده بالنعم ودفع النقم، وإضافتها إليه قولًا واعترافًا، واستعانة بها على طاعته كان قول القائل: مطرنا بنوء كذا وكذا، ينافي هذا المقصود أشد المنافاة لإضافة المطر إلى النوء.

والواجب إضافة المطر وغيره من النعم إلى الله، فإنه الذي تفضل بها على عباده. ثم الأنواء ليست من الأسباب لنزول المطر بوجه من الوجوه، وإنما السبب عناية المولى ورحمته وحاجة العباد وسؤالهم لربهم بلسان الحال ولسان المقال، فينزل عليهم الغيث بحكمته ورحمته في الوقت المناسب لحاجتهم وضرورتهم، فلا يتم توحيد العبد حتى يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة عليه وعلى جميع الخلق، ويضيفها إليه ويستعين بها على عبادته وذكره وشكره. وهذا الموضع من محققات التوحيد، وبه يعرف كامل الإيمان وناقصه.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢].

قال السعدي: «أي: تجعلون مقابلة منّة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها ومولّيها، فهلا شكرتم الله تعالى على إحسانه؛ إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من

فضله، فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم»[١].

٢ـ وقول الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٧٥-٨٢].

قال السعدي: «أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها، أي: مساقطها في مغاربها، وما يحدث الله في تلك الأوقات، من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده.

ثم عظم هذا المقسم به، فقال: ﴿**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾ وإنما كان القسم عظيمًا، لأن في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغاربها، آيات وعبرًا لا يمكن حصرها.

وأما المقسم عليه، فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه كريم أي: كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه.

﴿**فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ**﴾ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ، أي: إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه.

﴿**لا يَمَسُّهُ إِلا الْمُطَهَّرُونَ**﴾ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات، والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين، لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلت الآية بتنبيهها على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث[٢]، ولهذا قيل: إن الآية خبر بمعنى النهي، أي: لا يمس القرآن إلا طاهر.

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٨٣٦).

(٢) رواه مالك في «الموطأ» (١/١٩٩/ عبد الباقي)، وهذا الجزء من الحديث ضمن كتاب عمرو بن حزم، وقد قال عنه ابن عبد البر في «التمهيد» (١٧/ ٣٩٦): «كتاب مشهور عند أهل العلم معروف يستغني بشهرته عن الإسناد». والحديث صحيح له شواهد تنظر في «الإرواء» (١٢٢).

﴿تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمه الدينية والدنيوية، ومن أجل تربية ربى بها عباده، إنزاله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكورًا.

ومما يجب عليهم أن يقوموا به ويعلنوه ويدعوا إليه ويصدعوا به، ولهذا قال: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ أي: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون أي: تختفون وتدلسون خوفًا من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ هذا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه.

وأما القرآن الكريم، فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به ولا يختفى، بل يصدع به ويعلن.

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تجعلون مقابلة منّة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها ومولِيها، فهلا شكرتم الله تعالى على إحسانه؛ إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم»[(١)].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان ما جاء من النصوص الشرعية في حقيقة الاستسقاء بالأنواء، وحكمها.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان حكم من ظن أن المطر نزل بسبب النجم الفلاني، أو المنزل الفلاني، وأن لهذه النجوم تأثيرًا في ذلك، فهذا نوع من أنواع الشرك؛ لأنه طلب للسقيا من غير الله تعالى.

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٨٣٥-٨٣٦).

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن المتصرف في إنزال المطر هو الله تعالى، وأنه تبارك وتعالى هو الذي يسقي عباده، وأن هذه النجوم لا تؤثر ولا تكون سببًا في نزول المطر، وإن كانت علامة عليها أحيانًا، كالسحاب المسود علامة على نزول المطر، ولكن قد ينزل المطر وقد لا ينزل ؛ لأن الأمر بيد قيوم السموات والأرض.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن تكلم المصنف عن التنجيم وعلاقته بادعاء علم الغيب عقد هذا الباب ليبين ما عليه أهل الجاهلية من طلب المطر من النجوم، وهو معنى الاستسقاء بها، ولا شك أن ذلك نوع تعلق واستغاثة بها.

ونسبة مجيء المطر إلى الأنواء، هو من علم التنجيم المحرم الذي هو علم التأثير ؛ لهذا ناسب أن يذكره المصنف بعد باب التنجيم.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

قوله تعالى: ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾: استشهد بها؛ لأنها تدل على أن المشركين كانوا ينسبون الرزق إلى غير الله تعالى؛ وكذلك من استسقى بالأنواء فإنه قد نسب الرزق إلى غير الله تعالى.

الحديث الأول : «أربع من أمتي من أمر الجاهلية»: استدل به لما فيه من الخبر على وقوع الاستسقاء بالنجوم، وأن ذلك من أمر الجاهلية.

الحديث الثاني: «أصبح من عبادي»: أورده لما فيه من الدلالة على أن الاستسقاء بالكواكب كفر، وأن المؤمن هو من يعتقد أن الأمر بيد الله تعالى.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى الاستسقاء بالأنواء:

الاستسقاء: هو استفعال من طلب السقيا، أي: إنزال الغيث على البلاد والعباد.

والأنواء: جمع نوء، وهو موضع سقوط الكوكب، وقيل: إنه الكوكب وهو

النجم، وإنما سمي نوءًا؛ لأنه إذا سقط الغارب منها في المغرب ناء طالع المشرق؛ بمعنى: نهض وطلع[١].

والمراد بالاستسقاء بالأنواء هنا نسبة السقيا ومجيء المطر بسبب الأنواء، وكانت العرب في الجاهلية تزعم أنه مع طلوع نجم وغروب آخر يكون مطر ينسبونه إليها، وهي منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة، ينزل القمر كل ليلة في منزلة منها[٢].

فمن العرب من كان يعتقد أن النجوم والأنواء سبب في نزول المطر، فيجعلونها أسبابا، ومنهم- وهم طائفة قليلة- من يجعل النوء والنجم هو الذي يأتي بالمطر كما سبق في حال الطائفة الأولى من المنجمين الذي يجعلون المفعولات منفعلة عن النجوم وعن حركتها[٣].

الفقرة الثانية: حكم الاستسقاء بالنجوم:

الاستسقاء بالنجوم على ثلاثة أقسام:

أحدهما: أن يعتقد أن للنجم تأثيرًا في إنزال المطر؛ وأنها الفاعلة، أو يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا! اسقنا وأغثنا، فهذا كفر؛ لأنه أشرك في الربوبية، والمشرك كافر.

الثاني: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم مع اعتقاد أن الله هو الفاعل، لكن أجرى الله العادة بنزول المطر عند سقوط ذلك النجم بظنه، وهذا شرك أصغر؛ لأن كل من جعل سببا لم يجعله الله سببا، لا بوحيه ولا بقدره فهو مشرك شركا أصغر

الثالث: وهو إذا اعتقد أن الكواكب والنجوم ليست سببا، لكنها مواقيت وظرف لذلك في العادة، مع اعتقاد أن الله تعالى هو المنزل للأمطار، فقال مطرنا بنوء كذا، مريدا للوقت فقط، فهذا مما اختلف فيه العلماء: فمنهم من كره ذلك، ومنع منه لظاهر الحديث، وأن ذلك من أمور الجاهلية، ومنهم من أباحه مع كراهة اللفظ كراهة تنزيه؛ لأنه إنما قصد معنى جائزا، وهو وقت نزول

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة، للأزهري (٥/٢٣٢)، ولسان العرب لابن منظور (١/١٧٤).
(٢) ينظر: تيسير العزيز الحميد (٣٨٧)
(٣) ينظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد (٣٤٩).

المطر، فكأنه قال: مطرنا في وقت كذا(١).

الفقرة الثالثة: معنى قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]:

أقسم الله تعالى بمواقع النجوم، وهي مساقط كواكب السماء، ومغاربها، وله أن يقسم بما شاء من خلقه على ما يشاء، والمقسم عليه القرآن الكريم، والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه أن النجوم جعلها الله يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يُهتدى بها من ظلمات الكفر والجهل إلى نور التوحيد والهدى، وخصت مواقع النجوم بالقسم بها؛ لما في غروبها من أثر زوالها، والدلالة على مؤثر دائم لا يزول وهو الله تعالى(٢).

الفقرة الرابعة: المشركون ينسبون نزول المطر إلى النوء:

كان أهل الجاهلية يتعلقون بالنجوم ويستيغثون بها، وينسبون ما نزل من المطر بقدرة الله تعالى وقضائه إلى الأنواء والنجوم المخلوقة المدبرة، ويعتقدون أن لها تأثيرًا؛ فيقولون: «مطرنا بنوء كذا وكذا»، وهذا غاية الجهل؛ بل كفر بالنعمة؛ لأن المنعم المنزل للمطر هو الله تعالى؛ فينكرون نعمة الله عليهم، وينسبونها إلى الأنواء التي لا تملك جلب نفع ولا دفع ضر(٣).

فهذه النجوم غاية ما فيها أن الله تعالى جعلها علامات على الطرقات والأزمنة وقد تكون علامة على بداية الربيع، أو موسم نزول المطر، ولكنها ليست أسبابًا في نزول المطر؛ فضلًا عن أن تكون مؤثرة وفاعلة ومدبرة.

الفقرة الخامسة: خصال الجاهلية الواردة في حديث أبي مالك الأشعري ﷺ:

١- الفخر بالأحساب والمراد به التعاظم والتطاول والتكبر على الناس

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ١٣٣)، وموسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة (١٥٧/١).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٣٣).
(٣) ينظر: التمهيد لابن عبد البر (٢٨٧/١٦)، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١٢٢/٥)، وتيسير العزيز الحميد (ص٣٨٧-٣٨٨).

بالمال والشرف والجاه.

٢- الطعن في الأنساب وهو الوقوع فيها بالعيب والتنقص والقدح، وهو نوع اعتلاء بنسبه هو؛ فيقدح في نسب الآخر ليعتلي هو.

٣- الاستسقاء بالنجوم وهو نسبة مجيء المطر إلى النوء، وهو سقوط النجم.

٤- النياحة على الميت وهي رفع الصوت بالندب حزنًا على الميت، وهي من الكبائر، والوعيد والعقوبة عليها شديدة، جاءت في أحاديث كثيرة، والمشروع قوله عند نزول المطر ما ورد في السنة، فقد كان النبي ﷺ إذا رأى المطر قال: «**صيبًا نافعًا**»[1]، وإذا كثر المطر، قال: «**اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية، ومنابت الشجر**»[2].

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

«وهكذا كلٌّ ينسب النعمة إلى من يعظمه من الآباء والآلهة والأشخاص، متناسين مصدرها الصحيح، والمنعم بها على الحقيقة، وهو الله سبحانه.

كما أن بعضهم ينسب نعمة السير في البحر والسلامة من خطره إلى الريح وحذق الملاح، فيقول: كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا.

ومثله اليوم ما يجري على ألسنة الكثير من نسبة حصول النعم واندفاع النقم إلى مجهود المؤسسات والأفراد أو تقدم العلم التجريبي؛ فيقولون مثلًا: تقدم الطب تغلب على الأمراض أو قضى عليها، والمجهودات الفلانية تقضي على الفقر والجهل ... وما أشبه ذلك من الألفاظ التي يجب على المسلم أن يبتعد عنها ويتحفظ منها غاية التحفظ، وأن ينسب النعم إلى الله وحده، ويشكره عليها، وما يجري على يد بعض المخلوقين أفرادًا أو جماعات من المجهودات إنما هي أسباب قد تثمر وقد لا تثمر، وهم يشكرون على قدر ما بذلوه، ولكن؛ لا يجوز نسبة حصول النتائج إلا إلى الله سبحانه»[3].

---

(١) رواه البخاري (١٠٣٢) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) رواه البخاري (١٠١٣)، ومسلم (٨٩٧) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ١١٤).

٣١- باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقر:١٦٥].

١- وقوله: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾[١].

٢- عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**» أخرجاه[٢].

٣- ولهما عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار**»[٣].

٤- وفي رواية: «**لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله**»إلى آخره[٤].

٥- وعن ابن عباس قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان - وإن كثرت صلاته وصومه - حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا» رواه ابن جرير[٥].

٦- وقال ابن عباس في قوله: ﴿**وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ**﴾[٦]، قال: «المودة»[٧].

فيه مسائل:

---

(١) التوبة: ٢٤.
(٢) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).
(٣) رواه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣).
(٤) رواه البخاري (٦٠٤١).
(٥) لم أقف عليه عند ابن جرير, ورواه ابن المبارك «الزهد» (٣٥٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣٤/٧ برقم ٣٤٧٧٠)، ومحمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٣٩٦).
(٦) البقرة: ١٦٦.
(٧) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٧/٣)، ط هجر، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٧٨/١)، والحاكم (٣٠٧٦).

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: وجوب تقديم محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والأهل والمال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الثامنة: تفسير: ﴿**وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ**﴾ (١).

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حبًّا شديدًا.

العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه(٢).

الحادية عشرة: أن من اتخذ ندًّا تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

أصل التوحيد وروحه: إخلاص المحبة لله وحده، وهي أصل التأله والتعبد له، بل هي حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق محبته جميع المحاب وتغلبها، ويكون لها الحكم عليها بحيث تكون سائر محاب العبد تبعًا لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه، ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله، فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

أما اتخاذ أنداد من الخلق يحبهم كحب الله، ويقدم طاعتهم على طاعة الله، ويلهج بذكرهم ودعائهم فهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وصاحب هذا

---

(١) البقرة: ١٦٦.

(٢) وهي الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة والمساكن.

الشرك قد انقطع قلبه من ولاية العزيز الحميد، وتعلق بغيره ممن لا يملك له شيئًا، وهذا السبب الواهي الذي تعلق به المشركون سينقطع يوم القيامة أحوج ما يكون العبد لعمله، وستنقلب هذه المودة والموالاة بغضًا وعداوة.

واعلم أن أنواع المحبة ثلاثة أقسام:

الأول: محبة الله التي هي أصل الإيمان والتوحيد.

الثاني: المحبة في الله وهي محبة أنبياء الله ورسله وأتباعهم، ومحبة ما يحبه الله من الأعمال والأزمنة والأمكنة وغيرهم، وهذه تابعة لمحبة الله ومكملة لها.

الثالث: محبة مع الله وهي محبة المشركين لآلهتهم وأندادهم من شجر وحجر وبشر وملك، وغيرها، وهي أصل الشرك وأساسه.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- تفسير الآية المعنون بها الباب:

قال السعدي: «إن الله سبحانه تعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن ﴿**مِنَ النَّاسِ**﴾ مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أندادًا لله، أي: نظراء ومثلاء، يساويهم بالله في العبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله، مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدونهم، ليقربوهم إليه، وفي قوله: ﴿**يَتَّخِذُ**﴾ دليل على أنه ليس لله ند وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادًا له، تسمية مجردة، ولفظًا فارغًا من المعنى، كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ**﴾(١)، وقال: ﴿**إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا**

---

(١) الرعد: ٣٣.

الظَّنَّ﴾(١)، فالمخلوق ليس ندًا لله؛ لأن الله هو الخالق، وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضر والأمر شيء، فعلم علمًا يقينًا، بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأندادًا، سواء كان ملكًا أو نبيا، أو صالحًا، أو صنمًا، أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئًا، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره»(٢).

٢- وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٢٤].

قال السعدي: «محبة الله ورسوله، يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما فقال: **﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾** ومثلهم الأمهات **﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾** في النسب والعشرة ﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي: قراباتكم عمومًا **﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾** أي: اكتسبتموها وتعبتم في تحصيلها، خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصًا عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كَدّ، **﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾** أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحروث، والأنعام، وغير ذلك، **﴿وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا﴾** من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء **﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾** فأنتم فسقة ظلمة **﴿فَتَرَبَّصُوا﴾** أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب **﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾** الذي لا مرد له، **﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾** أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئًا من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمها على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان

---

(١) النجم: ٢٣.
(٢) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٧٩).

شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلامة ذلك، أنه إذا عرض عليه أمران، **أحدهما:** يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، **والآخر:** تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم، تارك لما يجب عليه»[١].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو محبة الله وأنها من أهم العبادات، وأفضل القربات، وأساس الدين، ومن أعظم دلالات التوحيد.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

بوب المصنف (رحمه الله) بآية المحبة، التي تدل على أن المؤمنين يحبون ربهم تبارك وتعالى أعظم حب وأشده؛ فحبهم الله تعالى خالص، بخلاف محبة المشركين لله تعالى فإنها مشوبة.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن محبة الله تعالى المحبة الخالصة هي أصل دين الإسلام، وبكمالها يكمل، وبنقصها ينقص، وبنقضها ينقض.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

عقد المؤلف هذا الباب ليبين أن أصل التوحيد وروحه إخلاص المحبة لله وحده، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وأن من أحب من دون الله شيئًا كما يحب الله فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا.

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٣٣٢).

فهذا انتقال من المصنف إلى بيان مكملات التوحيد وبيان أساسياته بعد أن بين نواقض التوحيد وبعض منقصاته.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾: أراد المصنف أن الآية تفيد وجوب محبة الله تعالى ومحبة أوامره محبة تفوق المحبات الدنيوية، وتكون باعثة على القيام بالأوامر الشرعية، وناهية عن المساخط، وحطام الدنيا.

وأما حديث: «لا يؤمن أحدكم حتى...»: استشهد به لما فيه من الدلالة على وجوب محبة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن ذلك عبادة وقربة إلى الله تعالى.

حديث: «ثلاث من كن فيه ...»: فيه الدلالة على أن محبة الله ورسوله ودينه تثمر في القلب حلاوة.

قول ابن عباس: «من أحب في الله»: أراد المصنف الاستدلال به على أهمية محبة الله، وأن السلف فهموا أهمية ذلك، وبيان ما به تنال الولاية.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: أهمية المحبة ومنزلتها:

تأتي أهمية المحبة في الشرع من جهة أن الإيمان والدين قول وعمل، وأصل الأقوال التصديق، وأصل الأعمال المحبة، «فالحب أصل كل عمل من حق وباطل»[(١)]، ويترتب على ذلك «أن أصل الإشراك العملي بالله الإشراك في المحبة»[(٢)]، وبيان ذلك أنْ لا عمل إلا بإرادة ونية، والذي يحرك الإرادة ويبعثها هو الحب أصلا والبغض تبعا.[(٣)]

الفقرة الثانية: أنواع المحبة:

(١) ينظر: «جامع الرسائل» (٢/٢٣٥).

(٢) ينظر: المصدر السابق (٢/٢٥٥).

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/١٩٢)، وكتاب «الشرك الأصغر» (صـ ٦٨).

١ـ محبة الله.

٢ـ محبة لله.

٣ـ محبة طبيعية جبلية.

٤ـ محبة مع الله.

وهذا بحسب المحبوبات، وأصل هذا التقسيم تقدم في كلام السعدي في شرحه لهذا الباب في كتابه «القول السديد».

أما النوع الأول: وهو محبة الله عز وجل فهي أكمل المحاب وأعظمها، وأنفعها للعبد، ولا يُكتفى فيها بأصل الحب[١]، بل لا بد أن يكون الله أحب الأشياء إليه، قال النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[٢]، وكلما كملت هذه المحبة في قلب العبد أثمرتْ ألوانًا من الطاعة ما كانت لتكون لولاها[٣].

النوع الثاني: المحبة لله وفيه، ومنها محبة النبي ﷺ والرسل الكرام والملائكة والمؤمنين، ومحبة دينه ومحبة ما يحبه الله ورسوله ﷺ، فأما محبة الرسول ﷺ دلتْ عليه أدلة كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿**النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ**﴾[٤]، وقول النبي ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين**»[٥].

النوع الثالث: المحبة الطبيعية الجبلية: أودع الله في الناس غرائز وطبائع جعلها من أسباب الإبتلاء من جهة، ولتقوم حياتهم بها من جهة أخرى، ومن ذلك ما أودعه الله من محبة بعض الأشياء، كمحبة الأولاد والأموال والمطعومات وغيرها، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾[٦]، فذم الله تعالى حالة أن تكون هذه المذكورات في الآية أحب إلى العبد من الله

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٢٠٦).

(٢) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) انظر كتاب: «الشرك الأصغر» (صـ ٦٩).

(٤) الأحزاب: ٦

(٥) تقدم تخريجه قريبًا جدًّا.

(٦) التوبة: ٢٤

ورسوله ﷺ والجهاد في سبيله، ولمْ يذم مجرد الحب، وكان النبي ﷺ يحب الشراب البارد الحلو، ويحب العسل والدباء، وكان يحب من الثياب القميص، وأحب ألوانه إليه الأبيض[١].

النوع الرابع: المحبة مع الله: وعلى رأسها محبة المشركين لآلهتهم وأصنامهم، دل على ذلك الآية التي استشهد بها الإمام المصنف وجعلها عنوانًا وترجمةً للباب، قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾[٢].

وقوله تعالى: {يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ}[البقرة: ١٦٥]، ذُكر فيها معنيان -الثاني منهما باطل متناقض-:

أحدهما: يساوونهم بالله في المحبة والتعظيم، ولهذا يقولون لأندادهم، وهم في النار: {تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)} [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، فهذا هو مساواتهم برب العالمين، وهو العدل المذكور، في قوله: {ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)} [الأنعام: ١].

الثاني: أن المعنى يحبون أندادهم، كما يحب المؤمنون الله، ثم بين أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم، وهذا متناقض، وهو باطل، فإن المشركين لا يحبون الأنداد، مثل محبة المؤمنين الله تعالى[٣].

الفقرة الثالثة: الشرك في المحبة:

وهو على مرتبتين: **المرتبة الأولى:** شرك أكبر في المحبة، وهي: تقتضي عبادة المحبوب مع الله وتكون أصلا لها[٤]، كما قال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ**﴾[٥].

المرتبة الثانية: الشرك الأصغر في المحبة، وهي الغلو في المحبة التي أصلها شرعي أو طبيعي جبلي، والإفراط في ذلك يجعل المحبة شركًا أصغر إذا

---

(١) ينظر كتاب: «الشرك الأصغر» (صـ ٧١).

(٢) البقرة: ١٦٥

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٨/٣٥٧-٣٥٨)، والجواب الكافي لابن القيم (ص١٨٨)، وتيسير العزيز الحميد (ص٤٠٣-٤٠٤)، والتمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص٣٦٢).

(٤) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٠/٧٥٤).

(٥) البقرة: ١٦٥

لم تصل حد العبادة.[١]

الفقرة الرابعة: وجوب تقديم محبة الله على كل محبوب:

إخلاص المحبة لله وحده هي أصل التأله والتعبد له، بل هي حقيقة العبادة، ولا يتم التوحيد حتى تكمل محبة العبد لربه، وتسبق جميع المحاب وتغلبها، ويكون لها الحكم عليها، بحيث تكون سائر محاب العبد تبعًا لهذه المحبة التي بها سعادة العبد وفلاحه، ومن تفريعها وتكميلها الحب في الله فيحب العبد ما يحبه الله من الأعمال والأشخاص، ويبغض ما يبغضه الله من الأشخاص والأعمال، ويوالي أولياءه، ويعادي أعداءه، وبذلك يكمل إيمان العبد وتوحيده.

الفقرة الخامسة: محبة الله من أهم العبادات:

محبة الله تعالى من أهم العبادات وأفضل القربات، وأساس الدين؛ لأن حبه يقتضي الإخلاص له، والامتثال لأمره، وترك نهيه.

وتستولي محبة الله على قلب المسلم حتى يصبح لا يحب إلا ما يحبه الله، ولا يبغض إلا ما يبغضه الله، ولا يبحث إلا عن مراضي الله، ولا يهتم إلا بما يقرب إلى الله.

الفقرة السادسة: محبة غير الله يجب أن تكون تابعة لمحبة الله:

محبة غير الله من الرسل والأنبياء والملائكة والصالحين يجب أن تكون تابعة لمحبة الله.

قال الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله: «كمحبة الرسل، نحبهم لأنهم رسل الله؛ فلا نحبهم محبة عبادة، وكذلك المؤمنين نحبهم لأنهم أطاعوا الله؛ فنواليهم.

أما محبة الذل والعبادة فهذه لله وحده لا يشاركه فيها أحد، والمشركون يصرفون هذه المحبة للأنداد، وبعضهم يجرؤ على الحلف بالله كاذبًا، ولا يجرؤ على الحلف بالأنداد والشيوخ كاذبًا، ويقول: هذه الأنداد أشد وأسرع انتقامًا من

(١) ينظر كتاب: «الشرك الأصغر» (صـ ٧٢).

الله»[(١)].

الفقرة السابعة: تقديم محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على محبة كل مخلوق:

يجب محبة جميع الرسل الذين أرسلهم الله ومحبتهم تابعة لمحبة الله، فنحب الرسل جميعهم؛ لأنهم رسل الله والمصطفون من عباده، ولطاعتهم الله.

ومن محبة الرسل المحبة الخاصة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم؛ فلا يكمل إيمان عبد حتى يقدم محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم على محبة أهله وولده وماله ونفسه والناس أجمعين، وذلك أن حب رسول الله صلى الله عليه وسلم دليل على محبة الله تعالى؛ لأن الرسول هو المبلغ عنه، والهادي إلى دينه، ومحبة الله ورسوله لا تصح إلا بامتثال أوامر الشرع واجتناب نواهيه.

وأعظم علامة على حب الله تعالى وحب الرسول صلى الله عليه وسلم هي العلامة التي جعلها الله تعالى في آية المحنة، حيث قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران : ٣١].

فاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم يساوي محبة الله تعالى؛ فهذه معادلة تعني أنه حيث وُجِدَ الاتباع، وجدَت المحبة، ولا عكس، وقديمًا قيل: إن المحب لمن يحب مطيع.

وليس من علامة محبة الرسول صلى الله عليه وسلم إقامة ما يخالف شرعه، واختراع المحدثات من الأمور في دينه ولا الغلو فيه صلى الله عليه وسلم، ولا إقامة الاحتفالات وإنشاء القصائد وتلحين الأغاني.

فإن الاتباع ليس بالهوى، ولكن يكون بالأثر، وهو الذي يورث المحبة الصادقة.

الفقرة الثامنة: أقسام المحبة الطبيعية:

المحبة الطبيعية ثلاثة أقسام:

١ ـ محبة إجلال وإعظام؛ كمحبة الوالد.

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١٦٢).

٢ ـ محبة شفقة ورحمة؛ كمحبة الولد.

٣ـ محبة مشاكلة واستحسان؛ كمحبة سائر الناس، ومنه محبة الطعام والشراب واللباس، والنكاح، ونحوها.

وهذه إذا كانت مباحة وأعانت على طاعة الله فهي عبادة، وإن توسل بها إلى محرم فهي محرمة، وإلا بقيت من أقسام المباحات(١).

قال الإمام عبد العزيز بن باز رحمه الله: «أما المحبة الطبيعية؛ كمحبة الطعام والنساء، والأولاد؛ فهذه لا تقدح في محبة الله، إذا لم تؤثر على محبة الله؛ فإن زادت حتى صارت قادحة في محبة الله ؛ كأن يطيع زوجته في معصية الله، فإن هذه المحبة تكون منقصة للإيمان بقدر ما تؤثر على محبة الله؛ فلابد أن تكون مقيدة بشرع الله»(٢).

الفقرة التاسعة: الخصال التي يجد بها المؤمن حلاوة الإيمان:

١ـ أن تكون محبة الله ورسوله مقدمة على محبة الأولاد، والأموال، والأزواج وغيرها.

٢ ـ أن تكون محبة الإنسان لغيره من الناس خالصة لله تعالى، لا لغرض أو عرض دنيوي.

٣ـ كراهية الكفر وأهله.

الفقرة العاشرة: الأسباب الجالبة لمحبة الله:

١ ـ فعل الواجبات وترك المحرمات.

٢ ـ قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

٣ـ التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.

٤ـ دوام ذكر الله على كل حال باللسان، والقلب، والعمل.

٥ـ إيثار محاب الله تعالى على محابك عند غلبات الهوى.

٦ ـ مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها.

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ١٣٨).
(٢) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ١٦٣).

٧- مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

٨- انكسار القلب بين يديه.

٩ - الخلوة به وقت النزول الإلهي آخر الليل.

١٠ - مجالسة المحبين الصادقين والتقاط أطايب ثمرات كلامهم.

١١ – مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عَزَّوَجَلَّ.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

«محبة الرسول صلى الله عليه وسلم تابعة لمحبة الله، ملازمة لها، ومن أحب الرسول صلى الله عليه وسلم، اتبعه، وهناك الآن من يدعي محبته عليه الصلاة والسلام، وهو يخالفه فيما جاء به، فيطيع غيره من المنحرفين والمبتدعين والمخرفين، فيحيي البدع ويترك السنن؛ فهذا كاذب في دعواه أنه يحب الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن المحب يطيع محبوبه.

فالذين يحدثون البدع المخالفة لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم بإحياء الموالد وغيرها من البدع، أو يفعلون ما هو أعظم من ذلك من الغلو في النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه من دون الله وطلب المدد منه والاستغاثة به، ومع هذا يدعون أنهم يحبونه؛ فهذا من أعظم الكذب، وهم كالذين قال الله فيهم: ﴿**وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ**﴾ [النور:٤٧]؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن هذه الأمور، وقد خالفوا نهيه، وارتكبوا معصيته، وهم يدعون أنهم يحبونه؛ فكذبوا، نسأل الله العافية»[(١)].

(١) ينظر: «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٧٨) بتصرف يسير.

٣٢- باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

١- وقوله: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾(١).

٢- وقوله: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ**﴾(٢).

٣- وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا: «**إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره**»(٣).

٤- وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ، قال: «**من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس**» رواه ابن حبان في «صحيحه»(٤).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى.

الخامسه: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

---

(١) التوبة: ١٨.

(٢) العنكبوت: ١٠.

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١٠٦/٥)، و(٤١/١٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٣)، وضعفاه، والحديث لا يصح مرفوعًا، وقد ورد عن ابن مسعود مرفوعًا وموقوفًا، ولا يثبت المرفوع أيضًا والصواب وقفه.

(٤) رواه الترمذي (٢٤١٤)، وابن حبان (٢٧٦)، وهو صحيح بما له من شواهد؛ كما في «السلسلة الصحيحة» (٢٣١١).

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

هذا الباب عقده المصنف - رحمه الله - لوجوب تعلق الخوف والخشية بالله وحده، والنهي عن تعلقه بالمخلوقين، وبيان أنه لا يتم التوحيد إلا بذلك، ولا بد في هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر ويزول الاشتباه.

اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة، وتارة يقع طبيعة وعادة وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته، فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد، وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه، وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سري يزجر عن معصية من يخافه، كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله; لأنه أشرك في هذه العبادة التي هي من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه من الله، وأيضًا فمن خشي الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد، ومن خشي غيره فقد جعل لله ندًّا في الخشية، كمن جعل لله ندًّا في المحبة، وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروهًا، أو يغضب عليه فيسلبه نعمة أو نحو ذلك، مما هو واقع من عباد القبور، وإن كان الخوف طبيعيا كمن يخشى من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري، فهذا النوع ليس عبادة، وقد يوجد من كثير من المؤمنين ولا ينافي الإيمان، وهذا إذا كان خوفًا محققًا قد انعقدت أسباب الخوف فليس بمذموم، وإن كان هذا خوفًا وهميا كالخوف الذي ليس له سبب أصلًا، أو له سبب ضعيف فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء، وقد تعوذ صلى الله عليه وسلم من الجبن[1]، فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع، حتى إن خواص المؤمنين وأقوياءهم تنقلب المخاوف في حقهم أمنا، وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم الشجاعة القلبية، وكمال توكلهم، ولهذا أتبعه بهذا الباب.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٧١)، ومسلم (٢٧٠٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- تفسير السعدي للآية المعنون بها الباب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥].

قال السعدي: «أي: إن ترهيب من رهب من المشركين، وقال: إنهم جمعوا لكم، داع من دعاة الشيطان، يخوف أولياءه الذين عُدِم إيمانهم، أو ضعف، **﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** أي: فلا تخافوا المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياءه الخائفين منه المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله»(١).

٢- وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ...﴾ [التوبة:١٨].

قال السعدي: «ذكر من هم عمار مساجد الله فقال: **﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ﴾** الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطن، **﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾** لأهلها **﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلا اللَّهَ﴾** أي: قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة.

فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أُمُّها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير، فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها، **﴿فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾** و«عسى» من الله واجبة.

وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمار مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه»(٢).

٣- وقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ١٥٦).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٢٣٠).

جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠].

قال السعدي: «لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادَّعى الإيمان، ليظهر الصادق من الكاذب، بيَّن تعالى أن من الناس فريقًا لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل فقال: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾** بضرب، أو أخذ مال، أو تعيير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل، **﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾** أي: يجعلها صادَّة له عن الإيمان والثبات عليه، كما أن العذاب صادٌّ عما هو سببه، **﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾**؛ لأنه موافق للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾**»[1].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو وجوب خوف الله تعالى خوفًا يحمله على الإخلاص له، وأداء ما فرض عليه، والوقوف عند حدوده.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أهمية الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ وحده، وعدم الخوف من الأنداد والأوثان والمعبودين من دون الله تعالى، وأن الخوف من الله تعالى وحده علامة على الإيمان، وإنما أتى بالآية؛ لأن فيها الإشارة إلى ما ذكر.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن الخوف من الله تعالى من أساسيات التوحيد، وهو دليل على إيمان صاحبه، وأن المشرك هو الذي يخاف من الأوثان والأصنام والأنداد.

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٦٢٧).

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن فرغ المصنف من الكلام عن وجوب إخلاص الحب لله عَزَوَجَلَّ، ناسب أن يعقد هذا الباب لوجوب بيان تعلق الخوف والخشية بالله وحده، والنهي عن الخوف من المخلوقين، وبيان أنه لا يتم التوحيد إلا بذلك، وذلك لما بين الخوف والمحبة من الرباط؛ لأنهما جناحا الإيمان.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾: أراد المصنف الاستدلال بها على أن المؤمنين هم الذين يعبدون الله في مساجد الله، ويخافون منه، ويفردونه بالعبادة، لا الذين يعمرون القبور، ويشركون بالله.

الآية الثانية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ﴾: أوردها المصنف لأنها دلت على ذم من خاف الناس، وجعل عقوبتهم كعقوبة الله؛ فارتد عن دينه بسبب أذيتهم وتخويفهم[١].

الحديث الأول: «إن من ضعف اليقين»، والثاني: «من التمس رضا الله بسخط الناس»: استدل بهما المصنف على ذم من خاف الناس، وقدم رضاهم على رضا الله تعالى[٢].

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: علامة ضعف اليقين:

اليقين ضد الشك، والقوة ضد الضعف، ولا تحصل قوة اليقين إلا بقوة كمال الإيمان؛ فضعف اليقين دليل على ضعف الإيمان.

وعلامات ضعف اليقين:

١ – أن تسخط الله لترضي الناس.

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» لعبد الله الجار الله (صـ ١٤٢).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٤٣-١٤٤).

٢ ـ أن تشكر الناس ولا تشكر الله على النعمة التي ساقها إليك بواسطتهم.

٣ـ أن تذم الناس على ما لم يعطك الله تعالى.

٤ ـ التماس رضا الناس بسخط الله .

الفقرة الثانية: الخشية من صفات المؤمنين:

الخشية والخوف والهيبة لله هي أساس عبادة الله وحده، والمراد بالخشية: خشية التعظيم والعبادة والطاعة، وهي من صفات المؤمنين، حيث أفردوا الله بالخوف والخشية دون سواه، دل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ**﴾ [التوبة: ١٨]، فالخشية عبادة يجب إخلاصها لله وحده، وإن خشية غيره شرك إذا ترتب عليها ترك طاعة.

الفقرة الثالثة: الخوف: معناه وأنواعه:

الخوف هو الفزع والوجل، وتوقع العقوبة، وترقب العذاب، وقيل في تعريفه عدة تعريفات؛ منها: أنه اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف[1]، وقيل: تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال[2].

وهو أربعة أنواع:

١ ـ خوف الله تألهًا وتعبدًا له، وتقرباً إليه وهو من أعظم واجبات الإيمان، وكلما ازداد خوف العبد من الله ازداد فراره إليه تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ**﴾ [الذاريات:٥٠]، وقال تعالى: ﴿**لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ**﴾ [التوبة:١١٨].

٢ـ خوف السر: وهو أن يخاف الإنسان من غير الله من وثن، أو طاغوت، أو ميت أو غائب أن يصيبه بما يكره، ويخافه كما يخاف من الله تعالى؛ فهذا شرك أكبر ينافي التوحيد.

٣ـ أن يترك الإنسان ما يجب عليه خوفًا من بعض الناس، يتوقع منهم العذاب والنكال به فهذا محرم، وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، ولكن إذا وقع العذاب والضرر فتَرَكَ الواجبَ فهو في حكم المضطر.

---

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٥٠٨/١).
(٢) انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص٣٠٢)

٤ ـ الخوف الطبيعي: وهو الخوف من عدو، أو سبع، ونحو ذلك مما يخشى ضرره؛ فهذا واقع وهو أمر طبيعي جائز وغير مذموم، ولكنه يكون مذمومًا إذا أصبح ذلك الشيء المخوف هاجسه، والكمل من الرجال من يغلب توكله كل مخوف غير الله تعالى(١).

الفقرة الرابعة: الخوف من الله شرط في تحقيق الإيمان:

قال ابن القيم رحمه الله: «قد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله: **﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** [آل عمران:١٧٥]، فجعل الخوف منه شرطًا في تحقيق الإيمان». ثم قال: «والمقصود أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يتخلف عنه»(٢).

الفقرة الخامسة: حكم الخوف من المخلوق:

الخوف من المخلوق ومن الأشياء الحسية والطبيعية جائز لا بأس به؛ فهو أمر فطري، أما الخوف الذي يحمل العبد على فعل معصية الله، أو ترك ما أوجبه الله؛ ففيه نزلت الآية السابقة.

فالخوف الذي يحمل على ترك الواجب، كترك الجهاد في سبيل الله، خوف مذموم شرعًا، ومرتب عليه نقصان الإيمان.

الفقرة السادسة: الرزق لا يحصل بالحرص:

الرزق قدره الله تعالى؛ فهو الرزاق عَزَوَجَلَّ للناس وجميع المخلوقات، وكما أنه قدر الأجل كذلك قدر الرزق، والذي لا يستطيع أن يأتيك بالحياة لا يستطيع أن يأتيك بالرزق.

ولكن العبد لا يعجز وإنما يسعى في طلب معاشه من حلال؛ فما قدر له يرضى به، ولا يتسخط، ولا يقول: لولا فلان لكان لي كذا وكذا...، وليعلم أن الأمور مقدرة بتقدير الله تعالى، وليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

---

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص٤١٦-)، والتمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص٣٦٦-٣٦٩).
(٢) ينظر: «طريق الهجرتين» لابن القيم (صـ ٢٨٢).

الفقرة السابعة: الآثار المترتبة على إرضاء الله وإسخاط الناس:

لا شك أن البحث عن رضا الله تبارك وتعالى أمر محمود، ولو سخط الناس، والبعد عن مساخط الله تعالى أمر محمود، ولو رضي الناس.

ولهذا النوع من العمل آثار مترتبة، منها:

١ ـ رضا الله عنه، وإنزال محبته في قلوب الناس.

٢ ـ حفظ الله له، وكفايته أذية الخلق.

٣ـ رزق الله له من حيث لا يحتسب، وتفريج المضايق عنه.

٤ ـ انقلاب المخاوف في حقه أمنًا وطمأنينة.

الفقرة الثامنة: قوة إيمان من يقدم رضا الله على سخط الناس:

الذي يطلب رضا الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ولا يبالي بسخط الناس وغضبهم، وما يوجهونه إليه من الإهانات والضغوط، يدل ذلك على قوة إيمانه، وتمام توكله، وكمال يقينه، وشجاعته القلبية.

ويجب على العبد أن يتذكر أن الأمور بيد الله تعالى؛ فعلام الخوف من الناس، وعلام الجبن عن قول الحق، ولماذا الخوف على الرزق؛ فالذي خلق يرزق، والذي قدر يدبر، فعليه بالبحث عن مراضي الله تعالى؛ وهذا الذي يقوي الإيمان، حتى يكون الرجل أمة وحده، بل ربما يبقى في الساحة وحده من أجل الحق.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

إن الوثنيين من المشركين السابقين، ومن اللاحقين من القبورية قديمًا وحديثًا يُخَوِّفون أهل التوحيد من آلهتهم الباطلة، كما قال تعالى مخبرًا عن المشركين أنهم قالوا: ﴿**إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ**﴾ [هود : ٥٤]. وقال تعالى: ﴿**وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ**﴾ [الزمر : ٣٦]، وهكذا القبورية تراهم إذا رد عليهم أحد من الموحدين ونهاهم عن الشرك والاستغاثة بالأموات إذا هم يخوفونه، ويقولون: إنك سيئ الأدب في حق الأولياء، اسكت، وإلا يسلب

الولي منك الإيمان والقرآن والعلم، ويخشى عليك سوء الخاتمة، وتصاب بكذا وكذا، ولهم في ذلك عجائب من الحكايات الكاذبة المكذوبة الموضوعة المصنوعة للتخويف والتهديد.

ويقولون: إن قومًا من الموحدين قطعت ألسنتهم، وآخرين عذبوا في قدر أغلي فيها الماء حتى تطاير منها الشرر، إلى أن ظهر نتن لحومهم وعظامهم لأجل أنهم ينكرون على الأولياء، ومن أولياؤهم؟ أولياؤهم أمثال ابن الفارض الاتحادي، وابن عربي ا الحلولي، وابن سبعين الوجودي.

ويزعمون أن القاضي عياضًا رَحِمَهُ اللهُ كان ينكر على «إحياء» الغزالي فمات في الحمام، وفلان حصل له كذا، وفلان صار له كذا وكذا ، إلى آخر تلك التخويفات[1].

والخوف الشركي هو الواقع اليوم من عباد القبور، فإنهم يخافون الصالحين بل الطواغيت، كما يخافون الله بل أشد. ولهذا إذا توجهت على أحدهم اليمين بالله أعطاك ما شئت من الأيمان كاذبًا أو صادقًا، فإن كان اليمين بصاحب التربة لم يقدم على اليمين إن كان كاذبًا، وما ذاك إلا لأن المدفون في التراب أخوف عنده من الله. ولا ريب أن هذا ما بلغ إليه شرك الأولين، بل جهد أيمانهم اليمين بالله تعالى، وكذلك لو أصاب أحدًا منهم ظلم لم يطلب كشفه إلا من المدفونين في التراب[2].

(١) ينظر: «طبقات الصوفية» للشعراني (١٨٧/١)، و«روض الرياحين» لليافعي (صـ ٨)، و«المرتع الروي» (٣١٩/١-٣٢٠)، و«الأنوار القدسية» للشعراني الصوفي القبوري (١٦١/٢)، و«جامع الكرامات» للنبهاني (٢ / ٤١٢)، و«الكواكب الدرية» للمناوي (١٠٢/٢-١٠٣).

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد (ص٤١٦-).

٣٣- باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

١- وقوله: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾**(١).

٢- وقوله: **﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾**(٢).

٣- وقوله: **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾**(٣).

٤- وعن ابن عباس قال: «**﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾** قالها إبراهيم - عليه السلام - حين ألقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا له: **﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾**(٤)» رواه البخاري والنسائي(٥).

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض.

الثانية: أنه من شروط الإيمان.

الثالثة: تفسير آية الأنفال.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها.

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ومحمد صلى الله عليه وسلم في الشدائد.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

التوكل على الله من أعظم واجبات التوحيد والإيمان، وبحسب قوة توكل

---

(١) الأنفال: ٢.
(٢) الأنفال: ٦٤.
(٣) الطلاق: ٣.
(٤) آل عمران:١٧٣.
(٥) رواه البخاري(٤٥٦٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٠١٥).

العبد على الله يقوى إيمانه، ويتم توحيده، والعبد مضطر إلى التوكل على الله والاستعانة به في كل ما يريد فعله أو تركه من أمور دينه أو دنياه.

وحقيقة التوكل على الله: أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة، فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو شرك، ومن توكل على غير الله، وتعلق به، وكل إليه وخاب أمله.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١ـ تفسير الآية المعنون بها الباب: قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣].

قال السعدي: «إن في التوكل على الله تيسيرًا للأمر، ونصرًا على الأعداء، ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله»[(١)].

٢ـ وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ [الأنفال:٢].

قال السعدي: «لما كان الإيمان قسمين: إيمانًا كاملًا يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيمانًا دون ذلك ذكر الإيمان الكامل فقال: **﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾** الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت ورهبت، فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب،

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٢٢٧).

ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقًا إلى كرامة ربهم، أو وجلًا من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويثقون بأن الله تعالى سيفعل ذلك.

والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به»[١].

٣- وقول الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال:٦٤].

قال السعدي: «أي: كافيك ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء.

فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها»[٢].

٤- وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]

قال السعدي: «أي: في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له»[٣].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو وجوب التوكل على الله، والاعتماد عليه في جميع أمور الدين والدنيا.

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٣١٥).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٣٢٥).

(٣) ينظر: المصدر السابق (صـ ٨٦٩).

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أهمية التوحيد في التوكل وأنه من الأمور القلبية المتعلقة بالتوحيد، وصدر بالآية للدلالة على أن التوكل عبادة لا تكون إلا الله تعالى.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أراد بهذه الترجمة بيان أن التوكل عبادة قلبية يجب إخلاصها لله تعالى؛ فإن الآية المترجم بها قدم فيها المعمول على العامل[١]، وهذا يدل على الحصر، فكأن المعنى: لا تتوكلوا إلا عليه وحده.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن تكلم المصنف عن إثبات وجوب الخشية لله وحده دون سواه، تطرق إلى ما يعين على الخوف من الله وترك الخوف ممَّن سواه، ألا وهو التوكل، ومن ثُمَّ عقد هذا الباب لبيان وجوب التوكل على الله، والاعتماد عليه في جميع أمور الدين والدنيا، وأن التوكل على الله عبادة، وأن التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى شرك ينافي التوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ...**﴾ [الأنفال:٢]: دلت الآية على أن المؤمن كامل الإيمان هو الذي يتوكل على الله في كل أموره، حيث وصف الله المؤمنين بذلك، وهي صفات وصلوا بها إلى حقيقة الإيمان وكماله المنشود.

الآية الثانية: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ**﴾ [الأنفال:٦٤]: أراد المؤلف الاستدلال بها على أن الله كافٍ نبيه صلى الله عليه وسلم، وكافٍ لأتباع النبي صلى الله عليه وسلم إلى قيام الساعة؛ فإذا كان الله وحده هو الكافي لعبده وجب ألا يتوكل إلا عليه.

---

(١) في قوله تعالى: {**وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا**} [المائدة: ٢٣].

الآية الثالثة: ﴿ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق:٣]: أوردها المصنف لما فيها من الاستدلال على أن الله يكفي من توكل عليه[(١)].

حديث ابن عباس: «حسبنا الله ونعم الوكيل»: ذكره لما فيه من أن الله نِعْمَ الموكل، وهو المتوكل عليه وحده، وقد توكل الخليلان[(٢)]: إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام على الله فكفاهما الله؛ فهذه كلمة عظيمة تقال عند الشدائد كما فعل الخليلان.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: حقيقة التوكل على الله:

التوكل في اللغة يأتي لمعاني: منها التسليم والترك، يقال: وكَل إليه الأمر: أي سلمه وتركه، ومنها: الاعتماد والنيابة، يقال: وكلت أمري إلى فلان: أي ألجأته إليه، واعتمدت فيه عليه[(٣)].

وأما تعريفه شرعا: فقد تنوعت عبارات أهل العلم في حدّه: وجملته: أنه حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله تعالى، والإيمان بتفرده بالخلق والتدبير، والنفع والضر، يوجب اعتمادا عليه، وتفويض الأمور إليه، في جلب المنافع، ودفع المضادر في الدين والدنيا، مع مباشرة الأسباب[(٤)].

وحقيقة التوكل: أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار، المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصول مطلوبه ، وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة؛ فمتى استدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة مع العمل فهو المتوكل على الله حقيقة.

وأما التوكل على غير الله تعالى: فهذا إما أن يكون شركًا ناقضًا للتوحيد، أو أمرًا منقصًا للتوحيد؛ فمن توكل على ميت أو صنم، أو جني في أمر ما فهذا

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» (صـ ١٤٦).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٤٧).
(٣) ينظر: الصحاح للجوهري (١٨٤٥/٥)، والنهاية في غريب الحديث والأثر (٢٢١/٥).
(٤) ينظر: مدارج السالكين لابن القيم (١٢٣/٢-١٢٤)، وزاد المعاد (١٥/٤)، وجامع العلوم والحكم لابن رجب (٣٥٦/٢)، وفتح الباري لابن حجر (٤٤٩/٣).

توكل شركي، ومن توكل على بذل السبب فحسب ولم يعلق قلبه بالله تعالى فهذا ناقص للتوحيد إن لم يكن ناقضًا له بحسب ما يقوم بقلبه من أمور الإيمان.

وأما التوكيل المعروف في باب المعاملات فهو ليس إلا إعطاء شخص حق التصرف عنه في الأمور، وليس هذا من التوكيل التعبدي في شيء.

الفقرة الثانية: الصفات الموصلة لحقيقة الإيمان وكماله:

١ - الخوف من الله ووجل القلب عند سماع القرآن.

٢- التوكل على الله والاعتماد عليه دون سواه.

٣- قراءة القرآن تزيد الإيمان وتحقق اليقين.

٤ - إقامة الصلاة والإتيان بها على الوجه الأكمل في وقتها وبواجباتها وشروطها وأركانها.

٥ - إنفاق الأموال في الأمور الواجبة والمستحبة.

الفقرة الثالثة: وجوب التوكل على الله تعالى:

الاعتماد على الله، والتوكل عليه في جميع أمور الدين والدنيا من أوجب الواجبات؛ فالله تعالى هو مسبب الأسباب، وكل شيء بيده، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وليعلم العبد أن القدر قد سبق بكل شيء، وليس للعبد قدرة على أي شيء لم يشأه الله تعالى.

ووجوب التوكل على الله لا يعني ترك الأسباب، بل الأخذ به هو من التوكل، فيأخذ المسلم بالأسباب الشرعية، ومن الأسباب العادية ما هو مباح ونافع، ثم يكل الأمور إلى الله تعالى.

الفقرة الرابعة: أركان التوكل:

التوكل على الله يجمعه أمران هما ركناه:

١ - الثقة بالله، وأنه مسبب الأسباب، ومصرف الأمور، وكل شيء بيده.

٢ - الأخذ بالأسباب التي تكون مباحة شرعًا.

الفقرة الخامسة: ترك الأسباب ليس من التوكل:

التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، فالتوكل في القلب والأخذ بالأسباب في الجوارح، فالتوكل على الله يعني الاعتماد عليه بعد فعل السبب المتيسر والمشروع، وليس من التوكل ترك الأسباب، بل هو من التواكل؛ كما أنك قد تجد بعض الصوفية الذين يزعمون أنهم متوكلون؛ فلا يتخذون الأسباب.

وهل عاقل يريد الولد لا يتزوج؟ وهل عاقل يريد الحصاد لا يزرع؟ بحجة أن الله قادر على كل شيء، لا شك أن الله قادر على كل شيء، وهو الذي ربط الأمور بأسبابها، فترك الأسباب قدح في العقل؛ كما أن الاعتماد على الأسباب قدح في الدين، قد يوصل إلى الشرك.

الفقرة السادسة: من توكل على الله كفاه:

من اعتمد على الله في أموره كلها وفوض أمره إليه؛ فإن الله يكفيه كل ما ينوبه ويهمه من أمور الدنيا والدين، ومن كفاه الله ما أهمه لم يحتج إلى أحد، وليعلم المرء أن الله تعالى كفاه وهو في بطن أمه، وأطعمه وسقاه وهو في ظلمات الرحم؛ فكذلك يكفي من توكل عليه، ومن حيث لا يحتسب يفرج عنه، بل وليعلم المرء أن الله تعالى كفاه حيث أعطاه من غير سؤال: عقلًا، وسمعًا، وبصرًا، أفلا يعطيه وهو يطلب بذلٍ، وخشوع، وخشية، وإنابة؟

الفقرة السابعة: فضل قول: «حسبنا الله ونعم الوكيل»:

ينبغي للمسلم أن يلجأ إلى الله في كل وقت، ويتوكل عليه في كل حين، وأن يقول عند المصائب والشدائد: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، أي: الله كافينا ومتولي أمورنا، فلا نتكل إلا عليه فهو نعم الموكول إليه، والمعتمد عليه، والملتجأ إليه تبارك وتعالى، وهذا نبي الله إبراهيم الخليل عليه السلام لما قالها وهو يُلقى في النار كفاه الله شر الفجار، وأنقذه من حر النار، وهذا نبي الله محمد صلى الله عليه وسلم لما قالها حين اجتمع عليه وعلى أصحابه الأحزاب قالها فكفاه الله ما ناب، وفرق الله جمع الأحزاب.

الفقرة الثامنة: حكم قول: توكلت على الله ثم عليك:

لا يجوز أن يقول: توكلت على الله ثم عليك؛ لأن المخلوق ليس له نصيب من التوكل، فإن التوكل إنما هو تفويض الأمر والالتجاء بالقلب إلى من بيده

الأمر وهو الله- جل وعلا-، والمخلوق لا يستحق شيئا من ذلك، وحقيقة التوكل الذي ذكر سابقا لا يصلح إلا لله- جل وعلا-؛ لأنه تفويض الأمر إلى من بيده الأمر والمخلوق ليس بيده الأمر، فالتجاء القلب ورغب القلب وطمع القلب في تحصيل المطلوب إنما يكون ذلك ممن يملكه وهو الله - جل وعلا-، أما المخلوق فلا يقدر على شيء استقلالا وإنما هو سبب، فإذا كان سببا فإنه لا يجوز التوكل عليه؛ لأن التوكل عمل القلب وإنما يجعله سببا بأن يجعله شفيعا، أو واسطة، ونحو ذلك، فهذا لا يعني أنه متوكل عليه، فيجعل المخلوق سببا فيما أقدره الله عليه ولكن يفوض أمر النفع بهذا السبب إلى الله- جل وعلا-، فيتوكل على الله ويأتي بالسبب الذي هو الانتفاع من هذا المخلوق بما جعل الله- جل وعلا- له من الانتفاع أو من القدرة ونحو ذلك(١).

وأما الوكالة التي ذكرها العلماء في أبواب الفقه فلا تدخل في هذا المعنى، بل هي من باب المعاملات، وهي بمعنى الاستنابة، وليس لها علاقة بالتوكل الذي هو عبادة قلبية محضة(٢).

(١) ينظر: «التمهيد لشرح كتاب التوحيد» (صـ ٣٧٦).
(٢) ينظر: موسوعة العقيدة والأديان والفرق والمذاهب المعاصرة (٨٣٢/٢).

٣٤- باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

١- وقوله: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾(١).

٢- وعن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر؟ فقال: «**الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله**»(٢).

٣- وعن ابن مسعود قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله»(٣) رواه عبد الرزاق.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف.

الثانية: تفسير آية الحجر.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

مقصود الترجمة أنه يجب على العبد أن يكون خائفًا من الله، راجيا له راغبا راهبا، إن نظر إلى ذنوبه وعدل الله وشدة عقابه خشي ربه وخافه، وإن نظر إلى فضله العام والخاص وعفوه الشامل رجا وطمع، إن وفق لطاعة رجا من ربه تمام النعمة بقبولها، وخاف من ردها بتقصيره في حقها، وإن ابتلي بمعصية رجا من ربه قبول توبته ومحوها، وخشي بسبب ضعف التوبة والالتفات للذنب أن يعاقب عليها، وعند النعم والمسار يرجو الله دوامها والزيادة منها والتوفيق

---

(١) الحجر: ٥٦.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩٣١/٣)، والبزار كما في «كشف الأستار» (٧١/١ برقم ١٠٦)، وقال ابن كثير في «تفسيره» (٢٧٩/٢): «في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا». وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٠٥١).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٥٥٦)، والطبري في «تفسيره» (٦٤٨/٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٥٦/٩ برقم ٨٧٨٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠١٩).

لشكرها، ويخشى بإخلاله بالشكر من سلبها، وعند المكاره والمصائب يرجو الله دفعها وينتظر الفرج بحلها، ويرجو أيضًا أن يثيبه الله عليها حين يقوم بوظيفة الصبر، ويخشى من اجتماع المصيبتين فوات الأجر المحبوب، وحصول الأمر المكروه إذا لم يوفق للقيام بالصبر الواجب، فالمؤمن الموحد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء وهذا هو الواجب وهو النافع، وبه تحصل السعادة، ويخشى على العبد من خلقين رذيلين:

أحدهما: أن يستولي عليه الخوف حتى يقنط من رحمة الله وروحه.

الثاني: أن يتجارى به الرجاء حتى يأمن مكر الله وعقوبته، فمتى بلغت به الحال إلى هذا، فقد ضيع واجب الخوف والرجاء اللذين هما من أكبر أصول التوحيد وواجبات الإيمان.

وللقنوط من رحمة الله واليأس من روحه سببان محذوران: **أحدهما:** أن يسرف العبد على نفسه ويتجرأ على المحارم فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله؛ لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة، فلا يزال كذلك حتى يصير له هذا وصفا وخلقا لازما، وهذا غاية ما يريده الشيطان من العبد، ومتى وصل إلى هذا الحد لم يرج له خير إلا بتوبة نصوح وإقلاع قوي.

الثاني: أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم، ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته فييأس من الرحمة، وهذا من المحاذير الضارة الناشئة من ضعف علم العبد بربه، وما له من الحقوق، ومن ضعف النفس وعجزها ومهانتها، فلو عرف هذا ربه ولم يخلد إلى الكسل، لعلم أن أدنى سعي يوصله إلى ربه، وإلى رحمته وجوده وكرمه.

وللأمن من مكر الله أيضا سببان مهلكان: **أحدهما:** إعراض العبد عن الدين وغفلته عن معرفة ربه وما له من الحقوق، وتهاونه بذلك فلا يزال معرضا غافلا مقصرا عن الواجبات، منهمكا في المحرمات، حتى يضمحل خوف الله من قلبه، ولا يبقى في قلبه من الإيمان شيء؛ لأن الإيمان يحمل على خوف الله وخوف عقابه الدنيوي والأخروي.

السبب الثاني: أن يكون العبد عابدا جاهلا معجبا بنفسه مغرورا بعمله، فلا يزال به جهله حتى يُدل بعمله ويزول الخوف عنه، ويرى أن له عند الله المقامات العالية، فيصير آمنا من مكر الله متكلا على نفسه الضعيفة المهينة،

ومن هنا يخذل ويحال بينه وبين التوفيق؛ إذ هو الذي جنى على نفسه، فبهذا التفصيل تعرف منافاة هذه الأمور للتوحيد.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- تفسير الآية المعنون بها الباب: قال الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

قال السعدي: «﴿**أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ**﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم، إن كيده متين، ﴿**فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ فإن من أمن من عذاب الله، فهو لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنا على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفا وجلا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعيا بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[(١)]، وأن يعمل ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر، عند وقوع الفتن، فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة»[(٢)].

٢- وقول الله تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

قال السعدي: «﴿**قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ**﴾ الذي لا شك فيه؛ لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص -يا أهل هذا البيت- رحمة الله وبركاته عليكم فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم، ﴿**فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ**﴾ الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزال راجيا لفضل الله وإحسانه، وبره وامتنانه، فأجابهم إبراهيم بقوله: ﴿**وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ**﴾ الذين لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره، وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى

---

(١) في الحديث الصحيح عن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ» ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ». أخرجه مسلم برقم (٢٦٥٤).

(٢) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٢٩٨).

القنوط إليه؛ لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئا كثيرا، ثم لما بشروه بهذه البشارة، عرف أنهم مرسلون لأمر مهم»[١].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان حكم الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، وبيان بعض الكبائر.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن الأمن من مكر الله أمر مخالف لكمال التوحيد، وإنما أتى بالآية؛ لأن فيها الإشارة إلى أن الآمن من مكر الله خاسر.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أراد رحمه الله أن من أسباب التكذيب للرسل الأمن من مكر الله تعالى، وعدم الخوف منه، وأنَّ الأمن من مكر الله تعالى منافٍ لكمال التوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

عقد المؤلف هذا الباب بعد أن بيّن أن المحبة والخوف من أصول التوحيد فأتى ببيان أن الأمن من مكر الله منافٍ للخوف من الله، واستحضار عظمته، والقنوط من رحمة الله منافٍ للرجاء، والرجاء والخوف والمحبة من أكبر أصول التوحيد وواجباته، والأمن من مكر الله ينافي كمال التوحيد؛ لأن من أمن أساء الأدب، وأتى بما يخالف التوحيد أو يخالف كماله.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

قوله تعالى: **﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾**: أراد المؤلف

(١) ينظر: المصدر الصابق (صـ ٤٣١-٤٣٢).

الاستدلال بها على ذم القنوط من رحمة الله، وأنه ذنب عظيم ينافي كمال التوحيد؛ كما أن الأمن من مكر الله كذلك؛ فلا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمة الله، ولا أن يأمن مكر الله(١).

حديث ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن «الكبائر»، وكذا حديث ابن مسعود، وفيه: «أكبر الكبائر الإشراك بالله»: ذكرهما المصنف لما فيهما من التصريح بأن الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله، واليأس من الله من كبائر الذنوب، وهذا يدل على أنها منقصة للإيمان، وأن هذه روح الأفعال مما ينافي التوحيد.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى مكر الله تعالى:

قال إمام المفسرين ابن جرير رحمه الله في بيان معنى مكر الله: «هو استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم(٢)، يعني: أن الله تعالى يسبغ على العبد نعمه على عصيانه وكفره، ثم يأخذه بغتة وهو لا يشعر.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في بيان معنى مكر الله: «بأسه، ونقمته، وقدرته عليهم، وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم» (٣).

ومكر الله صفة من صفاته المقيدة تثبت لله تعالى على ما جاء من غير تمثيل ولا تعطيل، وهو مكره تعالى بأهل المكر، مقابلة لهم بفعلهم، وجزاء لهم، ومثله الكيد، والخداع، كلها من الصفات المقيدة التي لا تطلق إلا في مقابلة الكائدين والمخادعين، بما تفيد الكمال والعظمة، والعدل والحكمة.

قال ابن القيم رحمه الله: (وكذلك المكر، ينقسم إلى محمود ومذموم. فإن حقيقته إظهار أمر وإخفاء خلافه ليتوصل به إلى مراده.

فمن المحمود: مكره تعالى بأهل المكر، مقابلة لهم بفعلهم، وجزاء لهم بجنس عملهم؛ قال تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ والله خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠] وقال تعالى {وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُون} [النمل: ٥٠] .

---

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» (صـ ١٤٩).
(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٠/٣٣٤) ط هجر.
(٣) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٣/٤٥١) ط طيبة.

وكذلك الكيد ينقسم إلى نوعين. قال تعالى: {وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} [الأعراف: ١٨٣] وقال تعالى: {كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ المَلِكِ إلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ} [يوسف: ٧٦] وقال تعالى {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً وَأَكِيدُ كَيْداً} [الطارق: ١٥-١٦]).[١]

الفقرة الثانية: المكر بمن يستحق كمال وليس نقصًا:

قال ابن القيم: «**وقد قيل:** إن تسمية ذلك مكرًا وكيدًا واستهزاء وخداعًا من باب الاستعارة ومجاز المقابلة نحو: ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا**﴾ [الشورى: ٤٠]، ونحو قوله: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**﴾ [البقرة: ١٩٤]، **وقيل** - وهو أصوب -: بل تسميته بذلك حقيقة على بابه؛ فإن المكر إيصال الشر إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان:

* **قبيح**، وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه.

* **وحسن**، وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له.

فالأول مذموم والثاني ممدوح، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلًا منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب لا كما يفعل الظلمة بعباده.

وأما السيئة فهي فعيلة مما يسوء، ولا ريب أن العقوبة تسوء صاحبها؛ فهي سيئة له حسنة من الحَكَم العدل»[٢].

الفقرة الثالثة: الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته من كبائر الذنوب:

الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله كبيرتان من كبائر الذنوب التي يجب على العبد أن يتوب منها؛ لأن الأمن من مكر الله يفضي إلى التساهل في محارم الله، فمن أمن مكر الله ساءت أعماله، وأخلاقه، وتصرفاته، ولم يخف العظيم القهار الجبار، ولأن القنوط يأس من رحمة الله وسوء ظن بالله الكريم الغفور الشكور، والواجب أن يكون المسلم بين الأمرين: الخوف من الله والرجاء

---

(١) أغاثة اللهفان (٣٨٨/١).

(٢) ينظر: «إعلام الموقعين» (١٥٦/٥) ط مشهور حسن.

منه، فيرجو الله ويخاف ذنوبه ومعاصيه، فلا ينبغي أن يأمن حتى لا تقع إساءة الأدب في جنب الله تعالى، ولا يقنط حتى لا يغلق على نفسه أبواب الطلب والسعي للمغفرة.

الفقرة الرابعة: الأمن من مكر الله يفضي إلى التساهل في المحارم:

إن الأمن من مكر الله يؤدي إلى التساهل في ارتكاب ما حرم الله؛ فمن أمن مكر الله ساءت أعماله، وأخلاقه، وتصرفاته، ولم يخف من الله.

وهذا حال كثير من المرجئة الذين يكتفون بمجرد دعوى الإيمان والتصديق؛ فتراهم في أعمالهم مسيئين، ويقولون: نحن مؤمنون، ندخل الجنة مهما يكن من الأمر، ولم يعيروا عظمة الله أي اعتبار.

فعلى المسلم أن يكون راجيًا، راغبًا، راهبًا، وأن يكون ناظرا إلى ذنوبه، ومتذكرًا شدة عذابه، وأليم عقابه.

الفقرة الخامسة: القنوط من رحمة الله سوء ظن بالله:

إن اليأس من رحمة الله سوء ظن بالله، وهذا لا يليق بالمؤمن، فإن الله تعالى كريم رحيم ودود، رحمن غفور منان، ولا يعظمه أن يغفر جميع ذنوب العبد، والمؤمن الموحد في كل أحواله ملازم للخوف والرجاء، وهذا هو الواجب، وهو الذي ينفع العبد، وبه تحصل السعادة.

الفقرة السادسة: أسباب القنوط من رحمة الله:

للقنوط من رحمة الله أسباب، منها:

١ - إسراف العبد في ارتكاب المعاصي، وكبائر الذنوب، التي تقطع عليه طمعه في رحمة الله؛ لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع رحمة الله، ولا ريب أن العبد إذا تاب فإن الله يغفر كل ما كان، ويبدله إلى حسنات.

٢ - أن يقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم، ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة؛ فيظن أن الله لا يغفر له، ولا يرحمه، ولو تاب، وتضعف

إرادته فييأس عن الرحمة[١].

٣- أن يغلب جانب الخوف، فيصير حروريا خارجيًا؛ فلا ينظر إلى رحمة الله وسعة فضله، فيكون دائمًا في جانب الخوف حتى تغلب عليه، وينسيه ذلك رحمة الله.

الفقرة السابعة: المراد بالكبيرة:

الكبيرة: كل معصية فيها حد في الدنيا؛ كالقتل، والزنا، والسرقة، وشرب الخمر، أو وعيد في الآخرة؛ من عذاب، أو غضب، أو لعنة، أو نفي إيمان، أو برئ الرسول صلى الله عليه وسلم من فاعلها، أو قال: «ليس منا من فعل كذا وكذا»، ونحو ذلك[٢].

وأعظم الكبائر: ما كان مخالفًا للتوحيد وهو الشرك والكفر، ثم البدع الغوية، ثم الذنوب والفسوق الظاهرة السيئة، ثم الصغائر.

والكبائر ليست محصورة في عدد معين؛ فهنا ذكر ثلاث كبائر من باب التنبيه على خطورتها، وفي أحاديث أخر تذكر سبعة؛ لعظمتها، وهذه الكبائر عدها بعضهم وتتبعها كما فعل الحافظ الذهبي والهيتمي رَحِمَهُمَا اللَّهُ.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

وصف ابن القيم حال من تعلقوا بنصوص الرجاء فأمنوا مكر الله تعالى، وهذا الوصف ينطبق على كثير من الناس في هذا العصر، فقال: «... وهذا الضرب من الناس قد تعلّق بنصوص الرَّجاء، واتّكل عليها، وتعلق بها بكلتا يديه، وإذا عوتب على الخطايا والانهماك فيها سرد لك ما يحفظه من سعة رحمة الله ومغفرته ونصوص الرجاء.

وللجهال من هذا الضرب من الناس في هذا الباب غرائب وعجائب، كقول بعضهم:

(١) ينظر: «القول السديد» (صـ ١٢٣).

(٢) ينظ: تفسير الطبري -أثر ابن عباس رضي الله عنهما في تعريف الكبيرة- (٦٥٢/٦)، ومجموع فتاوى ابن تيمية (٦٥٠/١١)، والكبائر وتبيين المحارم للذهبي (ص١٠)، وشرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي (٥٢٥/٢).

وكَثِّرْ ما استطعتَ من الخطايا ... إذا كان القدومُ على كريمِ

وقول الآخر: «التنزّه من الذنوب جهل بسعة عفو الله»! وقول الآخر: تركُ الذنوب جراءة على مغفرة الله، واستصغار لها!

وقال أبو محمَّد ابن حزم: «رأيت بعض هؤلاء يقول في دعائه: اللهم إنّي أعوذ بك من العصمة»!

ومن هؤلاء المغرورين من يتعلق بمسألة الجبر، وأن العبد لا فعل له البتة ولا اختيار، وإنما هو مجبور على فعل المعاصي.

ومن هؤلاء من يغتر بمسألة الإرجاء، وأنّ الإيمان هو مجرد التصديق، والأعمال ليست من الإيمان، وإيمان أفسق الناس كإيمان جبريل وميكائيل.

ومن هؤلاء من يغتر بمحبة الفقراء والمشايخ والصالحين، وكثرة التردد إلى قبورهم، والتضرّع إليهم، والاستشفاع بهم، والتوسل إلى الله بهم، وسؤاله بحقّهم عليه وحرمتهم عنده.

ومنهم من يغتر بآبائه وأسلافه، وأن لهم عند الله مكانة وصلاحًا، فلا يدَعون أن يُخلِّصوه، كما يشاهد في حضرة الملوك، فإنّ الملوك تهَبُ لخواصّهم ذنوبَ أبنائهم وأقاربهم، وإذا وقع أحد منهم في أمر مفظع خلّصه أبوه وجدّه بجاهه ومنزلته.

ومنهم من يغتر بأن الله عَزَّ وَجَلَّ غنى عن عذابه، وأنّ عذابه لا يزيد في ملكه شيئًا، ورحمته له لا ينقص من ملكه شيئًا، فيقول: أنا مضطرّ إلى رحمته، وهو أغنى الأغنياء، ولو أن فقيرًا مسكينًا مضطرًّا إلى شربة ماء، عند مَن في داره شط يجري، لَما منعه منها؛ فالله أكرم وأوسع، فالمغفرة لا تنقصه شيئًا، والعقوبة لا تزيد في ملكه شيئًا.

ومنهم من يغترّ بفهم فاسد فهِمَه هو وأضرابه من نصوص القرآن والسنة، فاتكلوا عليه، كاتكال بعضهم على قوله تعالى: **{وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}** [الضحى: ٥]، قالوا: وهو لا يرضى أن يكون في النار أحد من أمته! وهذا من أقبح الجهل، وأبين الكذب عليه. فإنّه يرضى بما يُرضي ربَّه عز وجل، والله تعالى يُرضيه تعذيبُ الظلَمة والفسَقة والخوَنة والمصرّين على الكبائر، فحاشا رسولَه أن لا يرضى مما يرضى به ربه تبارك وتعالى.

وكاتكال بعضهم على قوله تعالى: **{إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}** [الزمر:٥٣]، وهذا أيضًا من أقبح الجهل، فإن الشرك داخل في هذه الآية، فإنّه

رأس الذنوب وأساسها، ولا خلاف أنّ هذه الآية في حق التائبين، فإنّه يغفر كل ذنب للتائب، أي ذنب كان، ولو كانت الآية في حق غير التائبين لبطلت نصوص الوعيد كلّها، وأحاديث إخراج قوم من الموحدين من النار بالشفاعة.

وهذا إنما أُتِيَ صاحبُه من قلّة علمه وفهمه، فإنه سبحانه ههنا عمّم وأطلق فعُلِمَ أنه أراد التائبين، وفي سورة النساء خصّص وقيّد، فقال: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** [النساء: ٤٨]، فأخبر سبحانه أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه. ولو كان هذا في حقّ التائب لم يفرّق بين الشرك وغيره.

وكاغترار بعض الجهال بقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾** [الانفطار: ٦]، فيقول: كَرَمُه! وقد يقول بعضهم: إنّه لقّن المغترَّ حجتَه، وهذا جهل قبيح، وإنما غرّه بربّه الغرورُ -وهو الشيطان- ونفسُه الأمّارة بالسوء، وجهلُه، وهواه.

وأتى سبحانه بلفظ «الكريم»، وهو السيّد العظيم المطاع الذي لا ينبغي الاغترار به ولا إهمال حقّه، فوضع هذا المغترُّ الغرورَ في غير موضعه، واغترّ بمن لا ينبغي الاغترار به، ...»[1].

---

(١) ينظر: «الداء والدواء» لابن القيم (صـ ٣٨-٤٢) ط عالم الفوائد، وهناك أمثلة أخرى.

٣٥- باب من الإيمان الصبر على أقدار الله

١- وقول الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾(١).

٢- قال علقمة: "هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم"(٢).

٣- وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**»(٣).

٤- ولهما عن ابن مسعود مرفوعًا: «**ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**»(٤).

٥- وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة**»(٥).

٦- وقال النبي ﷺ: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**» حسنه الترمذي(٦).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.

الثالثة: الطعن في النسب.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب، ودعا بدعوى

---

(١) التغابن: ١١.
(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٣٢٢٧)، والطبري في «تفسيره» (١٢/٢٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٥٠٣).
(٣) رواه مسلم (٦٧).
(٤) رواه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣).
(٥) رواه الترمذي (٢٣٩٦) وحسنه، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٢٢٠).
(٦)رواه الترمذي (٢٣٩٦) وحسنه، وابن ماجه (٤٠٣١)، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٤٦).

الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة: علامة إرادة الله به الشر.

السابعة: علامة حب الله للعبد.

الثامنة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله:

أما الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصيته، فهو ظاهر لكل أحد أنهما من الإيمان، بل هما أساسه وفرعه، فإن الإيمان كله صبر على ما يحبه الله ويرضاه ويقرب إليه، وصبر عن محارم الله، فإن الدين يدور على ثلاثة أصول: تصديق خبر الله ورسوله، وامتثال أمر الله ورسوله، واجتناب نهيهما، فالصبر على أقدار الله المؤلمة داخل في هذا العموم، ولكن خص بالذكر لشدة الحاجة إلى معرفته والعمل به، فإن العبد متى علم أن المصيبة بإذن الله، وأن لله أَتَمَّ الحكمة في تقديرها، وله النعمة السابغة في تقديرها على العبد رضي بقضاء الله، وسلم لأمره وصبر على المكاره، تقربًا إلى الله، ورجاء لثوابه، وخوفًا من عقابه، واغتنامًا لأفضل الأخلاق، فاطمأن قلبه وقوي إيمانه وتوحيده.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١].

قال السعدي: «يقول تعالى: **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾** هذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد، فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله تعالى، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر

الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري لمن لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يخذل، ويكله الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر، هذا ما يتعلق بقوله: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن أي: الإيمان المأمور به، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من القيام بلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله، وأفعاله وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار: أن المؤمنين يثبتهم الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾ [إبراهيم:٢٧]، فأهل الإيمان أهدى الناس قلوبًا، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان»[(١)].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

أراد المؤلف أن يبين به أن الصبر على أقدار الله من الإيمان، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يجزع عند المصيبة في نفسه، أو ولده، أو ماله، أو أهله، بل يتحمل.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٨٦٧).

هذا باب في بيان أن الصبر على ما يقدره الله تعالى من الإيمان.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

غرض المصنف من هذا الباب بيان أن الصبر على القدر من الإيمان، وأن الجزع مخالف للإيمان، ومنقص للتوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لا زال المصنف يبين الأبواب التي تبين بعض الأمور القلبية التي هي من الإيمان، ومن واجبات التوحيد، أو من كماله الواجب، وذكر في هذا الباب أمرًا قلبيًّا وظاهريًا، وهو الصبر، فلا ينبغي لمؤمن الأمن من مكر الله، بل عليه أن يصبر نفسه على طاعة الله، وأقداره، حتى يأتيه الأجل وهو صابر محتسب.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: أراد المؤلف أن الآية تدل على أن الصبر على المصيبة سبب لهداية القلوب، وطمأنينتها.

وأما الحديث الأول: «اثنتان في الناس هما بهم كفر»: أورده لما فيه من ذم النياحة، وأنها من أفعال أهل الكفر، وأن النياحة دليل على التسخط على أقدار الله تعالى.

الحديث الثاني: «ليس منا من ضرب الخدود»: ذكره للدلالة على أن الصبر على المقدور من الإيمان؛ وأن الأفعال التي تخالف حال أهل الإيمان تنقص التوحيد.

الحديث الثالث: «إذا أراد الله بعبده الخير»: استشهد به لما فيه أن المؤمن مبتلى، وأن من صبر على الابتلاء أجر، ومن سخط وزر.

الحديث الرابع: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»: أورده لما فيه من الوعيد لمن لم يصبر على المقدور، ولما فيه من الوعد لمن صبر على المقدور.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى الصبر، ومنزلته من الإيمان، وأنواعه، وحكمه:

الصبر في اللغة: الحبس والمنع؛ والإمساك؛ يقال: صبرت نفسي على أمر: أي حبستها، وصبَّرت الدابة: حبستها بلا علف [١].

وفي الشرع: حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود، وشق الجيوب، ونحوهما عند المصيبة، وهو ثبات القلب على الأحكام القدرية والشرعية[٢].

أو هو حبس النفس على طاعة الله، وحبسها عن معصية الله، وحبسها عن التسخط من أقدار الله[٣].

والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وله أهمية بالغة في الإيمان؛ حت قال بعض السلف: (الصبر نصف الإيمان)[٤].

قال الإمام أحمد رحمه الله: «ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن»[٥].

والصبر ثلاثة أنواع:

١ – صبر على ما أمر الله به.

٢ - وصبر عن ما نهى الله عنه.

٣- وصبر على ما قدره الله من المصائب.

وحكم الصبر: الوجوب، وأعلى منه مرتبة هو الرضا بقضاء الله وقدره، فالصبر على المصائب واجب ، والرضا بالمصائب فضيلة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأعلى من ذلك -أي: من الرضا-

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (١٧٠/١٢)، ومقاييس اللغة لابن فارس (٣٢٩/٣).

(٢) ينظر: «الروح» لابن القيم (صـ ٢٤١).

(٣) ينظر: «مجموع رسائل وفتاوى ابن عثيمين» (١٢/٦).

(٤) ينظر: «تفسير الطبير» (٥٧٨/١٨).

(٥) نقله ابن القيم في مدارج السالكين (١٣٠/١).

أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها»[(١)].

الفقرة الثانية: ثمرة الصبر على أقدار الله تعالى:

إن للصبر في الدنيا والآخرة ثمرات كثيرة، وفوائد عميمة، ومنها:

١ - أن الصبر سبب لهداية القلوب وطمأنينتها.

٢- أن الله تعالى يصلى على الصابرين وهذه مرتبة عالية، ومنزلة رفيعة، قال الله تعالى: ﴿**وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

٣- أن الله يعوض العبد الصابر عما فاته من الدنيا وعما أصابه.

٤ - وأما في الآخرة فإن الصبر ثوابه الجنة، قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر : ١٠].

الفقرة الثالثة: حكم الطعن في الأنساب:

إن الطعن في الأنساب، أي: التنقص فيها تكبرًا، وتعاظمًا على الناس، واحتقارًا لهم؛ فهذا من أعمال أهل الكفر، وشعبة من شعب الكفر، وهو كفر دون كفر، فهو من الكفر الأصغر، وهو من خصائص أهل الجاهلية[(٢)].

الفقرة الرابعة: حكم النياحة على الميت:

النياحة على الميت من أعمال أهل الجاهلية وهو رفع الصوت بالصياح والبكاء، فلا يجوز، أما دمع العين وهو البكاء من غير صياح ولا صوت فلا بأس به، كما دل عليه قول النبي ﷺ: «**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا**»[(٣)].

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٢٦٠).
(٢) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ١٨٠).
(٣)رواه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

الفقرة الخامسة: ضرب الخدود وشق الجيوب من أعمال الجاهلية:

ضرب الخدود أو لطمها جزعاً على الميت لا يجوز، وخص الخد بذلك لكونه الغالب، وجرت به العادة، وإلا فضرب بقية البدن مثله، وكذا شق جيب الثوب جزعاً على الميت، أو المصيبة، حرام لا يجوز، وهو من عادات أهل الجاهلية، وكذا لو شق أي مكان من الثوب من غير الجيب؛ فحكمه لا يختلف.

ودعوى الجاهلية: ندب الميت والدعاء بالويل والثبور، وكذلك الدعاء إلى القبلية والعصبية للأنساب، ومثله التعصب للمذاهب، والطوائف، والمشايخ والأحزاب.

الفقرة السادسة: الأعمال المنافية للصبر على أقدار الله تعالى:

١. النياحة على الميت، وهو رفع الصوت بالصياح.

٢. لطم الخدود جزعاً على الميت وتسخطاً.

٣. شق الجيوب وفتحها.

٤. الدعاء بالويل والثبور.

٥. الأقوال التي تنبيء عن الجزع كقول بعض الجهلة لماذا أبتلى أنـا!! ونحو ذلك من العبارات التي تنبيء عن سوء الطوية، وخبث النية.

وهذه الأعمال تدل على الجزع، وتخرج الإنسان عن الصبر، وهذه من أعمال الجاهلية، فيجب الصبر والثبات والعلم بأن الله قدر هذه الأقدار وقسمها.

الفقرة السابعة: علامة إرادة الله بعبده الخير أو الشر:

من علامات إرادة الله الخير بعبده معاجلته بالعقوبة على ذنوبه في الدنيا، حتى يخرج منها وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة؛ لأن من حوسب عاجلًا خف جزاؤه في الآجل.

ومن علامات إرادة الشر بالعبد أن لا يجازى بذنبه في الدنيا، حتى يجيء يوم القيامة كثير الذنوب، فيجازى بما يستحقه يوم القيامة.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

الأصل عند وقوع المصائب استحضار وجوب الصبر، واعتقاد تمام حكمة الله في أقداره، ويجب على من حول صاحب المصيبة مواساته وإعانته على الصبر، ولكن الواقع خلاف ذلك في بعض المجتمعات، فإنهم يعينون صاحب المصيبة على الجزع والتسخط، يقول الشيخ علي محفوظ:

«... ومن ذلك بدعة الإسعاد، وهي من عوائد الجاهلية في مآتمهم، وقد نهى عنها الدين الحنيف، ولكنها أُعيدت هذه الأزمان وانتشرت بين النساء حتى صارت من السنن المألوفة، فتراهن يسرعن لمساعدة صاحبة الميت في النوح والبكاء، ولا يعرفن في التعزية غرضًا سوى ذلك، وتصير المساعدة دَينًا في ذمة المرأة المصابة ترى وجوب تأديته لكل من ساعدها، وذلك محظور ينهى عنه الشارع»[١].

(١) ينظر: «الإبداع في مضار الابتداع» (صـ ٢٢١).

٣٦- باب ما جاء في الرياء

١- وقول الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾(1).

٢- وعن أبي هريرة مرفوعا: قال الله تعالى: «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**» رواه مسلم(2).

٣- وعن أبي سعيد مرفوعًا: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**» قالوا: بلى. قال: «**الشرك الخفي: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته، لما يرى من نظر رجل**» رواه أحمد(3).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى.

الرابعة: أن من الأسباب أنه خير الشركاء.

الخامسة: خوف النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه من الرياء.

السادسة: أنه فسر ذلك بأن المرء يصلي لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل.

(سيأتي تعليق السعدي في «القول السديد» على هذا الباب في الباب التالي)

---

(١) الكهف: ١١٠.
(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).
(٣) رواه أحمد في «مسند» (١١٢٥٢)، وابن ماجه (٤٢٠٤)، وحسنه البوصيري في «الزوائد»، وكذلك حسنه الألباني.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ...﴾ [الكهف:١١٠].

قال السعدي: «قل يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**﴾ أي: لست بإله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله، ﴿**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**﴾ عبد من عبيد ربي ﴿**يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ**﴾ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحيه الله إليّ، الذي أجلّه الإخبار لكم: أنما إلهكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه؛ ولهذا قال: ﴿**فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا**﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب، ﴿**وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ أي: لا يرائي بعمله بل يعمله خالصًا لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة»[١].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو التحذير من الرياء، وهو ترك الإخلاص في العمل.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في التحذير من العمل أو تحسينه لأجل الناس، وهو الرياء، وأنه مخالف للتوحيد.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف هذا الباب لأجل التحذير من الرياء، والتحذير من كل عمل لا يخلص لله فيه، فهو نوع من الشرك الخفي المنافي للتوحيد.

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٤٨٩).

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لا زال المصنف في صدد بيان منقصات التوحيد، ومن ضمن ذلك الرياء؛ فمناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد: أنّ فيه بيان نوع من أنواع الشرك الأصغر، وذلك أن هذا الكتاب صنّفه الشيخ رحمه الله في بيان التّوحيد وبيان ما يضادُّه من الشرك الأكبر أو ينقِّصه من الشرك الأصغر(١).

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ... ﴾: أراد المؤلف أن الآية تدل على أن السعادة والخير والفلاح في لقاء الله، وأن لقاء الله يحصل بالعمل الصالح الخالص من الرياء والسمعة، وأن العمل الصالح مردود إذا دخله شيء من الشرك والرياء(٢).

الحديث الثاني: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك»: أورده لما فيه من الدلالة على أن الله غني عن المشاركة، وأن لا ثواب للمرائي في عمله، بل يأثم على ذلك(٣).

الحديث الثالث: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي»: بين المؤلف بإيراده لهذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خاف على أصحابه من الرياء أكثر من فتنة الدجال؛ لأن الدجال يمكن أن يُعرف، لكن الشرك الخفي أشد منه؛ لأنه يكون خفيا في القلب.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: إخلاص العمل لله أساس الدين:

الإخلاص لله أساس الدين، وروح التوحيد والعبادة، وهو أن يقصد العبد وجه الله وثوابه وفضله؛ فيقوم بأصول الإيمان الستة، وشرائع الإسلام الخمس،

---

(١) ينظر: «إعانة المستفيد» لصالح الفوزان (٢/٨٩).

(٢) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» (صـ ١٥٧).

(٣) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٩٥).

وحقائق الإيمان، ومنها: الإحسان وبحقوق الله، وحقوق عباده، مكملا لها قاصدًا بها وجه الله والدار الآخرة، لا يريد بذلك رياء، ولا سمعة، ولا رياسة، ولا دنيا، وبذلك يكمل إيمانه وتوحيده.

قال ابن القيم رحمه الله: «كما أنه إله واحد لا إله سواه؛ فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده؛ فكما تفرد بالإلهية يجب أن يُفرد بالعبودية؛ فالعمل الصالح هو الخالي من الرياء المقيد بالسنة، وكان من دعاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا»[١]، ...»[٢].

الفقرة الثانية: الرياء معناه وحكمه:

الرياء مأخوذ من الرؤية، يقال: تراءى الجمعان: رأى بعضهم بعضا، وفلان مني بمرأى ومسمع، أي حيث أراه وأسمع[٣].

وشرعا: الرياء هو أن يتظاهر الإنسان بالأعمال الصالحة ليحمده الناس، وقد يُبتلى به الصلحاء.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في تعريفه: (إظهار العبادة لقصد رؤية الناس فيحمدوا صاحبها)[٤].

حكمه: يسير الرياء محرم، وهو شرك أصغر، وقد خافه النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه مع كمال إيمانهم؛ لأنه أكثر موافقة للنفس، ومحبة عندها، وأسهل للنفوذ إليها، فإذا كان الشرك الأصغر مخوفًا على الصحابة مع كمال إيمانهم فينبغي لك أيها المسلم أن تخاف من الشرك الأكبر والأصغر، وتعمل على تحقيق إيمانك.

قال ابن القيم رحمه الله: (وأما الشرك الأصغر، فكيسير الرياء، والتصنع للخلق).

وأما الرياء المحض الكثير، فهذا من النفاق الأكبر، المخرج من ملة الإسلام، الذي قال الله تعالى في أصحابه: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ

---

(١) رواه أحمد في «الزهد» (٦١٧).
(٢) ينظر: «الداء والدواء» لابن القيم (صـ ٣٠٣) ط عالم الفوائد.
(٣) ينظر: الصحاح للجوهري (١٩٨/٦)، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب (ص٣٧٥).
(٤) فتح الباري (٣٤٤/١١).

خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢)} [النساء: ١٤٢]

الفقرة الثالثة: أصناف المرائين:

أصناف المرائين ثلاثة: وهم: المجاهد المرائي، والعالم المرائي، والسخي المرائي، ويجدر بنا أن نذكر هذا الحديث لما فيه من العبرة البالغة، والموعظة الحسنة، والنكال العظيم للمرائين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن أول الناس يقضى عليه يوم القيامة: رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمته فعرفها، فقال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت ولكن قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.**

ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: إنك عالم،

وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله؛ فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد، فقد قيل ثم أمر فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار»(١).

الفقرة الرابعة: الفرق بين الرياء والسمعة:

الرياء يكون فيما يُرى من الأعمال، ويسمع من الأقوال، وأما السمعة فإنما يكون في العمل يعمله الإنسان، ويكون خافيًا، ولا يعلم به أحد، ثم يُحدّث به، أو يتمنى إطلاع الناس عليه، فيود سماع الناس بأعماله(٢).

الفقرة الخامسة: علاج الرياء:

---

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٢) ينظر: تيسير العزيز الحميد (ص٥٢٥).

الرياء آفة عظيمة تحتاج إلى معالجة شديدة، ومن ضمن هذا العلاج:

١ - تمرين النفس على الإخلاص لله وحده.

٢ - مجاهدة النفس في مدافعة خواطر الرياء ووساوس الشيطان.

٣- تذكر العبد بأن الناس الذين يرائيهم لا يملكون له ضرًّا ولا نفعًا.

٤ - الاستعانة بالله على دفع الرياء.

الفقرة السادسة: كمال غنى الرب:

إن كان سبحانه وتعالى هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته؛ لذا فلا يقبل الله عملًا فيه شرك، ومن الشرك الرياء، لذا فإن الرياء في العبادة لا يليق بغنى الله وكرمه المطلق؛ فلهذا لا يقبل الله تعالى من المرائين أعمالهم.

الفقرة السابعة: خوف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من الشرك الخفي:

خاف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من فتنة الشرك الخفي - الرياء - أعظم من خوفه من فتنة الدجال، فالدجال يمكن أن يعرف بعلامات، لكن الشرك الخفي أشد منه؛ لأنه يكون في القلوب، ولا يطلع عليه الناس، وكذلك لما فيه من قوة الدافع إليه، وصعوبة التخلص منه، وهذا الخوف من النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من تمام شفقته صلى الله عليه وسلم بهم، ونصحه لهم.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

قال محمد تقي الدين الهلالي: «هناك طائفة في هذا الزمان ممن يدعون العلم - أو يُدَّعى لهم - يداهنون المشركين ويحاولون التستر عليهم، فإذا رأوهم يدعون غير الله لجلب الخير أو دفع الشر، ويذبحون على القبور ويستغيثون بأهلها، وينذرون لهم، ويهتفون بأسمائهم في قيامهم وقعودهم عند فزعهم؛ سكتوا عنهم، ولم ينبهوهم، حتى إذا جاء داعٍ من أهل الحق ودعاهم، وأخبرهم أن ما هم عليه من الشرك الأكبر الذي يخرجٍ من الملة؛ أحب ذلك المتعالم أن يدافع عن المشركين ويظهر العطف عليهم، ويقول للداعي: إن التكفير أمر عظيم،

وهؤلاء جاهلون ولا يقصدون بأعمالهم عبادة غير الله -تعالى-.

فإذا قال له الداعي: أنا ما كفّرتهم وإنما أخبرتهم أن هذا الذي يعملونه شرك وكفر، يجب عليهم أن يتوبوا منه، فقال المتعالم: وهذا - أيضًا - لا ينبغي؛ قل لهم هذا حرام، وتلطف معهم في القول.

وهذا المتعالم إنما يقول ذلك لجهل أو نفاق، فإما أن يكون جاهلًا لا يعرف التوحيد بأدلته من الكتاب والسنة، أو يكون عالمًا به ولكنه يتبع أهواء المشركين، وما أكثر هذا الصنف في هذا الزمان - لا كثَّرهم الله-، والواجب على من أكرمه الله بالعلم أن يصدع به».

٣٧- باب إرادة الإنسان بعمله الدنيا

١- وقول الله تعالى: ﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[١].

٢- في «الصحيح» عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع**»[٢].

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أُعطي رضي وإن لم يعط سخط.

الخامسة: قوله: «**تعس وانتكس**».

السادسة: قوله: «**وإذا شيك فلا انتقش**».

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا:

اعلم أن الإخلاص لله أساس الدين، وروح التوحيد والعبادة، وهو أن يقصد العبد بعمله كله وجه الله وثوابه وفضله، فيقوم بأصول الإيمان الستة وشرائع

---

(١) هود: ١٥-١٦.
(٢) رواه البخاري (٢٨٨٧).

الإسلام الخمس، وحقائق الإيمان التي هي الإحسان، وبحقوق الله، وحقوق عباده، مكملا لها قاصدا بها وجه الله والدار الآخرة، لا يريد بذلك رياء ولا سمعة ولا رياسة، ولا دنيا، وبذلك يتم إيمانه وتوحيده، ومن أعظم ما ينافي هذا مراءاة الناس والعمل لأجل مدحهم وتعظيمهم، أو العمل لأجل الدنيا، فهذا يقدح في الإخلاص والتوحيد.

واعلم أن الرياء فيه تفصيل: فإن كان الحامل للعبد على العمل قصد مراءاة الناس، واستمر على هذا القصد الفاسد، فعمله حابط وهو شرك أصغر، ويخشى أن يتذرع به إلى الشرك الأكبر.

وإن كان الحامل على العمل إرادة وجه الله مع إرادة مراءاة الناس، ولم يقلع عن الرياء بعمله، فظاهر النصوص أيضا بطلان هذا العمل.

وإن كان الحامل للعبد على العمل وجه الله وحده، ولكن عرض له الرياء في أثناء عمله، فإن دفعه وخلص إخلاصه لله لم يضره، وإن ساكنه واطمأن إليه نقص العمل، وحصل لصاحبه من ضعف الإيمان والإخلاص بحسب ما قام في قلبه من الرياء، وتقاوم العمل لله وما خالطه من شائبة الرياء.

والرياء آفة عظيمة، ويحتاج إلى علاج شديد، وتمرين النفس على الإخلاص، ومجاهدتها في مدافعة خواطر الرياء والأغراض الضارة، والاستعانة بالله على دفعها لعل الله يخلص إيمان العبد ويحقق توحيده.

وأما العمل لأجل الدنيا وتحصيل أغراضها، فإن كانت إرادة العبد كلها لهذا المقصد، ولم يكن له إرادة لوجه الله والدار الآخرة، فهذا ليس له في الآخرة من نصيب، وهذا العمل على هذا الوصف لا يصدر من مؤمن؛ فإن المؤمن ولو كان ضعيف الإيمان، لا بد أن يريد الله والدار الآخرة.

وأما من عمل العمل لوجه الله ولأجل الدنيا، والقصدان متساويان أو متقاربان، فهذا وإن كان مؤمنا فإنه ناقص الإيمان والتوحيد والإخلاص، وعمله ناقص لفقده كمال الإخلاص.

وأما من عمل لله وحده وأخلص في عمله إخلاصا تاما، ولكنه يأخذ على عمله جُعلا ومعلوما يستعين به على العمل والدين، كالجعالات التي تجعل على أعمال الخير، وكالمجاهد الذي يترتب على جهاده غنيمة أو رزق، وكالأوقاف التي تجعل على المساجد والمدارس والوظائف الدينية لمن يقوم بها، فهذا لا يضر أخذه في إيمان العبد وتوحيده لكونه لم يرد بعمله الدنيا، وإنما أراد الدين وقصد أن يكون ما حصل له معينا له على قيام الدين؛ ولهذا جعل الله في الأموال

الشرعية كالزكوات وأموال الفيء وغيرها جزءا كبيرا لمن يقوم بالوظائف الدينية والدنيوية النافعة، كما قد عرف تفاصيل ذلك.

فهذا التفصيل يبين لك حكم هذه المسألة كبيرة الشأن، ويوجب لك أن تنزل الأمور منازلها والله أعلم.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود:١٥-١٦].

قال السعدي: «﴿**مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا**﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة، من الذهب، والفضة، والخيل المسومة، والأنعام والحرث، قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئا، فهذا لا يكون إلا كافرا، لأنه لو كان مؤمنا، لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال أثر من آثار إرادته الدار الآخرة، ولكن هذا الشقي، الذي كأنه خلق للدنيا وحدها ﴿**نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا**﴾ أي: نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا ﴿**وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ**﴾ أي: لا ينقصون شيئا مما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلا النَّارُ**﴾ خالدين فيها أبدا، لا يفتَّر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب ﴿**وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا**﴾ أي: في الدنيا، أي: بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان»[(١)].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٣٧٨).

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

ذكر بعض النصوص الدالة على حكم من أراد بعمله الدنيا.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن من عمل وأراد بعمله الدنيا فإنه قد أتى بالشرك؛ لأنه لم يرد بعمله الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

قصد المصنف من هذا الباب أن يبين أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد، ويحبط الأعمال، وقد يكون أكبر، وقد يكون أصغر.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أن الرياء والعمل لأجل الناس محبط للعمل، عقد هذا الباب ليبين أن العمل لأجل الدنيا كذلك شرك ينافي كمال التوحيد الواجب ويحبط العمل.

وقد ظن بعض الناس أن هذا الباب داخل في الرياء، وأن هذا مجرد تكرير فأخطأ، بل المراد بهذا أن يعمل الإنسان عملاً صالحًا يريد به الدنيا كالذي يجاهد للقطيفة والخميلة ونحو ذلك، بخلاف المرائي، فإنه إنما يعمل ليراه الناس ويعظموه، والذي يعمل لأجل الدراهم والقطيفة ونحو ذلك أعقل من المرائي، لأن ذلك عمل لدنيا يصيبها. والمرائي عمل لأجل المدح، والجلالة في أعين الناس، وكلاهما خاسر نعوذ بالله من موجبات غضبه، وأليم عقابه[١].

وقد يقال: بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء كما تقدم بيانه، كحال المنافقين. وهو أيضا إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام. ويفارق الرياء بكونه عمل عملا صالحا، أراد به عرضا من

---

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (صـ ٤٦١).

الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالا، كما في الحديث(١).

الفقرة الرابعة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ... ﴾: أراد المؤلف الاستدلال بها على

ما فيها من الوعيد الشديد لمن قصد بعمله الدنيا، ففيها التصريح بأن عمله حابط، وأن مصيره إلى النار(٢).

وأما الحديث الأول: «تعس عبد الدينار»: ذكره المصنف لبيان أن العمل الصالح إذا كان القصد منه طلب الدنيا محضًا؛ فهو شرك ينافي التوحيد(٣)، وفي الحديث دليل على أن الشخص قد يكون عبدًا لمتاع الدنيا.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: أقسام العاملين في طلبهم لعمل الآخرة:

الذي يعمل في الدنيا عمل الآخرة على أربعة أقسام: **أحدها:** أن يعمل الخير خالصا لوجه الله، لكنه يرجو من الله أن يثيبه عليه في الدنيا، كالذي يتصدق لأجل حفظ ماله، وهذا القسم محرم.

الثاني: عمل الخير رياء الناس وسمعتهم، وهذا القسم شرك بالله.

الثالث: أن يعمل الخير لأجل كسب مادي من الناس، مثل الذي يحج لكي يأخذ مالًا على الحجة لا من أجل الله تعالى، أو الذي يتصف بالدين والصلاح لأجل أن يعين في وظيفة دينية لا من أجل الله، وهذا القسم شرك بالله؛ لأنه قصد بعمله غير وجه الله.

الرابع: من أراد بعمله وجه الله، لكن حصل له شيء من الدنيا فأخذه؛ فهذا لا إثم عليه، وينقص أجره بقدر ما أخذ من الدنيا، كالذي يجاهد من أجل الله ويأخذ الغنيمة.

---

(١) ينظر: «فتح المجيد» (صـ ٣٧٢).

(٢) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» (صـ ١٥٩).

(٣) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٦٨).

الفقرة الثانية: عاقبة من أراد بعمله الدنيا دون الآخرة:

١ - الشقاء والخسارة في الدنيا والآخرة نتيجة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: «**تعس عبد الدينار**»، أي: خاب وخسر عبد الدينار والدنيا وطالبها.

٢ - أن من ضعفت همته وقصر نظره، وأراد على أعماله الصالحة جزاء دنيويًا فإن الله سبحانه سيجزيه عليها في هذه الحياة العاجلة، ولا يبقى معه في الآخرة شيء من ثواب أعماله.

٣- أن كل ما كان ظاهره عملا صالحًا وقصد به شيء من الأمور الدنيوية أنه حابط، إذ إن كل عمل لا يقصد به وجه الله فهو باطل.

٤- أن أصحاب هذه الأعمال التي فيها الرياء أو التي عملت للدنيا مآلهم إلى النار.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

قال ابن عابدين الشامي: «ثم اعلم أن من الرياء: التلاوة ونحوها بالأجرة؛ لأنه أريد بها غير وجه الله تعالى وهو المال؛ ولذا قالوا: إنه لا ثواب بها لا للقارئ ولا للميت، والآخذ والمعطي آثمان، وقالوا أيضًا: إن من نوى الحج والتجارة لا ثواب له إن كانت نيته التجارة غالبة أو مساوية، واختار هذا التفصيل الإمام الغزالي أيضًا وغيره من الشافعية، واختار منهم العز بن عبد السلام عدم الثواب مطلقًا»[1].

وقال المفسر الآلوسي -مفتي الحنفية ببغداد- في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]: «ويدخل في العموم قراءة القرآن للموتى بالأجرة؛ فلا ثواب فيها للميت ولا للقارئ أصلًا، وقد عمت البلوى بذلك، والناس عنه غافلون، وإذا نبهوا لا ينتبهون، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون»[2].

(١) ينظر: «رد المحتار» (٤٢٠/٥).
(٢) ينظر: «روح المعاني» (٥٥/١٦).

٣٨- باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحلَّ الله أو تَحليل ما حرّمه فقد اتخذهم أربابًا

١- وقال ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون: قال أبو بكر وعمر»[(١)].

٢- وقال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[(٢)] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك[(٣)].

٣- وعن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[(٤)]. فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. قال: «**أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه**». فقلت: بلى. قال: «**فتلك عبادتهم**»[(٥)] رواه أحمد والترمذي وحسّنه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور.

الثانية: تفسير آية براءة.

---

(١) لم أقف على هذا اللفظ من أثر ابن عباس رضي الله عنهم في متون الحديث، وقد نبه بعض أهل العلم أنه لا وجود لهذا اللفظ ذكر في كتب السنة. ينظر: الدر النضيد في تخريج كتاب التوحيد لصالح العصيمي (ص١٢٩). وإنما ورد بألفاظ منها: قول ابن عباس رضي الله عنه: «أراهم سيهلكون! أقول قال النبي صلى الله عليه وسلم ويقول نهى أبو بكر وعمر». كما عند أحمد في المسند (٢٢٨/٥)، برقم (٣١٢١)، وابن حزم في حجة الوداع (ص٣٥٢) برقم (٣٩١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٢١٠/٢) برقم (٢٣٨٧)

ولفظ آخر قوله رضي الله عنهما: «والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله، أحدثكم عن رسول الله صلى الله علَيه وسلم وتحدّثوننا عن أبي بكر، وعمر». كما عند ابن حزم في حجة الوداع (ص٣٥٣) برقم (٣٩١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٢٠٩/٢) برقم (٢٣٧٧).

(٢) النور: ٦٣.

(٣) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى (٢٦٠/١) برقم (٦٧).

(٤) التوبة: ٣١.

(٥) رواه الترمذي (٣٠٩٥)، ولم أقف عليه في «مسند الإمام أحمد»، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩٢/١٧) برقم (٢١٨)، والبيهقي في المدخل (ص٢٠٩) برقم (٢٦١)، وحسنه شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (٦٧/٧)، وحسنه الألباني كما في تعليقاتهم على سنن الترمذي (٢٧٨/٥).

الثالثة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

الخامسة: تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال وتسمى الولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه، ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

(يأتي تعليق السعدي في القول السديد على هذا الباب في الباب التالي)

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور:٦٣].

قال السعدي: «لما مدح المؤمنين بالله ورسوله، الذين إذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه، توعد من لم يفعل ذلك وذهب من غير استئذان، فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه خفي، وهو المراد بقوله: ﴿**يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا**﴾ أي: يلوذون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون، فالله يعلمهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء؛ ولهذا توعدهم بقوله: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ**﴾ أي: يذهبون إلى بعض شئونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شئونه؟ وإنما ترك أمر الله من دون شغل له، ﴿**أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ**﴾ أي: شرك وشر ﴿**أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾»[1].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

التحذير من تقليد العلماء والأمراء فيما يخالف شرع الله؛ فالواجب على المسلمين أن يعظموا ما شرعه من الدين، وما أحل الله فهو الحلال، وما حرم الله

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٥٧٦).

فهو الحرام، وهذا هو الدين؛ فالعبد يتعبد بـ«قال الله، وقال رسول الله»، وما سوى ذلك فليس من الدين.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن التحليل والتحريم، إنما هو من خصائص الرب عَزَّوَجَلَّ، ومن اعتقد أن للأمراء أو العلماء أن يحرموا أو يحللوا فقد اتخذهم آلهة، وهو شرك في الربوبية، وأن الطاعة المطلقة تكون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وطاعة غيره مشروطة بأن تكون طاعة الله.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أراد المؤلف من عقد هذا الباب تحقيق التوحيد واتباع الشريعة، وتعظيم أمر الله ونهيه، والحذر من طاعة الأمراء والعلماء فيما يخالف شرع الله، وأن طاعتهم في تحريم الحلال وتحليل الحرام شرك.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لا زال المصنف في صدد بيان نواقض التوحيد، ونواقصه؛ فطاعة الأمراء والعلماء في التحليل والتحريم من نواقض التوحيد، لأن الطاعة الاستقلالية أو المطلقة نوع من أنواع العبادة، فيجب إفراد الله تعالى بها.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

قول ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة»: أورده المصنف لما فيه من الإنكار على مَن لم يكتفِ بالحجة من القرآن والسنة من هذا الصحابي الجليل رضي الله عنه، وأن الواجب اتباع الدليل والحذر من تعظيم الرجال بما يخالف الشرع.

أثر الإمام أحمد: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد»: أفاد الأثر أن من عرف الإسناد لا ينبغي له ترك الحديث، وترك حجج الدين، والذهاب إلى أقوال الرجال، والتقليد في الأعمال.

حديث عدي بن حاتم وفيه: «أليسوا يحلون ما حرم الله؟»: استدل به

المصنف على أن طاعة العلماء والأمراء في تحليل الحرام وتحريم الحلال كفر؛ كما أن النصارى كفروا بسبب طاعتهم للأحبار والرهبان في التحليل والتحريم، وهو من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله تعالى.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الطاعة المطلقة والطاعة المقيدة:

أما الطاعة المطلقة: فطاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، **وأما الطاعة المقيدة:** فطاعة العلماء والأمراء، فطاعتهم واجبة في غير معصية، فإذا أمرا بمعصية فلا طاعة؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**إنما الطاعة في المعروف**»(١)، وقد جمع الله الطاعتين المطلقة والمقيدة في قوله تعالى: {**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ**} [النساء: ٥٩].

قال السعدي: «حذف الفعل [أي: أطيعوا] عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية»(٢).

الفقرة الثانية: تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾(٣).

الأرباب: جمع رب، والربوبية هنا هي: العبادة، يعني: اتخذوا أحبارهم ورهبانهم معبودين مِنْ دُونِ اللَّهِ يعني: مع الله؛ وذلك أنهم أطاعوهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال، والطاعة من التوحيد، وفردٌ من أفراد العبادة، فإذا أطاع غير الله في التحليل وفي التحريم: فإنه يكون قد عبد ذلك الغير، فهذه الآية فيها: ذِكْرُ أحد أفراد التوحيد، وأحد أفراد العبادة، وهو الطاعة(٤)-وقد تقدمت الآية تحت: باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله-.

---

(١) رواه البخاري (٤٣٤٠)، ومسلم (١٨٤٠) من حديث علىّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ١٨٣).

(٣) التوبة: ٣١.

(٤) التمهيد لشرح كتاب التوحيد لصالح آل الشيخ (ص٨٣).

الفقرة الثالثة: تقديم قول الرسول صلى الله عليه وسلم على كل قول:

طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من طاعة الله؛ فيجب طاعته صلى الله عليه وسلم بالعمل بحديثه الصحيح، وتقديمه على كل قول، ولا يلتفت إلى قول أحد أيا كان، ومن ترك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قول الرجال فقد دخل تحت طاعة العلماء والأحبار، ومن أطاعهم فقد اتخذهم أربابًا، ولا يلتفت لأي قول يخالف قول الرسول صلى الله عليه وسلم مهما كان مصدره؛ إذ يحرم تقديم أقوال المخلوقين على سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الرابعة: عقوبة من قدم أقوال الرجال على قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

من قدم أقوال الرجال على الرسول صلى الله عليه وسلم مع علمه بصحة قول الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه يُخشى عليه من العقوبات الآتية:

١ ـ حصول الفتنة في قلبه من نفاق، أو بدعة، أو شرك، أو كفر.

٢ ـ أن يصيبه عذاب أليم في الدنيا إما بقتل، أو حد، أو حبس.

٣ـ الهلاك والعذاب الأليم المقيم في الآخرة.

٤ـ انقطاع نسله وذريته وذكره؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾ [الكوثر: ٣]، وهو عام لمنتقص سنته صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الخامسة: الطاعة الشرعية:

إن معنى التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: الطاعة التامة لله تعالى؛ فهو الذي يُؤَلَّهُ ويُعبَد وحده لا شريك له، ويُطَاع طاعة مطلقة فلا يُعصَى؛ وتكون الطاعات كلها تبعًا لطاعته، والطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم من طاعة الله، وذلك بامتثال أمره الواجب والمستحب، واجتناب نهيه، وعلى ذلك بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهذين الأمرين: الطاعة لله تعالى وللرسول صلى الله عليه وسلم.

وأما طاعة العلماء والأمراء في طاعة الله ورسوله، فهذا أمر مندوب شرعًا، ولا يستقيم الأمر إلا بذلك، فالحق أن نطيع الأمراء والعلماء ما أمرونا

بطاعة الله ورسوله، ولا ننزع يدًا من طاعة ما داموا مسلمين، ولا نكون كالخوارج، وأيضًا لا نكون كالروافض والباطنية الذين يؤلهون أئمتهم، ويطيعون سادتهم في كل ما يأمرونهم به.

الفقرة السادسة: الطاعة الشركية:

هي طاعة العلماء والأمراء وغيرهم في تغيير أحكام الله بتحليل الحرام، وتحريم الحلال، وجعل طاعتهم كطاعة الله ورسوله ويظن أن لهم حق التشريع، وأن لهم حق الطاعة المطلقة؛ فمن فعل ذلك فقد اتخذهم أربابًا من دون الله يتألههم، ويحاكم إليهم، ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله.

الفقرة السابعة: أهمية هذا الباب:

هذا باب مهم إلى الغاية، وقد عالج الإمام المجدد رَحمَهُ اللهُ الداء العضال الذي هو سرطان وسُل في جسم هذه الأمة، وهو التعصب المذهبي، والتقليد الأعمى، الذي رد المقلدون الجامدون المتعصبون للمذهب بسببه كثيرًا من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية، وصرفوها بالتأويلات الفاسدة الباطلة دفاعًا عن مذاهبهم، وقد وصل هذا النوع من التقليد والتعصب المذهبي بهؤلاء إلى حد جعلوا الأئمة في التحليل والتحريم والتشريع كأنهم أنبياء مرسلون معصومون، بل جعلوهم أربابًا يعبدونهم من دون الله في التحريم والتحليل والتشريع؛ حيث يقدمون أقوالهم على صريح نصوص الكتاب والسنة، ولقد رثى أئمة الإسلام حال هؤلاء، وصرحوا بأن صنيع هؤلاء في حق هؤلاء الأئمة أنهم جعلوهم أربابًا من دون الله، وأنهم جعلوا الأئمة أنبياء مرسلين في الطاعة وتقديم أقوالهم على نصوص الكتاب والسنة.

وإليكم نبذة من أقوالهم، فاستمع أيها المسلم طالب الحق إلى نصوص أئمة الإسلام العارفين بفقه واقع الأمة:

١ - قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وإذا كان الرجل متبعا لأبي حنيفة، أو مالك، أو الشافعي، أو أحمد، ورأى في بعض المسائل أن مذهب غيره أقوى فاتبعه كان قد أحسن في ذلك، ولم يقدح في دينه ولا عدالته بلا نزاع، بل هذا أولى بالحق وأحب إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ممن يتعصب لواحد معين غير النبي صلى الله عليه وسلم؛ كمن يتعصب لمالك أو الشافعي، أو أحمد، أو أبي حنيفة، ويرى أن قول هذا المعين هو الصواب الذي ينبغي اتباعه دون

قول الإمام الذي خالفه، فمن فعل هذا كان جاهلا ضالًا، بل قد يكون كافرًا؛ فإنه اعتقد أنه من يجب على الناس اتباع واحد معين من هؤلاء الأئمة دون الإمام الآخر فإنه يجب أن يستتاب؛ فإن تاب وإلا قتل، بل غاية ما يقال: إنه يسوغ أو ينبغي أو يجب على العامي أن يقلد واحدًا لا بعينه من غير تعيين زيد وعمرو، وأما أن يقول قائل: إنه يجب على العامة تقليد فلان أو فلان فهذا لا يقوله مسلم»[١].

٢- صرح شيخ الإسلام أن من أسباب سيطرة الكفار والتتار على البلاد الإسلامية، وما أصابها من دمار وشنار هو ذلكم التقليد المذموم الجامد[٢].

٣- قال الإمام ابن القيم رحمه الله محققًا أن هذا التقليد المذموم، والدعوة إليه، والتعصب لهذه المذاهب الأربعة بدعة، وأنه تعالى لم يوجب على أحد أن يكون حنفيا، أو شافعيًا، أو نحوه: «هل يلزم العامي أن يتمذهب ببعض المذاهب الأربعة أم لا؟ فيه مذهبان: أحدهما: لا يلزمه، وهو الصواب المقطوع به؛ إذ لا واجب إلا ما أوجبه الله ورسوله، ولم يوجب الله ورسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب بعض من الأئمة فيقلده دينه دون غيره، وقد انطوت القرون الفاضلة مُبَرَّأَةً مُبَرَّأً أهلها من هذه النسبة، بل لا يصح للعامي مذهب ولو تمذهب به، فالعامي لا مذهب له ... ولا يلزم أحدًا قط أن يتمذهب بمذهب رجل من الأئمة بحيث يأخذ أقواله كلها ويدع أقوال غيره، وهذه بدعة قبيحة حدثت في الأمة، لم يقل بها أئمة الإسلام... فيا الله العجب، ماتت مذاهب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومذاهب التابعين وتابعيهم، وسائر أئمة الإسلام، وبطلت جملة إلا مذاهب أربعة أنفس فقط من بين الأئمة والفقهاء، وهل قال ذلك أحد من الأئمة أو دعا إليه، أو دلت عليه لفظة واحدة من كلامه عليه؟! والذي أوجبه الله تعالى ورسوله على الصحابة والتابعين وتابعيهم هو الذي أوجبه على من بعدهم إلى يوم القيامة، لا يختلف الواجب ولا يتبدل... وعلى هذا فله أن يستفتي من شاء من أتباع الأئمة الأربعة وغيرهم، ولا يجب عليه ولا على المفتي أن يتقيد بأحد من الأئمة الأربعة بإجماع الأمة، كما لا يجب على العالم أن يتقيد بحديث أهل بلده أو غيره من البلاد، بل إذا صح الحديث وجب عليه

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢٩/٢٢)، و«مختصر الفتاوى المصرية» (صـ ٥٤)، و«الفتاوى الكبرى» (٣٧٦/٢).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٥٤/٢٢)، و«الفتاوى الكبرى» (٢٧٩/٢)، و«مختصر الفتاوى المصرية» (صـ ٥٥).

العمل به حجازيا كان أو عراقيًا، أو شاميا، أو مصريا، أو يمنيا»[(١)].

٤- وللإمام ابن أبي العز رَحِمَهُ اللهُ رسالة في إبطال هذه التقاليد الباطلة والتعصب لهذه المذاهب، وهي بعنوان: «الاتباع»، وهي مهمة جدًّا.

٥- وللإمام محمد حياة السندي رسالة في ذم التقليد الأعمى، بعنوان: «تحفة الأنام»، وهي مهمة جدًّا.

٦- وللعلامة الفلاني رسالة سماها: «إيقاظ همم أولي الأبصار»، مهمة جدًّا في إبطال التعصب.

٧- قال الإمام مجدد الدعوة محمد بن عبد الوهاب في بيان أن المقلدين الجامدين قد عبدوا الجهال، وأن القبورية قد عبدوا الفساق حتى صار تغير الأحوال عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه؛ ثم تغيرت الحال إلى أن عُبِدَ من دون الله من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني –التقليد- من هو من الجاهلين»[(٢)].

٨- قال الإمام سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «وقد وقع في هذا التقليد المحرم خلق كثير ممن يدعي العلم والمعرفة بالعلوم، ويصنف التصانيف في الدين والسنن، ثم بعد ذلك تجده جامدًا على أحد هذه المذاهب، ويرى الخروج منها من العظائم»[(٣)].

٩ - قال الإمام عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: «وقد وقع فيه -أي: في هذا التقليد المحرم - كثير من الناس مع من قلدوهم لعدم اعتبار الدليل إذا خالف المقلد؛ وهو من هذا الشرك، ومنهم من يغلو في ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل والحالة هذه يكره أو يحرم؛ فعظمت الفتنة، ويقول : هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد، وربما تفوهوا بذم من يعمل

---

(١) ينظر: «إعلام الموقعين» (٢٠١/٤-٢٠٢).

(٢) ينظر كتاب: «التوحيد» (صـ ٦١-٦٢)، و«مؤلفات الشيخ» (١٠٢/١-١٠٣)، و«تيسير العزيز الحميد» (صـ ٥٤٣-٥٥٤)، و«فتح المجيد» (صـ ٤٥٦-٤٦٥)، و«قرة عيون الموحدين» (صـ ١٨٩-١٩٢)، و«القول السديد» (صـ١١٢-١١١)، و«إبطال التنديد» (صـ ٢٢١-٢١٧)، و«إفادة المستفيد» (صـ ١٦٢-١٦٤).

(٣) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (صـ ٥٥٣).

بالدليل، ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام»[١].

وقال رَحِمَهُ اللهُ: «وقد عمت البلوى بهذا المنكر - أي: التقليد المذموم - خصوصًا مَن يُنسب إلى العلم، ونصبوا في الصدّ عن الكتاب والسنة، وصدوا عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيم أمره ونهيه»[٢].

١٠- وللإمام الشاه ولي الله الدهلوي كلام مهم جدا حقق فيه أن التعصب لهذه المذاهب وصل إلى حد أن جعل المقلدون أئمتهم أنبياء مرسلين، وأن هذا من قبيل اتخاذ الأحبار والرهبان أربابًا من دون الله، وأن هذا من الشرك[٣].

١١ - للإمام الأمير اليماني قصيدة رنانة في إبطال التعصب المذهبي، والتقيد بهذه المذاهب الأربعة[٤].

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

قال محمد تقي الدين الهلالي: «وُجِد في هذه الأُمَّة من اتبع طريق اليهود؛ فكتبوا المجلدات في الأحكام الشرعية ونسبوها إلى الله ورسوله، وليس فيها قال الله، ولا قال رسوله؛ فحللوا بها الفُرُوج، ونقلوا الأموال مِن مُلك شخص إلى شخص آخر، وسفكوا بها الدماء افتراء على الله، وهذا الوصف ينطبق على كل كتاب أُلِّف فيما يسمونه (الفقه) وَحُشِي بالمسائل المجردة عن الدليل من الكتاب والسُّنَّة، وما أكثر هذه الكتب المظلمة ورحمة الله على عبد المؤمن بن علي الملك الموحدي العالِم؛ الذي أمَر بإحراق كتب الفروع في جميع أنحاء مملكته، وأمر القضاة والمفتين ألا يقضوا ولا يفتوا إلا بدليل من الكتاب والسُّنَّة»[٥].

وقال: «فلا جرم أن هؤلاء - أيضًا - إذا لم يتوبوا وبقوا على اعتقادهم إلى

(١) ينظر: «فتح المجيد» (صـ ٤٦٤).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٤٦٠).
(٣) ينظر: «حجة الله البالغة» (١ / ١٥٤ - ١٥٦)، و»الإنصاف» (صـ ١٠٢-٩٧)، و«عقد الجيد» (صـ ٢٢-٢٥).
(٤) ينظر: «ديوان الصنعاني» (صـ ١٣٠)، و«إرشاد النقاد» (صـ ١٤٤)، والله المستعان.

٥)) ينظر: «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» لتقي الدين الهلالي (٣/٢٠-٢١).

الممات؛ يدخلون جهنم ويجري عليهم ما جرى على المكذبين»[١].

وقال - أيضًا -: «المقلدون وأصحاب الطرائق القِدَد لا يصرِّحون بتكذيب الكتاب والسنة، ولكنهم في الواقع يعاملونهما معاملة المكذِّبين، ولا بد أن يعذبهم الله في الدنيا والآخرة إن لم يتوبوا قبل الموت؛ فالمقلد يقول: «إمامي إمامي؛ مذهبي مذهبي؛ لا أحيد عنه قيد شَعرة».

كنتُ أُصلِّي في المسجد النبوي قبل ثلاث سنين تقريباً، وكان إلى جانبي شخص يُصلِّي النافلة، فأقيمت صلاة الفريضة، وبقي مستمرًّا في نفله حتى أكمله بعد ركوع الإمام ورفعه من الركوع، فقلت له بلطف يا أخي! كان ينبغي لك أن تسلّم وتدخل مع الإمام، وبعبارة أخرى: أن تقطع النافلة، قال رسول الله ﷺ: «**إذا أُقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة**»[٢]، وفي حديث آخر: «**فلا صلاة إلا التي أُقيمت**»[٣]. فقال لي بغضب: «مذهب أبي حنيفة سيد المذاهب والمغاربة جهَّال وصلاتهم فاسدة». فقلت له : أنا لا أدافع عن المغاربة، وإنما أدافع عن سنة النبي ﷺ فازداد لجاجًا؛ فأعرضت عنه.

---

١)) ينظر: المصدر السابق (٢٠٣/٤).

٢)) رواه مسلم (٧١٠) من حديث أبي هريرة.

٣)) أخرجه أحمد (٨٦٢٣)، وصححه الألباني في «الثمر المستطاب» (٢٢٤/١).

٣٩- باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ الآيات[١].

١- وقوله: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾**[٢].

٢- وقوله: **﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾**[٣]، **﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾**[٤].

٣- وعن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به**»[٥]، قال النووي: «حديث صحيح، رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح»[٦].

٤- وقال الشعبي: «كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد -عرف أنه لا يأخذ الرشوة-. وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود -لعلمه أنهم يأخذون الرشوة- فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في

---

(١) النساء: ٦٠.
(٢) البقرة: ١١.
(٣) الأعراف: ٥٦.
(٤) المائدة: ٥٠.
(٥) هذا الحديث صحيح المعنى ضعيف المبنى، رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٥)، وابن بطة في «الإبانة الكبرى» (٢٧٩)، والبيهقي في «المدخل إلى السنن الكبرى» (٢٠٩)، وقال: «تفرد به نُعيم بن حمّاد». وقال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٩٤): «تصحيح هذا الحديث بعيد جدًّا من وجوه، **منها:** أنه حديث يتفرد به نعيم بن حماد ، ونعيم وإن كان وثقه جماعة من الأئمة، وخرج له البخاري، فإن أئمة الحديث كانوا يحسنون به الظن، لصلابته في السنة، ...، وكانوا ينسبونه إلى أنه يهم، ويشبّه عليه في بعض الأحاديث، فلما كثر عثورهم على مناكيره، حكموا عليه بالضعف، ... **ومنها:** أنه قد اختلف على نعيم في إسناده، ... **ومنها:** أن في إسناده عقبة بن أوس السدوسي، ... وقد اضطرب في إسناده، وقد وثقه العجلي، وابن سعد، وابن حبان، ... وقال ابن عبد البر: هو مجهول. وقال الغلابي في «تاريخه»: يزعمون أنه لم يسمع من عبد الله بن عمرو، ... فعلى هذا تكون رواياته عن عبد الله بن عمرو منقطعة».
(٦) قول النووي في «الأربعين النووية» عند الحديث الحادي والأربعين، وقال الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٩٣): «يريد بصاحب كتاب الحجة الشيخ أبا الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي الفقيه الزاهد نزيل دمشق، وكتابه هذا هو كتاب «الحجة على تارك المحجة»، يتضمن ذكر أصول الدين على قواعد أهل الحديث والسنة».

جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ**﴾»[١].

٥- وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة، فقال للذي لم يرض برسول الله صلى الله عليه وسلم: «أكذلك؟» قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله[٢].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ**﴾[٣].

الثالثة: تفسير آية الأعراف: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**﴾[٤].

الرابعة: تفسير: ﴿**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**﴾[٥].

الخامسة: ما قاله الشعبي في سبب نزول الآية الأولى.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

السابعة: قصة عمر مع المنافق.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أربابًا:

باب: قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ

---

(١) رواه محمد بن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٧١١)، والطبري في «تفسيره» (١٨٩/٧)، وابن المنذر في «تفسيره» (١٩٤٢) عن الشعبي مرسلًا.

(٢) علقه الواحدي في «أسباب النزول» (صـ ١٢٧) بإسناده ضعيف جدًّا، لكن ثبت من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية نزلت في أناس أظهروا الإسلام ثم تحاكموا إلى اليهود، فنزلت الآية، رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩٩١/٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٧٣/١١ برقم ١٢٠٤٥)، وهو في «الصحيح المسند من أسباب النزول» (صـ ٦٩).

(٣) البقرة: ١١.

(٤) الأعراف: ٥٦.

(٥) المائدة: ٥٠.

إِلَيْكَ﴾[(١)]:

ووجه ما ذكره المصنف ظاهر، فإن الرب والإله هو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وهو الذي يؤله ويعبد وحده لاشريك له، ويطاع طاعة مطلقة فلا يعصى، بحيث تكون الطاعات كلها تبعا لطاعته، فإذا اتخذ العبد العلماء والأمراء على هذا الوجه، وجعل طاعتهم هي الأصل، وطاعة الله ورسوله تبعا لها فقد اتخذهم أربابا من دون الله يتألهم ويحاكم إليهم، ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله، فهذا هو الكفر بعينه؛ فإن الحكم كله لله، كما أن العبادة كلها لله.

والواجب على كل أحد أن لا يتخذ غير الله حكما، وأن يرد ما تنازع فيه الناس إلى الله ورسوله، وبذلك يكون دين العبد كله لله، وتوحيده خالصا لوجه الله، وكل من حاكم إلى غير حكم الله ورسوله فقد حاكم إلى الطاغوت، وإن زعم أنه مؤمن فهو كاذب، فالإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكيم الله ورسوله في أصول الدين وفروعه، وفي كل الحقوق كما ذكره المصنف في الباب الآخر، فمن حاكم إلى غير الله ورسوله فقد اتخذ ذلك ربًّا، وقد حاكم إلى الطاغوت.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- تفسير الآيات المعنون بها الباب: قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٠-٦٣].

قال السعدي: « يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين **﴿الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ﴾** مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا **﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾** وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت.

والحال أنهم **﴿قد أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾** فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن

---

(١) النساء: ٦٠.

الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمَنْ زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك، وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿**وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالا بَعِيدًا**﴾ عن الحق.

﴿**فَكَيْفَ**﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿**إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾ من المعاصي ومنها تحكيم الطاغوت؟! ﴿**ثُمَّ جَاءُوكَ**﴾ معتذرين لما صدر منهم، ويقولون: ﴿**إِنْ أَرَدْنَا إِلا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا**﴾ أي: ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كَذَبة في ذلك، فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿**ومَنْ أحْسَنَ من الله حكمًا لقوْمٍ يوقنون**﴾؛ ولهذا قال: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ أي: من النفاق والقصد السيئ، ﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**﴾ أي: لا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقترفوه، ﴿**وَعِظْهُمْ**﴾ أي: بين لهم حكم الله تعالى مع الترغيب في الانقياد لله، والترهيب من تركه ﴿**وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلا بَلِيغًا**﴾ أي: انصحهم سرًّا بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم وقمعهم عمَّا كانوا عليه، وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي وإن أعرض عنه فإنه ينصح سرًّا، ويبالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به»[(١)].

٢- وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١].

قال السعدي: «أي: إذا نهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين ﴿**قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلبا للحقائق، وجمعا بين فعل الباطل واعتقاده حقا، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: ﴿**إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ**﴾ حصر للإصلاح في جانبهم - وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ**﴾ فإنه لا أعظم فسادا ممن كفر بآيات الله، وصد عن

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ١٨٣).

سبيل الله، وخادع الله وأولياءه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟ ولكن لا يعلمون علما ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علما تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفسادا، لأنه يتضمن فساد ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار، والنبات، بما يحصل فيها من الآفات بسبب المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدر لهم الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته وعبادته، فإذا عمل فيها بضده، كان سعيا فيها بالفساد فيها، وإخرابا لها عما خلقت له»[(١)].

٣- وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦].

قال السعدي: «**﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأرْضِ﴾** بعمل المعاصي **﴿بَعْدَ إِصْلاحِهَا﴾** بالطاعات، فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾** كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق، والأعمال، والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة»[(٢)].

٤- وقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

قال السعدي: «أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله، فلا ثَمّ إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية، فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي؛ ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فالموقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز -بإيقانه- ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين -عقلا وشرعا- اتباعه، واليقين هو العلم التام الموجب للعمل﴾[(٣)].

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٤٢).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٢٩١).
(٣) ينظر: المصدر السابق (صـ ٢٣٤).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو التحذير من التحاكم إلى غير الله، وأن الواجب هو التحاكم إلى شريعة الله.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن من الإيمان التحاكم إلى شرع الله، وأن التحاكم إلى الطواغيت ناقض أو منقص للتوحيد.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أن الآية تبين أن التحاكم إلى غير الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم إنما هو من أعمال المنافقين، وهذا العمل وهو التحاكم إلى الطواغيت تبين بجلاء أن هذا الفعل ناقض أو منقص للتوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

بعد أن تكلم المؤلف عن تحريم طاعة غير الله في التحريم والتحليل بما ينافي حكم الله؛ أراد من عقد هذا الباب بيان التحذير من التحاكم إلى غير الله، وأن الواجب التحاكم إلى شريعة الله في كل الأمور، وأن التحاكم إلى غير الله شرك ينافي التوحيد؛ لأنه شرك في التشريع والطاعة، وأن الواجب على المسلمين التحاكم إلى الكتاب والسنة.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية الأولى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ ...﴾: أراد بها المصنف الاستدلال على أن التحاكم إلى غير شريعة الله من الإفساد في الأرض.

الآية الثانية: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾: أوردها المصنف لبيان أن الله تعالى أصلح الأرض بتدبيره وشرعه، ونهانا أن نفسدها بترك شريعته، والتحاكم إلى غيره.

الآية الثالثة: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾: فيها التحذير من حكم الجاهلية، وأن كل حكم يخالف الشرع فهو حكم جاهلي، وأن من كمال الإيمان الاعتقاد بأن حكم الله هو الحكم الأحسن والأصلح، والواجب على الخلق التحاكم إليه. **حديث ابن عمرو: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه»:** ذكره المصنف لما فيه من الدلالة على أن الإيمان لا يكمل حتى يصح الاتباع للنبي صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور، وميول المؤمن ونيته وعمله خاضع لحكم الله.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: وجوب التحاكم إلى الكتاب والسنة:

إن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها، وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم، فالإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكيم الله ورسوله في أصول الدين وفروعه، وفي كل الأمور، دل على ذلك قوله تعالى: **﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** [النساء : ٦٥] .

والواجب على كل أحد ألا يتخذ غير الله حكمًا، وأن يرد ما تنازع فيه الناس إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبذلك يكون دين العبد كله لله، وتوحيده خالصًا لوجه الله.

فالواجب على الأمراء والملوك والحكام أن يتحاكموا إلى شرع الله تعالى المنزل، والموجود في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

والواجب على العلماء وطلبة العلم أن يتحاكموا فيما اختلفوا فيه إلى الكتاب والسنة على فهم سلف الأمة، ولا يجوز لهم أن يتحاكموا إلى الآراء الفلسفية، ولا القوانين المنطقية، ولا الأذواق والأوجاد الصوفية، ولا الآراء الاجتهادية، بل عليهم جميعًا الاجتهاد والبذل في الكتاب والسنة، حتى يصلوا إلى الحق الذي أنزله الله تعالى، أو بينه رسوله صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الثانية: التحاكم إلى الطواغيت من علامات النفاق:

يجب التحاكم إلى شرع الله، ولا يجوز التحاكم إلى غيره، فكل من دعي إلى التحاكم إلى ما أنزل الله وجب عليه الإجابة والقبول، وكل من حاكم إلى غير الله

ورسوله فقد حاكم إلى الطواغيت، وإن زعم أنه مؤمن فهو كاذب في دعواه؛ لأنه معرض عن حكم الله، ومُقدِّم لحكم الطواغيت على حكم الله ورسوله، وهذه خصلة وعلامة من علامات النفاق الاعتقادي، وهو الكفر بعينه؛ فإن الحكم كله لله كما أن العبادة كلها الله.

الففقرة الثالثة: الحكم بغير ما أنزل الله إفساد في الأرض:

جاء الإسلام بإصلاح البلاد والعباد، ونهى عن الإفساد في الأرض، وتخريبها بأي نوع من أنواع التخريب حسيا كان أم معنويا، بعدما أصلحها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وصلاح الأرض باتباع الشرع وتحكيمه، وفسادها بمخالفة أمر الله والتحاكم إلى غيره، فالتحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعظم الإفساد في الأرض، لا صلاح لها إلا بتحكيم الكتاب والسنة، وهو سبيل المؤمنين.

فمن زعم أن حكمًا أو قانونًا ما أفضل أو مثل حكم الله فهذا كفر صريح، وكذلك من زعم أن حكم الله لا يصلح في هذا الزمن.

وأما من حكم من حكام المسلمين وقضاتهم وآحادهم في بعض القضايا بغير ما أنزل الله تعالى مع اعترافهم بالمنزل لشهوة أو شبهة، أو رشوة، أو قرابة، ونحو ذلك، فهذا كفر دون كفر، وهو أعظم من الزنا والسرقة.

والواجب على الحكام والمحكومين جميعا التحاكم إلى شرع الله المنزل، ودينه الذي لا يتبدل، وحكمه الذي لا تجد فيه عوجا ولا أَمْتًا.

٤٠- باب من جحد شيئًا من الأسماء والصفات

١- وقول الله تعالى: ﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ**﴾ (١).

٢- وفي صحيح البخاري: قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟» (٢).

٣- وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: أنه رأى رجلًا انتفض لما سمع حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات استنكارا لذلك، فقال: «ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه؟» انتهى (٣).

٤- ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الرحمن، أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿**وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ**﴾ (٤)،(٥).

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

الثانية: تفسير آية الرعد.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئًا من ذلك، وأنه أهلكه.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: من جحد شيئا من الأسماء والصفات:

---

(١) الرعد: ٣٠

(٢) رواه البخاري (١٢٧) .

(٣) رواه عبد الرزاق كما في «الجامع» لمعمر بن راشد (٤٢٢/١١ برقم ٢٠٨٩٥)، ورواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢٩٦٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٨٥)، وبنحوه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٥٦/٧ برقم ٣٧٩٠٢)، والطبري في «تفسيره» (٢١٤/٥)، والأثر صحيح، كما في «ظلال الجنة»، والحديث الذي فرق منه الرجل كان فيه صفة القدم؛ كما في «الجامع» لمعمر بن راشد (٤٢٢/١١ برقم ٢٠٨٩٣).

(٤) الرعد: ٣٠.

(٥) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (صـ ٢١٣) بلا إسناد.

أصل الإيمان وقاعدته التي ينبني عليها هو الإيمان بالله، وبأسمائه وصفاته، وكلما قوي علم العبد بذلك وإيمانه به، وتعبد لله بذلك قوي توحيده، فإذا علم أن الله متوحد بصفات الكمال متفرد بالعظمة والجلال والجمال ليس له في كماله مثيل، أوجب له ذلك أن يعرف ويتحقق أنه هو الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، فمن جحد شيئا من أسماء الله وصفاته فقد أتى بما يناقض التوحيد وينافيه، وذلك من شعب الكفر.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد:٣٠].

قال السعدي: «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ إلى قومك تدعوهم إلى الهدى ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أرسلنا فيهم رسلنا، فلست ببدع من الرسل حتى يستنكروا رسالتك، ولست تقول من تلقاء نفسك، بل تتلو عليهم آيات الله التي أوحاها الله إليك، التي تطهر القلوب وتزكي النفوس.

والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه -التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا وأنزلنا عليك كتابا- بالقبول والشكر بل قابلوها بالإنكار والرد، أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة كيف أخذهم الله بذنوبهم»[1].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

وجوب إثبات أسماء الله وصفاته على ما يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من غير تحريف ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٤١٨).

هذا باب في بيان أن التوحيد لا يكمل إلا بالإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته الواردة في الكتاب والسنة، وأن جحود شيء منها مناقض للتوحيد.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف هذا الباب لبيان وجوب إثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق به سبحانه وأن من جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته، فقد أتى بما يناقض التوحيد وينافيه.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لا زال المصنف في صدد نواقض التوحيد، ومن ضمن ذلك جحود أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العلا، فتعظيم الأسماء والصفات من كمال التوحيد وجحد الأسماء والصفات مناف لأصل التوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾: أورده المصنف لما فيه من بيان أن إنكار الأسماء إنما هو من فعل الجاهليين المشركين، وفيه أن كفر الكافرين بالرحمن كفر بالله تعالى؛ فيجب على المؤمن أن يحذر من صفات هؤلاء الضالين، وعليه أن يسلك مسلك أهل العلم والإيمان، وسَمَّى إنكارهم الصفة كفرًا بالرحمن ، فدل على كفر من أنكر الصفات.

أثر علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون»: أفاد أنه يجب على الواعظ والمذكر أن يذكر الناس بالألفاظ التي يعرفونها، والأساليب التي يعقلونها، حتى لا يُكذب الله ورسوله، والله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم قد حدثوا الناس بهذه الأسماء والصفات، وفهم الناس منها ما هو على ظاهرها، فلا ينبغي التقعر فيها، أو إنكارها بالتأويلات.

أثر ابن عباس: فيه الدلالة على وجوب الإيمان بالمتشابه، وفهمه، وعدم الخوض فيما لم يرده الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: أهمية توحيد الأسماء والصفات:

لقد صرح علماء السلف بأهمية معرفة الله بأسمائه وصفاته والإيمان بما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف، ولا تكييف، ولا تعطيل، ولا تمثيل؛ لأن باب الصفات من أهم أبواب الإسلام، ومن أشرف المعارف الإلهية، وأعظم العلوم[(١)]، وهذا من المعلوم بالدين بالضرورة.

وهذا القسم من الأخبار أشرف أنواع الخبر، والإيمان به أصل الإيمان بما عداه؛ لأن معرفة الله تعالى لا تتم إلا بمعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله، والإيمان بها؛ إذ بها تعرّف الله تعالى إلى عباده.

وتظهر أهمية باب أسماء الله تعالى وصفاته من أن إخبار الرسل به أعظم مما أخبرت بمعاد الأبدان، ولهذا كانت التوراة مملوءة من إثبات الصفات، أما ذكر المعاد فليس فيها كذلك، والقرآن فيه من ذكر الله وأسمائه وصفاته أكثر من ذكر الأكل والشرب والنكاح في الجنة، والآيات المتضمنة لصفات الله وأسمائه تعالى أعظم قدرًا من آيات المعاد، ودلالة القرآن والحديث على صفات الله وأسمائه أعظم من دلالتهما على الميزان والشفاعة والحوض.[(٢)]

الفقرة الثانية: معرفة الله بأسمائه، والإيمان بصفاته غاية السالكين:

معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته هي غاية السالكين، ومن أهم ما يميز به أهل الدين، قال ابن القيم رحمه الله: «فالإيمان بالصفات ومعرفتها، وإثبات حقائقها، وتعلق القلب بها، وشهوده لها، هو مبدأ الطريق، ووسطه، وغايته، وهو روح السالكين، وحاديهم إلى الوصول، ومحرك عزماتهم إذا فتروا، ومثير هممهم إذا قصروا، فإن سيرهم إنما هو على الشواهد، فمن كان لا شاهد له فلا سير له، ولا طلب، ولا سلوك له، وأعظم الشواهد صفات محبوبهم، ونهاية

---

(١) ينظر: «درء التعارض» (٣٦٤/٥).

(٢) ينظر: «درء التعارض» (٣٠٩/٥-٣١٢)، و«الصواعق المرسلة» (٣٦٥/١)، و«مختصره» (٤١/١).

مطلوبهم، وذلك هو العلم الذي رفع لهم في السير فشمروا إليه»[(١)].

الفقرة الثالثة: علاقة توحيد الأسماء والصفات بتوحيد الألوهية:

إن توحيد الإلهية عليه براهين، ومن براهينه توحيد المعرفة والإثبات وهو توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، فمن أدلة توحيد الإلهية توحيد الربوبية كما سبق في " باب قول الله تعالى: {أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ} [الأعراف: ١٩١] [الأعراف: ١٩١] "، وكذلك توحيد الأسماء والصفات برهان على توحيد الإلهية، ومن حصل عنده ضلال في توحيد الأسماء والصفات فإن ذلك سيتبعه ضلال في توحيد الإلهية؛؛ ولهذا تجد المبتدعة الذين ألحدوا في أسماء الله وفي صفاته من هذه الأمة: من الجهمية، والمعتزلة، والرافضة، والأشاعرة، والماتريدية، ونحو هؤلاء، تجد أنهم لما انحرفوا في باب توحيد الأسماء والصفات لم يعلموا حقيقة معنى توحيد الإلهية ففسروا (الإله) بغير معناه وفسروا: (لا إله إلا الله) بغير معناها الذي دلت عليه اللغة ودل عليه الشرع، وكذلك لم يعلموا متعلقات الأسماء والصفات وآثارها في ملك الله ـ جل وعلا ـ وسلطانه؛ لهذا عقد الشيخ ـ رحمه الله ـ هذا الباب لأجل أن يبين أن تعظيم الأسماء والصفات من كمال التوحيد وأن جحد الأسماء والصفات مناف لأصل التوحيد[(٢)]

الفقرة الرابعة: حكم من جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته:

من جحد شيئًا من أسماء الله وصفاته، أو أنكرها فحكمه الكفر؛ لأن إنكار ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما أجمعت عليه الأمة كفر في ذاته، فكيف إذا كان هذا الجحود منصبًا على أسماء الله تعالى وصفاته، ولهذا كفر الأئمة غلاة الجهمية الذين أنكروا الأسماء والصفات، وسموهم بالزنادقة. وأما من أنكر بعض الأسماء، أو بعض الصفات لشبهة وردت عليه فهذا متأوّل، والمتأول له حكم آخر.

الفقرة الخامسة: مذهب أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته:

أهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له الرسول صلى

(١) ينظر: «مدارج السالكين» لابن القيم (٣/ ٣٥٠).
(٢) التمهيد لشرح كتاب التوحيد لصالح آل الشيخ (ص٤٣٢-٤٣٥).

الله عليه وسلم من أسماء وصفات على الوجه اللائق به سبحانه، من غير تكييف، ولا تمثيل، وينفون ما نفاه الله عن نفسه، وما نفاه عنه الرسول صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل.

فأهل السنة يثبتون مع التنزيه، وينفون من غير تعطيل؛ فهم إنما يثبتون المعنى دون الكيف، بخلاف المعطلة الذين عطلوا المعنى فوقعوا في التعطيل أو التفويض، وبخلاف المشبهة الذين أثبتوا مع التمثيل.

وأهل السنة شعارهم في هذا الباب قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ [الشورى: ١١]، فنفى الله تعالى عن نفسه المثلية، مع إثباته لنفسه السمع والبصر، فدل على أن الإثبات إنما هو من غير تمثيل، فالتنزيه يعني: الإثبات من غير تمثيل، فلا جحود ولا تمثيل.

الفقرة السادسة: معنى قول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذب الله ورسوله؟»

يأمر الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أهل العلم بأن يحدثوا الناس بما تدركه عقولهم، وتصل إليه أفهامهم، ولا يدخلوا معهم فيما لا تطيق أذهانهم، فالمطلوب تحديث العامة بما ينفعهم علمًا وعملا، لا ما يشكل عليهم فهمه، وما تحيله عقولهم، ولا تدركه أفهامهم، ولذا كان السلف ينهون القصاصين لأنهم كانوا يأتون بالغرائب المستنكرة، والقصص المستغربة.

ومن ذلك التفاصيل في أسماء الله وصفاته؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى إنكارهم شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فيأثمون بسببهم فيهلك الجميع، فالقول في أسماء الله تعالى إنما يكون بالظاهر اللائق بالله تعالى، وعدم الخوض بالتأويلات الفاسدة.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

من الأخطاء والانحرافات الواقعة عند بعض الفِرق المخالفة للسنة تعطيل أسماء الله وصفاته تعالى، وقد تقدم بيان أهمية الإيمان بأسماء الله وصفاته، فمن الخطورة والفساد والضلال تشبيه الله تعالى بخلقه، أو تشبيه الخلق بالله تعالى، وإذا تطرق التأويل والتعطيل إلى أسماء الله تعالى وصفاته ونصوصها كان

تطرق التحريف إلى نصوص المعاد والجنة والنار أسهل.

ولما كان تعطيل صفات الله تعالى إلى هذه الدرجة من المفاسد والأضرار والخطر كان كلام أئمة السنة وعلماء هذه الأمة في تكفير الجهمية، وتبديع أذيالهم الغلاة من الحنفية الماتريدية والأشعرية الكلابية أصرح وأوضح وأشد وأشهر؛ إذ تعطيل صفات الله تعالى، والقول بخلق القرآن، وإنكار علو الله تعالى، وإنكار نزوله تعالى، وإنكار وجهه تعالى، ويديه تعالى، وغضبه ورضاه، ورحمته، وضحكه، ونحوها من الصفات من أوضح الكفر ومن أقبح الشرك عند السلف.

ولذلك لما ظهرت الجهمية المعطلة وأفراخهم المعتزلة وأذيالهم الماتريدية الأشعرية الكلابية وعامة أهل الكلام حكم عليهم أئمة السنة بالكفر والإلحاد والزندقة، وحكموا على أفراخهم بالبدعة[١].

ولقد سجل الإمام اللالكائي أسماء (٥٥٠) إمامًا، ومنهم (٣١) من أئمة الحنفية، في تكفير الجهمية الذين قالوا بخلق القرآن، وأنكروا علوّ الله على خلقه، وفوقيته على عباده، واستواءه على عرشه[٢]، وأيده في ذلك بقية أئمة السنة، وأقروه، وفي ذلك يقول ابن القيم في «القصيدة النونية»[٣]:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في   عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنهم   بل حكاه قبله الطبراني

قال الإمام نعيم بن حماد: «من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه»[٤].

وقال شيخ الإسلام: «من شبه صفة من صفات الله بصفات خلقه فهو ضال

(١) ينظر: «نقض الدارمي على بشر المريسي»، و«الرد على الجهمية» لابن منده، و«مجموع الفتاوى» (٦/٢٤٣)، و«درء التعارض» (٧/١٥)، و«الصواعق المرسلة» (٤/١٢٦٦، ١٢٦٩)، و«الرد على الزنادقة والجهمية» للإمام أحمد (صـ ٨٦، ٨٩-٩٠، ٩٤-٩٨)، و«خلق أفعال العباد» (ص١٣، ١٦-١٧، ٢٦-٢٨)، و «مسائل الإمام أحمد» لأبي داود (٢٦/١).

(٢) ينظر: «شرح اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٢/٢٢٧-٣١٢).

(٣) ينظر: «القصيدة النونية» لابن القيم (صـ ٣٧).

(٤) رواه الذهبي في «العلو» (صـ ١٢٦)، وينظر: «النونية» لابن القيم (صـ ٦)، وصححه الألباني في «مختصر العلو» (صـ ١٨٤)، والذهبي كذلك في «السير» (١٠/٦١٠)، و«الحموية» (صـ ١٠٨)، و«مجموع الفتاوى» (٥/ ١١٠ ، ٤٨٢)، و«اجتماع الجيوش» (صـ ١٣٧)، و«شرح الطحاوية» (ص ١٢٠).

خبيث مبطل، بل كافر، ومن عطل صفة من صفاته تعالى فهو ضال خبيث مبطل، بل كافر»[(١)].

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١١/ ٤٨٢)، و«التدمرية» (صـ ٣٠).

٤١- باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل:٨٣].

١- قال مجاهد ما معناه: «هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي». وقال عون بن عبد الله: «لولا فلان لم يكن كذا». وقال ابن قتيبة: «يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا».

٢- وقال أبو العباس(١) بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: أن الله تعالى قال: «**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر**»(٢). الحديث - وقد تقدم-: «وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به. قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير من الناس»(٣).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها.

الثانية: معرفة أن هذا جار على ألسنة كثير [من الناس] .

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولًا واعترافًا كما تقدم، وبذلك يتم التوحيد، فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فذلك كافر ليس معه من الدين شيء، ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده، وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة يضيفها إلى نفسه وعمله وإلى سعي غيره كما هو جار على ألسنة كثير من الناس، فهذا يجب على العبد أن يتوب منه، وأن لا يضيف النعم إلا إلى موليها، وأن يجاهد نفسه على ذلك، ولا يتحقق الإيمان والتوحيد إلا بإضافة النعم إلى الله قولا واعترافا، فإن الشكر الذي هو رأس الإيمان مبني على ثلاثة أركان: اعتراف القلب بنعم الله كلها عليه وعلى غيره، والتحدث بها والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته، والله أعلم.

---

(١) أي: شيخ الإسلام.
(٢) تقدم تخريجه في (باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء)، وهو في الصحيحين.
(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٣٣/٨).

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معرفة معنى آية الباب وآثاره إجمالًا:

قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ [النحل:٨٣].

قال السعدي: «**{فَإِنْ تَوَلَّوْا}** عن الله وعن طاعته بعد ما ذُكِّروا بنعمه وآياته، **{فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ}** أي: ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير والإنذار والتحذير، فإذا أديت ما عليك، فحسابهم على الله فإنهم يرون الإحسان، ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويجحدونها، **{وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}** لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات، لفساد مشاعرهم وسوء قصودهم وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد كفور للنعم متمرد على الله وعلى رسله»(١).

الأثر الأول، والثاني، والثالث: معنى آثار الباب أنه يجب على العبد استحضار فضل الله في كل نعمة، والإقرار بأنه ما من نعمة إلا وهي من الله تعالى، فمن مقتضيات التوحيد نسبة الفضل إلى صاحبه تبارك وتعالى لا إلى غيره.

المقصد الثاني: مراعاة الألفاظ في التوحيد:

جاءت الشريعة بمراعاة الألفاظ التي تقدح في كمال التوحيد الواجب، وتوقع في الشرك الأصغر، وقد تجر إلى الشرك الأكبر، وهذا باب عظيم من أبواب الدين يتعلق بسد الذرائع الموصلة إلى الشرك بالله تعالى، صغيره، وكبيره، ولهذا كان من فقه الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله أن عقد أبوابا تتضمن تقرير هذا الأصل العظيم، واختار منها ما هو شائع ومنتشر، كنسبة النعم لغير الله تعالى، وكالحلف بغير الله تعالى، والتعبيد لغير الله، واقتران مشيئة الرب تعالى بمشيئة العبد، ونحو ذلك.

ومن الفوائد العزيزة التي ذكره العلامة صالح آل الشيخ حفظه الله: أن الشرك في الألفاظ أتى بالتدريج في تاريخ بعثة النبي عليه الصلاة والسلام وتبليغه أمته بالأوامر والنواهي، فكان الحلف بالآباء جائزا، ثم نهاهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك. وكذلك قول: ما شاء الله وشئت، ثم نهاهم عن ذلك؛ ولهذا قال المصنف في مسائل كتاب التوحيد: فيه أن الشرك فيه أكبر وأصغر؛

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٤٤٥).

لقوله: «كان يمنعني كذا وكذا»[١]، وأما الشرك الأكبر فلا يجوز أن يؤخر إنكاره أو أن يمنع عنه مانع، أما شرك الألفاظ فقد تكون المصلحة والفقه - فقه الدعوة وفقه ترتيب الأهم والمهم وتقديم الأهم على المهم - أن يؤخر بعضه لتتم المصلحة العظمى، أما الشرك الأكبر فلا مصلحة تبقى مع وجوده[٢].

المقصد الثالث: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو الحث على الاعتراف بنعم الله، وشكره سبحانه على ذلك، وعدم الانشغال عن هذا بالأسباب، والقوة، والفطنة، ونحو ذلك.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أهمية شكر نعم الله تعالى، وذلك من تمام التوحيد، ومن كماله.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أراد المؤلف في هذا الباب الحث على الاعتراف بنعم الله، وشكره سبحانه على ذلك، وأن إضافة النعم إلى غير الله كفر ينافي التوحيد.

---

(١) وهو حديث الطفيل - أخو عائشة لأمها - قال: «رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته قال: هل أخبرت بهاأحدا قلت: نعم، قال: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " أما بعد، فإن طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده». أخرجه ابن ماجة (٢١١٨)، وصححه البوصيري في مصباح الزجاجة (٢ / ١٥١)، وأورده الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تحت: باب قول ما شاء الله وشئت.

(٢) ينظر: «التهيد» (ص ٤٦٦).

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر المصنف أهمية الإيمان بالأسماء والصفات ناسب أن يذكر أهمية نسبة الفضائل والنعم إليه تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فإن ما في الوجود من الفضائل إنما هي من آثار أسمائه تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وصفاته.

أو يقال: إن ثمة ألفاظا يستعملها كثير من الناس في مقابلة النعم أو في مقابلة اندفاع النقم وتكون تلك الألفاظ نوع شرك بالله - جل وعلا - بل هي شرك أصغر بالله - جل وعلا - فنبه الشيخ - رحمه الله - بهذا الباب على ما ينافي كمال التوحيد من الألفاظ، وأن نسبة النعم إلى الله - جل وعلا - واجبة[١].

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

أثر مجاهد: «هذا مالي»: استدل به لما فيه من بيان أن من إنكار نعمة الله التبجح بحصولها، ونسبة ذلك إلى النفس.

أثر عون بن عبد الله: «لولا فلان»: أورده أيضًا لما فيه من ذم مَن عَلَّق الأمر بغير الله تعالى.

أثر ابن قتيبة: «يقولون: هذا بشفاعة»: ذكره كذلك لما فيه من أن الكافرين ينسبون النعم إلى آلهتهم، والواجب على المسلم أن يخالفهم، وأن ينسب النعمة إلى مسديها وهو الله تعالى مسبب الأسباب.

المقصد الرابع: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: إضافة النعم إلى الله تعالى من تمام التوحيد:

لا يتحقق الإيمان والتوحيد إلا بإضافة النعم إلى الله قولًا واعترافًا؛ فمن أنكر نعم الله بقلبه ولسانه فهو كافر ليس معه من الدين شيء.

ومن أقر بقلبه أن النعم كلها من الله وحده، وهو بلسانه تارة يضيفها إلى الله، وتارة إلى نفسه وعمله، أو إلى سعي غيره، فهذا شرك أصغر، منافٍ لكمال التوحيد، ويجب على العبد أن يتوب منه.

---

(١) ينظر: «التمهيد» لصالح آل الشيخ (ص٤٤٤).

وأما من أضاف النعم أو نزولها إلى أحد غير الله تعالى كأن يضيفها إلى الأصنام، والأوثان، والآلهة التي تعبد من دون الله، أو يزعم أن الولي هو الذي أنزلها، أو أن فلانا هو الذي دبرها فهذا كفر، وهذا هو الذي كان يقوله المشركون، حيث كانوا يضيفون النعم إلى آلهتهم، ويزعمون أنها نزلت بشفاعتهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [النحل:٨٣]،

وقد أخبر الله تعالى أنه أنعم على الخلق بالنعم الكثيرة التي هي ظاهرة وبينة ومع هذا الظهور ينكر الكافرون نعمة الله تعالى، ويخفي الجاهلون نعم الله تعالى.

قال ابن القيم رحمه الله: «فذكرهم بأصول النعم، وفروعها، وعدَّدها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنه أنعم بذلك عليهم؛ ليسلموا له، فتكمل نعمه عليهم بالإسلام الذي هو رأس النعم، ثم أخبر عمَّن كَفَرَهُ، ولم يَشكُر نعمه، بقوله: ﴿**يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا**﴾ [النحل:٨٣]، قال مجاهد: المساكن والأنعام، وسرابيل الثياب والحديد، عرفه كفار قريش ثم ينكرونه، بأن يقولوا: هذا كان لآبائنا وورثناه عنهم، ... وقالت طائفة النعمة ههنا: محمد صلى الله عليه وسلم، وإنكارها: جحدهم نبوته، وهذا يُروى عن مجاهد، والسدي، وهذا أقرب إلى حقيقة الإنكار، فإنه إنكار لما هو من أجلِّ النعم أن تكون نعمة»(١).

الفقرة الثالثة: وجوب شكر الله تعالى على النعم وكيفيته:

الواجب على الخلق إضافة النعم إلى الله قولًا واعترافًا، وشكره عليها، والشكر هو رأس الإيمان، وهو مبني على ثلاثة أركان:

١ ـ اعتراف القلب بنعم الله كلها على الإنسان وعلى غيره.

٢ ـ الحديث بها والثناء على الله بها.

٣ـ الاستعانة بها على طاعة المنعم وعبادته وهذا هو الشكر العملي بالجوارح.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات

---

(١) ينظر: «شفاء العليل» لابن القيم (١/١٢٤) ط عالم الفوائد.

المناقضة لمقاصد الباب:

«وهكذا كلٌّ ينسب النعمة إلى من يعظمه من الآباء والآلهة والأشخاص، متناسين مصدرها الصحيح، والمنعم بها على الحقيقة، وهو الله سبحانه.

كما أن بعضهم ينسب نعمة السير في البحر والسلامة من خطره إلى الريح وحذق الملاح، فيقول: كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا.

ومثله اليوم ما يجري على ألسنة الكثير من نسبة حصول النعم واندفاع النقم إلى مجهود المؤسسات والأفراد أو تقدم العلم التجريبي؛ فيقولون مثلًا: تقدم الطب تغلب على الأمراض أو قضى عليها، والمجهودات الفلانية تقضي على الفقر والجهل ... وما أشبه ذلك من الألفاظ التي يجب على المسلم أن يبتعد عنها ويتحفظ منها غاية التحفظ، وأن ينسب النعم إلى الله وحده، ويشكره عليها، وما يجري على يد بعض المخلوقين أفرادًا أو جماعات من المجهودات إنما هي أسباب قد تثمر وقد لا تثمر، وهم يشكرون على قدر ما بذلوه، ولكن؛ لا يجوز نسبة حصول النتائج إلا إلى الله سبحانه»[١].

(١) ينظر: «الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ١١٤).

٤٢- باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢].

١- قال ابن عباس في الآية: «الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لآتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لآتانا اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلانا، هذا كله به شرك»(١) رواه ابن أبي حاتم.

٢- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك»(٢) رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.

٣- وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا، أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا»(٣).

٤- وعن حذيفة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**»(٤) رواه أبو داود بسند صحيح.

٥- وجاء عن إبراهيم النخعي: أنه يكره: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك(٥)، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانية: أن الصحابة - رضي الله عنهم - يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر بأنها تعم الأصغر.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٢/١) بإسناد حسن، وروى بعضه الطبري في «تفسيره» (٣٩٢/١).

(٢) رواه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، لكنه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٤٦٨/٨ برقم ١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧٩/٣ برقم ١٢٢٨١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٨٣ برقم ٨٩٠٢) وإسناده صحيح.

(٤) رواه أبو داود (٤٩٨٠)، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٣٧).

(٥) رواه عبد الرزاق كما في «جامع معمر بن راشد» (٢٧/١١ برقم ١٩٨١١).

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقًا فهو أكبر من اليمين الغموس.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

الترجمة السابقة على قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا**﴾ [البقرة:١٦٥] الآية، يقصد بها الشرك الأكبر بأن يجعل لله ندا في العبادة والحب والخوف والرجاء وغيرها من العبادات، وهذه الترجمة المراد بها الشرك الأصغر كالشرك في الألفاظ كالحلف بغير الله، وكالتشريك بين الله وبين خلقه في الألفاظ كـ: لولا الله وفلان، وهذا بالله وبك، وكإضافة الأشياء ووقوعها لغير الله كـ: لولا الحارس لآتانا اللصوص، ولولا الدواء الفلاني لهلكت، ولولا حذق فلان في المكسب الفلاني لما حصل، فكل هذا ينافي التوحيد.

والواجب أن تضاف الأمور ووقوعها ونفع الأسباب إلى إرادة الله وإلى الله ابتداء، ويذكر مع ذلك مرتبة السبب ونفعه، فيقول: لولا الله ثم كذا ليعلم أن الأسباب مربوطة بقضاء الله وقدره، فلا يتم توحيد العبد حتى لا يجعل لله ندا في قلبه وقوله وفعله.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معرفة معنى آية الباب وأحاديثه إجمالًا:

قوله تعالى: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال السعدي: «{**فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا**} أي: نظراء وأشباها من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم، مخلوقون، مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون، {**وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**} أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق، والرزق، والتدبير، ولا في العبادة فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو [ذكر] توحيد الربوبية، المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد

مقرا بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن [الله] لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك»[1].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

تحذير الناس من اتخاذ الأنداد مع الله تبارك وتعالى مطلقا، لا في الأفعال ولا في الأقوال.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في النهي عن اتخاذ الند -وهو المعبود- من دون الله تعالى، وهذا النهي يشمل العبارات والألفاظ، ومن ضمن ذلك الحلف، أو ما كان فيه تسوية لله تعالى بغيره من المخلوقين ولو في اللفظ؛ فإن من تمام التوحيد أن يكون المسلم محافظا على التوحيد في قلبه، وقوله، وعمله.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أراد المؤلف بهذا الباب تحذير الناس من اتخاذ الأنداد لله تعالى في الحلف ونحوه؛ لأن هذا شرك أصغر ينافي كمال التوحيد، وقد يكون شركا أكبر.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر المصنف في الباب الذي قبله أن النعم من الله تعالى، وأنه هو المسدي لها، وهو الحافظ لها؛ ناسب أن يردفه بهذا الباب الذي فيه النهي عن اتخاذ الأنداد، سواء في العبادة أو اللفظ.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٤٤).

أثر ابن عباس: فيه الدلالة على أن اتخاذ الأنداد، يعني: اتخاذ الشركاء مع الله تعالى، ولو في الألفاظ التي تدل على مطلق التسوية، وإن كان القائل لا يعني ذلك المعنى.

حديث: «من حلف بغير الله»: فيه التصريح من النبي صلى الله عليه وسلم على أن من حلف بغير الله فقد وقع في الشرك.

قول ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا»: فيه تعظيم الصحابة من شأن الشرك، وأنه أعظم من الكبائر.

حديث حذيفة: «لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان»: أورده لما فيه من النهي عن التسوية في اللفظ ولو لم يكن معنى التسوية مقصودا.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: النهي عن اتخاذ الأنداد:

نهى الله تعالى عن اتخاذ الأنداد، فقال: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:٢٢]، والأنداد جمع ندّ، وهو المثيل أو النظير، واتخاذ هذه الأنداد شرك مهما كانت: نجمًا، أو كوكبًا، أو مَلَكًا، أو إنسانًا، أو قبرًا ... إلخ.

وكيف يتخذ الإنسان ندًّا لله تعالى وهو يعلم أن الله خالقه ومالكه، وأن الأمر بيد الله تعالى لا بيد الندّ، فإن الندّ لا يملك لنفسه شيئًا.

وكيف تتخذون ندًّا مع الله، وقد علمتم أن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوكم إلى التوحيد، وهو الحق الذي لا مرية فيه(١).

والنهي عن التنديد في الآية هذا عام يشمل اتخاذ الأنداد بالشرك الأكبر ويشمل أيضا اتخاذ الأنداد بأنواع الإشراك التي دون الشرك الأكبر؛ لأن قوله: (أندادا) نكرة في سياق، النهي فتعم جميع أنواع التنديد، والتنديد منه ما هو مخرج من الملة، ومنه ما لا يخرج من الملة(٢).

الفقرة الثانية: اتخاذ الأنداد من الشرك:

(١) ينظر: «الجامع الفريد للأسئلة والأجوبة في علم التوحيد» (صـ ١٧٤).
(٢) ينظر: «التمهيد لشرح كتاب التوحيد» (ص ٤٥١، ٤٥٤).

معنى اتخاذ الأنداد: إشراك غير الله مع الله في العبادة، والأنداد: جمع ند، وهو الشبيه والنظير، أي: اتخذ شبيهًا ونظيرًا يدعوه مع الله، ويستغيث به، ويساويه بالله في المحبة والتعظيم، وهذا هو الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وهو من أسباب دخول النار، هذا هو النوع الأول من اتخاذ الأنداد.

أما النوع الثاني: فما كان من الشرك الأصغر؛ كقول الرجل: ما شاء الله وشئت، ولولا الله وأنت، والحلف بغير الله، والرياء اليسير في العمل، وهذا لا يوجب الخلود في النار وإن دخلها.

الفقرة الثالثة: الحلف بغير الله وحكمه:

إن من يقسم بغير الله من المخلوقات فقد اتخذ ذلك المحلوف به شريكًا لله إن اعتقد أن للمحلوف به من العظمة مثل ما لله، فهذا شرك أكبر، وإن لم يعتقد ذلك وإنما أقسم به من باب جري اللسان عليه؛ فهو شرك أصغر.

فالحلف بغير الله محرم في كل حال، وإنما الواجب على المكلف أن يحلف بالله تعالى إذا اضطر للحلف، ولا يجوز له أن يحلف بغير الله، لا برأسه، ولا بأمانته؛ ولا بأبيه، ولا بالنبي، ولا بالولي ولا بالكعبة، وإنما يقول: ورب الكعبة، ورب النبي، ونحو ذلك.

الفقرة الرابعة: معنى قول ابن مسعود رضي اللَّه عنه: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليَّ من أحلف بغيره صادقًا»:

يقصد بذلك رضي اللَّه عنه أن الحلف بغير الله تعالى حتى ولو كان الحالف صادقًا أشد وأخطر من الحلف بالله كاذبًا؛ لأن الحلف بالله كاذبًا من كبائر الذنوب، وأما الحلف بغير الله تعالى فقد أطلق عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسم الشرك والكفر، ففيه تعظيم لغير الله عَزَّوَجَلَّ، ومساواة له بالله تعالى، فكان أخطر من هذا الوجه.

فالحلف بالله تعالى صادقًا هو المطلوب، ومن حلف بالله كاذبًا كان صاحب يمين غموس وارتكب كبيرة من كبائر الذنوب، وأما الحلف بغير الله فشرك سواء صدق أم لا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (لأن الحلف بغير الله شرك، والحلف بالله توحيد، وتوحيد معه كذب خير من شرك معته صدق، ولهذا كان غاية

الكذب أن يعدل بالشرك)[١].

الفقرة الخامسة: النهي عن مساواة الخالق بالمخلوق ولو في اللفظ:

نهى الشارع عن مساواة الخالق بالمخلوق في جميع الأمور، سواء في الفعل، أو اللفظ، أو التعظيم وغيره، ومن ساوى المخلوق بالخالق في الحلف فقد أشرك في الحلف بغير الله؛ لأن الحلف بالشيء يقتضي تعظيمه؛ والعظمة الحقيقية إنما هي لله وحده.

والتشريك بين الله وبين خلقه في الألفاظ مثل : لولا الله وفلان، وهذا بالله وبك، وأعوذ بالله وبك، فأتى بحرف (و) التي تفيد التسوية في اللغة، وكإضافة الأشياء لغير الله مثل: لولا الحارس لأتانا السارق، ولولا الدواء الفلاني لهلكت، وهذا شرك من باب ربط الأمر بسببه، وعدم ربط الأمر بالمسبب وهو الله تعالى.

فالواو تقتضي مساواة المعطوف للمعطوف عليه، والواجب أن تضاف الأمور كلها إلى الله ابتداء، وبعد ذلك تضاف إلى الأسباب المحسوسة؛ فيقال: لولا الله ثم كذا، ولولا الله ثم فلان لغرق فلان؛ لأن السبب الأول والوحيد هو الله، وهذه أسباب فرعية فلا ينبغي أن توكل إليها الأمور، بل لله وحده الأمر من قَبلُ ومن بَعد.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

وهو ما عليه عباد القبور في الأزمنة المتأخرة من الحلف بغير الله تعالى، والحلف بالله تعالى.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله رحمه الله: (لكن الذي يفعله عباد القبور إذا طلبت من أحدهم اليمين بالله، أعطاك ما شئت من الأيمان صادقًا أو كاذبًا. فإذا طلبت منه اليمين بالشيخ أو تربته أو حياته، ونحو ذلك، لم يقدم على اليمين به إن كان كاذبًا. فهذا شرك أكبر بلا ريب، لأن المحلوف به عنده أخوف وأجل وأعظم من الله. وهذا ما بلغ إليه شرك عباد الأصنام، لأن جهد اليمين عندهم هو

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٨١/١).

الحلف بالله) [١].[٢].

(١) تيسير العزيز الحميد (ص٥١٤).

(٢) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٥١، ٤٥٤).

٤٣- باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله**» رواه ابن ماجه بسند حسن[1].

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.

الثالثة: وعيد من لم يرض.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله:

ويراد بهذا إذا توجهت اليمين على خصمك وهو معروف بالصدق أو ظاهره الخير والعدالة، فإنه يتعين عليك الرضا والقناعة بيمينه؛ لأنه ليس عندك يقين يعارض صدقه، وما كان عليه المسلمون من تعظيم ربهم وإجلالهم يوجب عليك أن ترضى بالحلف بالله، وكذلك لو بذلت له اليمين بالله فلم يرض إلا بالحلف بالطلاق، أو دعاء الخصم على نفسه بالعقوبات، فهو داخل في الوعيد؛ لأن ذلك سوء أدب وترك لتعظيم الله، واستدراك على حكم الله ورسوله.

وأما من عرف منه الفجور والكذب، وحلف على ما تيقن كذبه فيه، فإنه لا يدخل تكذيبه في الوعيد للعلم بكذبه، وأنه ليس في قلبه من تعظيم الله ما يطمئن الناس إلى يمينه، فتعين إخراج هذا النوع من الوعيد؛ لأن حالته متيقنة، والله أعلم.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى حديث الباب إجمالًا:

ينهى ﷺ عن الحلف بالآباءِ؛ لأنَّ الحلف تعظيم للمحلوفِ بِهِ، والتعظيم حقٌّ

---

(١) رواه ابن ماجه (٢١٠١)، وقال البوصيري في «الزوائد»: «رجال إسناده ثقات».

لله سبحانه، ثم يأمرُ ﷺ مَنْ حَلف باللهِ أنْ يكونَ صادقاً فيما يحلف عليه؛ لأنَّ الصدق ممَّا أوجبَهُ اللهِ على عبادِهِ مطلقاً، فكيف إذا حلفوا بالله! ويأمرُ من حُلِفَ لَهُ باللهِ فى خصومةٍ أو غيرِهَا أنْ يرضَى باليمين؛ لأنَّ ذلك مِنْ تعظيم الله، ثم يبين صلى الله عليه وسلم الوعيد الشديد في حق من لم يرض بالحلف بالله؛ لأن ذلك يدل على عدم تعظيمه لله(١).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان وجوب الاقتناع باليمين بالله وإن كان في نفسه شيء من صدق الحالف، أو علم كذبه؛ فإن المؤمن يرضى بالحلف بالله، فهو حكم الله أن يحلف به، وهو قضاؤه وشرعه.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن الواجب على المسلم أن يقتنع بالحلف بالله تعالى، ولا يرضى عن ذلك بديلًا، وأن من لم يرضَ بالحلف بالله؛ فإن في توحيده نقصا، وذلك لأن من كمل في قلبه جناب الرب عَزَّوَجَلَّ وعلم حقيقة أسمائه وصفاته؛ فإنه لا يرضى عنه بديلًا.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف هذا الباب لبيان وجوب اكتفاء الشخص باليمين بالله تعالى، وإن كان في نفسه شيء من صدق الحالف فعليه أن يقنع ويرضى به؛ لأنه ليس للناس إلا ما ظهر، والحلف بالله يجب أن يحترم، وأن يعظم من الحالف والمحلوف له، وأن الاستهانة بذلك منافية للتوحيد، وهي من الاستخفاف بالله والتنقص له.

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٣٢٨).

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر المصنف في الباب السابق أهمية تعظيم الله تعالى، وعدم تسويته بالخلق ولو في اللفظ، ناسب أن يذكر وجوب تعظيم الله تعالى في قبول الحلف به، وعدم الاستهانة بالحلف به، والرضا بالحلف به، وعدم الالتفات إلى المحلوفين بهم من الخلق.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بحديث الباب:

أورد الحديث لما فيه من الدلالة على ذم من لم يرضَ بالحلف بالله تعالى.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: النهي عن الحلف بالآباء:

كانت العرب في الجاهلية تحلف بآبائها، وبالمعظمين لديهم، وكان هذا موجودًا أول الإسلام، ثم نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه، وحذر منه، وقال: «**لا تحلفوا بآبائكم**»؛ لأن ذلك يستلزم تعظيم المخلوقين، والخضوع لهم، والإسلام يربأ بأبنائه عن الخضوع لغير الله، ويُنشئهم على تعظيم الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ويربيهم على الخضوع لله عَزَوَجَلَّ، وأن المُعَظَّم بحق هو المولى الذي بيده النواصي، والذي بيده الأمور، والذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم [(١)] .

الفقرة الثانية: عاقبة من لم يقتنع بالحلف بالله:

---

(١) قال القرطبي في «تفسيره» (٦ / ٢٦٩-٢٧١) مبينًا ما يجوز الحلف به: «المحلوف به:
١ - هو الله سبحانه.
٢ - وأسماؤه الحسنى؛ كالرحمن والرحيم، والسميع والعليم، والحليم، ونحو ذلك من أسمائه.
٣- وصفاته العليا: كعزته وقدرته وعلمه وإرادته وكبريائه وعظمته، وعهده، وميثاقه، وسائر صفات ذاته؛ لأنها يمين بقديم غير مخلوق فكان الحالف بها كالحالف بالذات... فمن كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت، وهذا حصر في عدم الحلف بكل شيء سوى الله تعالى وأسمائه وصفاته كما ذكرنا».

الحلف بالله يجب أن يُحترم، وأن يُعَظَّم من الحالف، ويجب على المحلوف له أن يرضى وأن يقنع بالحلف بالله؛ لأنه ليس للناس إلا ما ظهر، ويقبل عذر أخيه المسلم إذا حلف له بالله ما لم يتحقق كذبه؛ لأن ذلك حسن ظن بأخيه المسلم.

ثم لا يجوز لمسلم أن يطلب من أحد أن يحلف بمعظم عنده، ولو كان يعلم المحلوف له أن هذا الحالف يعظم المحلوف به أشد من تعظيمه الله عَزَوَجَلَّ، وعليه أن يكل أمره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ويظهر إيمانه بالله ورضاه باسمه إذا ذكر، وأن يعلم أن الله تعالى يكفيه إن كان الحالف كاذبًا، وأن يرضى بذلك، ومن لم يرضَ فليس من الله في شيء؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «**ومن لم يرضَ فليس من الله**»، وهذا وعيد على من لم يرض بحكم الله، ولم يطمئن إليه، ووعيد على من لم يرضَ باسم الله، والحلف بالله عَزَّوَجَلَّ.

٤٤- باب قول: «ما شاء الله وشئت»

١- عن قُتَيْلَةَ: أن يهوديًّا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: **«ورب الكعبة»**، وأن يقولوا: **«ما شاء الله ثم شئت»**[1] رواه النسائي وصححه.

٢- وله أيضًا عن ابن عباس: أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: ما شاء الله وشئت. فقال: **«أجعلتني لله ندًّا؟ بل ما شاء الله وحده»**[2].

٣- ولابن ماجه، عن الطفيل أخي عائشة لأمها، قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون عزير ابن الله، قالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى، فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وأنتم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته، قال: **«هل أخبرت بها أحدًا؟»**، قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن طفيلًا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»[3].

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

الثالثة: قوله صلى الله عليه وسلم: **«أجعلتني لله ندًّا؟»**. فكيف بمن قال: يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك، والبيتين بعده؟

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر؛ لقوله: **«يمنعني كذا وكذا»**.

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

السادسة: أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام.

---

(١) رواه النسائي (٣٧٧٣)، وصححه الحاكم، ووافقه الحافظ في «إتحاف المهرة» (٢٣٣٣٥).
(٢) رواه أحمد (١٨٣٩)، وابن ماجه (٢١١٧)، وحسنه البوصيري، والألباني.
(٣)رواه أحمد (٢٠٦٩٤)، وابن ماجه (٢١١٨)، وصححه البوصيري، والألباني.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: قول: ما شاء الله وشئت:

هذه الترجمة داخلة في الترجمة السابقة ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا**﴾ [البقرة:٢٢].

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى حديث الباب إجمالًا:

ذَكَرَ هذا اليهودي للنبي ﷺ أنَّ بعض المسلمين يقع في الشرك الأصغر حينما تصدر منه هذه الألفاظ التي ذكرَهَا ، فَأَقرَّه النبيُّ ﷺ على اعتبارِهَا مِنَ الشرك، وأرشد إلى استعمالِ اللفظ البعيدِ مِنَ الشرك بأن يحلفوا بالله، وأن يعطفوا مشيئة العبدِ على مشيئة الله بـ (ثم) التي هي للترتيب والتراخي، لتكونَ مشيئة العبدِ تابعةً لمشيئة الله(١).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان حكم قول: «ما شاء الله وشاء فلان»، وما أشبه ذلك، وأنه يجب أن يقول: «ثم»، وهذا مقتضى التوحيد والإخلاص، والبعد تمامًا عن الشرك دقيقه وجليله.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان حكم التلفظ بقول: «ما شاء الله وشئت»، وأن تركه من تمام التوحيد وكماله، ولو لم يقصد التسوية.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٣٣١).

عقد المؤلف هذا الباب لبيان حكم قول: «ما شاء الله وشاء فلان»، وأنه يجب أن يقول المرء: «ما شاء الله ثم شاء فلان»، وهذا هو مقتضى التوحيد؛ لأن اللفظ يوهم التشريك، ولو لم يقصده اللافظ، فالتشريك بين الله وبين خلقه في المشيئة لفظًا من الشرك الأصغر المنافي لكمال التوحيد، وأما لو قصد التسوية فهذا شرك أكبر ناقض للتوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بين في الباب السابق أهمية الرضا بالحلف بالله تعالى تعظيمًا لجناب الله تعالى وحده، بيَّن في هذا الباب أمرًا آخر فيه تعظيم للرب تبارك وتعالى، وتنزيه عن المساوي، ولو من حيث اللفظ، وهو النهي عن قول: «ما شاء الله له وشئت».

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

حديث: «أن يهوديًا أتى النبي»: أورده المصنف لما فيه من التسوية في اللفظ، والأمر بإتيان حرف لا يدل على التسوية في النهي.

حديث ابن عباس: «أجعلتني الله ندًّا»: فيه الدلالة على أن التسوية في اللفظ نوع شرك، وكذا حديث الطفيل رضي الله عنه.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: حكم قول: «ما شاء الله وشئت»:

حكم قول «ما شاء الله وشئت» أنه حرام، وهو شرك أصغر؛ لما فيه من المشاركة والمساواة في المشيئة بين الخالق والمخلوق لفظًا.

وقد يكون من الشرك الأكبر إذا أراد للعبد مشيئة مستقلة يتصرف فيها من دون الله، أو أن مشيئة العبد كمشيئة الرب.

الفقرة الثانية: اللفظ الصحيح قول: «ما شاء الله ثم شاء فلان»:

مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله؛ فلا يجوز الجمع بينهما بالواو؛ لأنها تقتضي

التشريك والمساواة، وإنما يؤتى بـ(ثم)، فيقال: ما شاء الله ثم شاء فلان؛ لأنها تقتضي الترتيب والتبعية لا التشريك والمساواة، مع وجوب اعتقاد أن مشيئة العبد مهما بلغت فإنها لا تخرج عن مشيئة الرب عَزَّوَجَلَّ، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وما شاءه العبد فإنه قد يكون وقد لا يكون.

الفقرة الثالثة: قول: «ما شاء الله وحده» أسلم:

أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من قال له: «ما شاء الله وشئت»؛ فقال: «**أجعلتني الله ندًّا؟**»؛ لأنه عطف مشيئة المخلوق على مشيئة الله الخالق، وهو شرك، ثم أرشده إلى القول الحق، وذلك بأن يفرد الله في مشيئته، ولا يعطف على مشيئته أحدًا؛ فقال له : «**قل: ما شاء الله وحده**»، وهو أفضل من قول: «ما شاء الله ثم شاء فلان»، وإن كان جائزًا هذا أيضًا؛ فقول: «ما شاء الله» أكمل في الإخلاص، وأبعد عن الشرك من غيرها.

الفقرة الرابعة: الرؤيا الصالحة وحكم العمل بها:

الرؤيا الصالحة جزء من النبوة، ومن أقسام الوحي بالنسبة إلى الأنبياء مطلقًا، وبالنسبة إلى غيرهم فإنها إن وافقت الشرع فهي مبشرات، وإن لم توافق فهي ليست من الرؤيا الصالحة.

وقد تكون الرؤيا الصالحة سببًا لتشريع الأحكام في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم فلا يجوز العمل بالرؤيا في تحريم الحلال أو تحليل الحرام.

والرؤيا ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الرؤية الصحيحة الصالحة، وهي أمثال يضربها الله للنائم؛

فهذه رؤيا صحيحة.

النوع الثاني: ما يكون من الشيطان بسبب أن النائم لم يستعمل الأوراد الشرعية عند النوم، فإذا رأى النائم شيئًا من ذلك فليتحول عن جنبه الذي كان عليه إلى الجنب الآخر، وينفث عن يساره ثلاث مرات، ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، ولا يحدث بها أحدًا فإنها لا تضره.

النوع الثالث: أضغاث أحلام، وهي أفكار كان يفكر بها في اليقظة فتتوارد

في نومه، أو بسبب أخلاط الجسم، كأن يكون جائعًا فيرى الطعام الكثير، ونحو ذلك.

٤٥- باب من سبَّ الدهر فقد آذى الله

١- وقول الله تعالى: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾(١).

٢- وفي «الصحيح» عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**» (٢).

٣- وفي رواية: «**لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر**» (٣).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر.

الثانية: تسميته أذى لله.

الثالثة: التأمل في قوله: «**فإن الله هو الدهر**».

الرابعة: أنه قد يكون سابًّا ولو لم يقصده بقلبه.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

وهذا واقع كثير في الجاهلية، وتبعهم على هذا كثير من الفساق والمجان والحمقى، إذا جرت تصاريف الدهر على خلاف مرادهم جعلوا يسبون الدهر والوقت، وربما لعنوه، وهذا ناشئ من ضعف الدين ومن الحمق والجهل العظيم، فإن الدهر ليس عنده من الأمر شيء، فإنه مدبر مصرف، والتصاريف الواقعة فيه تدبير العزيز الحكيم، ففي الحقيقة يقع العيب والسب على مدبره، وكما أنه نقص في الدين فهو نقص في العقل، فبه تزداد المصائب ويعظم وقعها، ويغلق باب الصبر الواجب، وهذا مناف للتوحيد، أما المؤمن فإنه يعلم أن التصاريف واقعة بقضاء الله وقدره وحكمته، فلا يتعرض لعيب ما لم يعبه الله ولا رسوله، بل يرضى بتدبير الله ويسلم لأمره، وبذلك يتم توحيده وطمأنينته.

---

(١) الجاثية: ٢٤.
(٢) رواه البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).
(٣) رواه مسلم (٢٢٤٦-٢٢٤٧)، وبنحوه البخاري (٦١٨٢) من حديث أبي هريرة أيضًا.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آية هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

قال السعدي: «**﴿وَقَالُوا﴾** أي: منكرو البعث **﴿مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ﴾** أي: إن هي إلا عادات وجري على رسوم الليل والنهار يموت أناس ويحيا أناس، وما مات فليس براجع إلى الله ولا مجازى بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم **﴿إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ﴾** فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين من غير دليل دلهم على ذلك ولا برهان، إن هي إلا ظنون واستبعادات خالية عن الحقيقة»[١].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان أن سب الدهر وغيره من المعاصي من جملة الأشياء التي تنقص التوحيد، وتضعفه، وتنافي كماله، فالواجب الحذر من الأسباب التي تضعف الإيمان؛ كَسَب الدهر، وسب الريح ، وسب ما لا يستحق السب.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أهمية تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيم أفعاله وتقديراته في الدهر والزمان، وأن نسبة السوء إلى الدهر يعني نسبة السوء إلى الله تعالى، وذلك نقص في التوحيد.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٧٧٧).

عقد المؤلف هذا الباب لبيان أن سب الدهر وغيره من جملة الأشياء التي تناقض التوحيد، وتضعفه، وتنافي كماله؛ لأنه مسبة لله، ومن سب الدهر فقد آذى الله؛ لأن الدهر مخلوق يدبره الله .

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بين المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ أن من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ عدم الحلف بغيره، وعدم

تسوية مشيئته بمشيئة المخلوقين، بين في هذا الباب أن من تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ عدم نسبة السوء إلى فعله وتصرفه وتدبيره في الزمان والدهر؛ فإن ذلك مخالف للتعظيم.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾: أوردها المصنف لبيان أن نسبة الأمور إلى الدهر؛ وهو الزمان، من فعل الملاحدة، فمن سب الدهر فقد ظن أن للدهر تصرفًا في الأمور، والحال أنها مدبرة.

حديث: «يؤذيني ابن آدم»: فيه ذم مَن سب الدهر، وبيان أن المتصرف في الأمور هو الله تعالى، وأنه هو المدبر المتصرف.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: نسبة الإحياء والإماتة إلى الدهر كفر:

إن من معاني التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله: نسبة الإحياء والإماتة والضر والنفع إلى الله، ومن نسبها إلى غيره فقد كفر.

وقد كان بعض أهل الجاهلية من الكفار لا يؤمنون بحياةٍ غير الحياة الدنيا، ويظن بعضهم أنه لا رب لهم، إنما يفنيهم مَرُّ الليالي والأيام، وهذا الاعتقاد فشا اليوم في الناس باسم الشيوعية والوجودية والإلحادية، فيقولون: «إنما هي أرحام تدفع، وأرض تبلع»، وينسبون الأمور إلى الطبيعة، متناسين أن الطبيعة صماء بكماء شلاء لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرا فكيف تدبر الحياة؟ ويجب على

المسلمين أجمعين محاربة هذا الكفر، وهذا الانحلال والإلحاد تحت أي مسمى كان، وفي أي مكان كان.

الفقرة الثانية: سب الدهر أذية لله تعالى:

والسب: أصله القطع، ثم اشتق الشتم، وأكثر الباب موضوع عليه، وقد سبه يسبه بمعنى قطعه(١).

والدهر: أصله الغلبة والقهر، وسمي الدهر دهرا؛ لأنه يأتي على كل شيء ويغلبه، والدهر الزمان، والدهر عند العرب يقع على بعض الدهر الأطول، ويقع على مدة الدنيا كلها، وهو الأمد المدود(٢).

وسب الدهر: هو شتمه ولعنه، والدعاء عليه عند نزول المصائب والمكاره، فيؤذي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أو يقال: سب الدهر هو التنقص، أو الشتم، فيكون بتنقص الدهر، أو يكون بلعنه، أو بشتمه، أو بنسبة النقائص إليه، أو بنسبة الشر إليه، ونحو ذلك، ومثله سب الريح(٣).

قال الشافعي في تأويله: «والله أعلم إن العرب كان من شأنها أن تذم الدهر، وتسبه عند المصائب التي تنزل بهم من موت أو هرم أو تلف أو غير ذلك؛ فيقولون: إنما يهلكنا الدهر، وهو الليل والنهار، ويقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر؛ فيجعلون الليل والنهار يفعلان الأشياء؛ فيذمون الدهر بأنه الذي يفنيهم ويفعل بهم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تسبوا الدهر**»، على أنه الذي يفنيكم، والذي يفعل بكم هذه الأشياء؛ فإنكم إذا سببتم فاعل هذه الأشياء فإنما تسبون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فإنه فاعل هذه الأشياء»(٤). انتهى.

والظاهر أن المشركين بالنسبة إلى الدهر نوعان:

أحدهما: من يعتقد أن الدهر هو الفاعل فيسبه لذلك؛ فهؤلاء هم الدهرية.

الثاني: من يعتقد أن المدبر للأمور هو الله وحده لا شريك له، ولكن يسبون

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة للأزهري (٣١٢/١٢)، ومقاييس اللغة (٦٣/٣).

(٢) انظر: الصحاح للجوهري (٦٦١/٢)، ومقاييس اللغة (٣٠٥/٢).

(٣) ينظر: انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد لصالح آل الشيخ (ص٤٦٨).

(٤) ينظر: «السنن الكبرى» (٥٠٩/٣)، و«معرفة السنن والآثار» للبيهقي (٧٢٩٠).

الدهر لما يجري عليهم فيه من المصائب والحوادث، فيضيفون ذلك إليه من إضافة الشيء إلى محله؛ لا لأنه عندهم فاعل لذلك، والحديث صريح في النهي عن سب الدهر مطلقًا، سواء اعتقد أنه فاعل أو لم يعتقد ذلك، كما يقع كثيرًا ممن يعتقد الإسلام(١).

أما وصف الزمان والدهر بالشدة، فليس من السب، كأن يقول: هذا اليوم شديد البرد، وهذا يوم شديد الحر، واليوم لاقينا أمرًا صعبًا، ونحو ذلك مما فيه بيان للحال(٢).

وفي سب الدهر ثلاث مفاسد عظيمة (٣):

المفسدة الأولى: أن من سب الدهر فقد آذى الله؛ لأنه هو الذي يُجري هذه الأفعال وحده والدهر مخلوق مدبر من الله وظرف مسخر ليس في يده التصرف.

والمفسدة الثانية: أن فيه نسبة التصرف إلى الدهر، وهو جحود بربوبية الله تعالى.

والمفسدة الثالثة: أنه سب من ليس أهلًا للسب.

الفقرة الثالثة: أمثلة على سب الدهر:

كأن يقول:

١ ـ قاتل الله هذه الساعة التي رأيتك فيها.

٢ ـ قاتل الله اليوم الذي رسبت فيه في الاختبار.

٣ـ لعن الله الساعة التي جاء فيها المطر.

٤ ـ لعن الله اليوم الذي مات فيه فلان.

الفقرة الرابعة: الدهر ليس من أسماء الله تعالى:

---

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (صـ ٥٤٤ـ٥٤٥).

(٢) ومن ذلك: {**وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ**} [هود: ٧٧].

(٣) ينظر: «زاد المعاد» (٢/٣٥٤ـ٣٥٥).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «قد أجمع المسلمون -وهو مما علم بالعقل الصريح- أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليس هو الدهر، الذي هو الزمان، أو ما يجري مجرى الزمان»(١).

وقوله: «وأنا الدهر» لا يعني أن الدهر من أسماء الله - جل وعلا -، ولكنه رتبه على ما قبله، وهو قوله: «يسب الدهر وأنا الدهر»؛ لأن حقيقة الأمر أن الدهر لا يملك شيئا ولا يفعل شيئا، فسب الدهر سب لله؛ لأن الدهر يفعل الله - جل وعلا - فيه، فهو ظرف للأفعال وليس مستقلا؛ فلهذا لا يفعل، ولا يحرم، ولا يعطي، ولا يكرم، ولا يهلك، وإنما الذي يفعل هذه الأشياء مالك الملك المتفرد بالملكوت وتدبير الأمر الذي يجير ولا يجار عليه.

فقوله - إذا -: «وأنا الدهر» فيه نفي نسبة الأشياء إلى الدهر، وأن هذه الأشياء تنسب إلى الله - جل وعلا - فيرجع مسبة الدهر إلى مسبة الله - جل وعلا -؛ لأن الدهر لا ملك له، والله هو الفاعل.

«أقلب الليل والنهار»: والليل والنهار هما الدهر، فالله - جل وعلا - هو الذي يقلبهما، فليس لهما من الأمر شيء(٢).

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

تقدم في كلام الشيخ السعدي وثنايا شرح المقاصد مظاهر انحراف بعض الناس في هذا الباب.

---

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٢/ ٤٩٤).
(٢) انظر: التمهيد (٤٦٩-٤٧٠).

٤٦- باب التسمي بقاضي القضاة

١- في «الصحيح» عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**إن أَخْنَعَ اسْمٍ عند الله، رَجُلٌ تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله**»[(١)].

٢- قال سفيان: مثل شَاهَانْ شَاهْ[(٢)].

٣- وفي رواية: «**أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه**»[(٣)].

قوله: «**أخنع**» يعني: أوضع.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك.

الثانية: أن ما في معناه مثله كما قال سفيان.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لإجلال الله سبحانه.

(يأتي تعليق السعدي على هذا الباب مع الباب الذي يليه؛ للمناسبة بينهما)

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى حديث الباب إجمالًا:

في الحديث الزجر عن التسمية بـ«ملك الأملاك» وما شابهها من التسميات التي لا تليق إلا بالله تعالى، والوعيد على ذلك يقتضي المنع منه مطلقًا؛ لما فيه من المضاهاة لله تعالى، وسواء أراد من تسمى بذلك أنه ملك على ملوك الأرض أم على بعضها، وسواء كان محقًّا في ذلك أم مبطلًا.

---

(١) رواه البخاري (٦٢٠٦)، ومسلم (٢١٤٣).
(٢) قول سفيان قاله عقب رواية الحديث؛ كما في التخريج السابق.
(٣) رواه مسلم (٢١٤٣).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان حكم الأسماء التي يكون لها تعلق بمشابهة أسماء الله تعالى؛ لأنه سبحانه له أسماء يختص بها ليس لأحد أن يتسمَّى بها، مثل: مالك الملك، وأرحم الراحمين، ونحو ذلك.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان وجوب البعد عن خصائص الله عَزَّوَجَلَّ، ووجوب البعد عن التسمي بالأسماء الخاصة بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأن التسمي بذلك، أو الاتصاف بذلك من نواقص التوحيد.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان حكم التلقيب بما هو من خصائص الرب عَزَّوَجَلَّ، والأوصاف الخاصة بالله تعالى، وهل يجوز التسمي والتلقيب بذلك أم لا؟

وذكر المصنف الترجمة بـ:«قاضي القضاة» قياسًا على ما في حديث الباب؛ لكونه مشابها له في المعنى فينهى عنه(١).

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لا زال المصنف في صدد بيان ما يجب البعد عنه مما يكون فيه نقص التوحيد، ومن ضمن ذلك البعد عن الأوصاف والأسماء الخاصة التي لا تليق إلا بذي الجلال والإكرام.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بحديث الباب:

---

(١) قال الحافظ في «فتح الباري» (١٠/ ٥٩٠): «ومن النوادر أن القاضي عز الدين بن جماعة قال: إنه رأى أباه في المنام فسأله عن حاله، فقال: ما كان علي أضر من هذا الاسم، فأمر الموقعين أن لا يكتبوا له في السجلات «قاضي القضاة»، بل «قاضي المسلمين»، وفهم من قول أبيه أنه أشار إلى هذه التسمية».

حديث: «إن أخنع اسم»: استدل به المصنف لما فيه من الذم لمن تسمى باسم خاص بالله تعالى، أو باسم مشتمل على صفة خاصة بالله تعالى.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: أحقر الناس عند الله:

إن أحقر الناس عند الله من تسمَّى باسم يحمل معنى العظمة والكبرياء التي لا تليق إلا بالله؛ كملك الملوك، والملك المعظم، وصاحب الجلالة؛ لأن هذا فيه مضاهاة لله سبحانه وتعالى، وصاحبه يدعي لنفسه أو يدعى له بهذا اللقب أنه ند لله؛ فلذلك صار المتسمي بهذا الاسم من أبغض الناس إلى الله وأخبثهم عنده.

الفقرة الثانية: حكمة النهي عن التسمي بـ«قاضي القضاة»:

جاء النهي عن التسمي بهذه الأسماء والاتصاف بهذه الصفات لأمور:

١- اختص الله عَزَّوَجَلَّ بأسمائه؛ فليس لأحد أن يتسمى بها، مثل: الله، الرحمن، مالك الملك، ورب العالمين، وملك الملوك، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين، ونحو ذلك.

٢ - أن الله عَزَّوَجَلَّ اتصف بصفات خاصة؛ فليس لأحد أن يتصف بها، فهو الذي يقضي بين العباد يوم القيامة، يقضي للقضاة وغيرهم، وهو سريع الحساب؛ فهو قاضي القضاة؛ ففي هذه الألقاب أوصاف لا تصلح إلا لله وحده.

٣- أن الله تعالى اختص بخصائص، ومن ضمن ذلك كونه ملك الملوك، وأحكم الحاكمين، ونحو ذلك؛ كقاضي القضاة؛ فلذا لم يجز التلقيب بهذا الاسم.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

قال محمد تقي الدين الهلالي: «كنت أسكن بقرب المسجد المنسوب إلى أبي حنيفة؛ ويسمى عندهم: «جامع الإمام الأعظم»، وهذا اللفظ أطلقه الأتراك في زمان حكمهم على أبي حنيفة رحمة الله، ولا شك في إمامته ولا في عظمته ولكن هذا اللفظ مبتدع يشبه «ملك الملوك»، و«شاهان شاه» و«قاضي القضاة»،

وجاء في الحديث الصحيح: «**أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الأملاك**»، وكره الأئمة كل ما كان قريبًا من هذا المعنى»[1].

[1] ينظر: «الدعوة الى الله في أقطار مختلفة» لتقي الدين الهلالي (صـ ٣١٤-٣١٥).

٤٧- باب احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لذلك

عن أبي شريح: أنه كان يكنى أبا الحكم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكْم**»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين. فقال: «**ما أحسن هذا! فما لك من الولد؟**»، قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله. قال: «**فمن أكبرهم؟**» قلت: شريح، قال: «**فأنت أبو شريح**» رواه أبو داود وغيره(١).

فيه مسائل:

الأولى: احترام صفات الله وأسماء الله ولو لم يقصد معناه.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: التسمي بقاضي القضاة ونحوه:

وباب: احترام أسماء الله وتغيير الاسم لذلك:

وهاتان الترجمتان من فروع الباب السابق، وهو أنه يجب ألا يُجعل لله ند في النيات والأقوال والأفعال، فلا يُسمى أحد باسم فيه نوع مشاركة لله في أسمائه وصفاته، كقاضي القضاة وملك الملوك ونحوها، وحاكم الحكام، أو بأبي الحكم ونحوه، وكل هذا حفظ للتوحيد ولأسماء الله وصفاته، ودفع لوسائل الشرك حتى في الألفاظ التي يخشى أن يتدرج منها إلى أن يظن مشاركة أحد لله في شيء من خصائصه وحقوقه.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى أحاديث الباب إجمالًا:

استنكر النبيُّ ﷺ على هذا الصحابي تكنيه بأبي الحكم؛ لأنَّ الحكم من أسماءِ

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي (٥٣٨٧)، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٢٦١٥).

اللهِ ، وأسماءُ اللهِ يجبُ احترامها ؛ فبيَّن لَهُ الصحابي سبب هذه التكنية، وأنه كان يصلحُ بينَ قومِهِ ويحلُّ مشاكِلَهم بما يُرْضي المتنازعين فاستحسن النبي ﷺ هذا العملَ دُونَ التكنيةِ، ولذلِكَ غَيَّرها فكنَّاهُ بأكبر أولاده(١).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان وجوب احترام أسماء الله، والحذر من امتهانها، أو احتقارها، أو تسمية غير الله بالأسماء المختصة بالله تعالى، أو تسمية غير الله بالصفات المختصة بالله تعالى.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان وجوب احترام أسماء الله تعالى، وأن ذلك من أصل التوحيد، ووجوب تغيير الاسم لأجل احترام أسماء الله عَزَّوَجَلَّ.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أهمية توقير أسماء الله عَزَّوَجَلَّ في بيان الأسماء والصفات، وأهمية تغيير الاسم إذا أشعر أن فيه تنقيصًا لأسماء الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

ذكر المؤلف في الباب السابق أن التسمي بـ«قاضي القضاة» منازعة للرب فيما هو من خصائصه، فناسب أن يذكر بعده أن التسمي بمثل أبي الحكم منازعة في لله أسمائه، وأنه يجب احترام أسماء الله والحذر من امتهانها، أو احتقارها، أو تسمية غير الله بها.

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٣٤٣).

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بحديث الباب:

حديث الباب فيه الدلالة على النهي عن التسمي باسم هو خاص بالله تعالى، أو

التسمي بوصف هو خاص الله تعالى.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: حكم التسمي بشيء من أسماء الله أو التكني بها:

التسمي بشيء من أسماء الله الخاصة والتكني بها حرام، وهو ينافي كمال التوحيد، وكذلك التكني بأسماء الله لا يجوز؛ فليس لأحد أن يكني نفسه بأبي الرحمن، ولا بأبي القيوم، ونحو ذلك مما يشعر بالنقص في أسماء الله تعالى وذاته عَزَّوَجَلَّ.

ومن هنا تعلم خطأ من يكون اسمه: «عبد الرحمن» فيناديه الناس: «رحمن»، ونحو ذلك.

وأسماء الله تعالى قسمان:

١ - أسماء لا يسمى بها سوى الله تعالى؛ كالرحمن، والخالق، ورب العالمين، ونحو ذلك.

٢ - أسماء يسمَّى به بها الله ويسمى بها غيره، فيكون لله على ما يليق به، وللعبد على ما يليق به [(١)].

الفقرة الثانية: الاشتراك في المعنى العام لا يعني المشاركة بعد الإضافة في المعاني الخاصة للمضاف إليه:

إن الأسماء من حيث هي قد تكون مشتركة في الإطلاق اللغوي، ولكن بعد الإضافة تكتسب المعاني الخاصة بالمضاف إليه.

فاسم العزيز معناه: المتمكن المقتدر المعتز المعز ونحو ذلك، ولكن إذا قيل لله عَزَوَجَلَّ أنه العزيز فهنا بعد إضافة الاسم إليه تعالى اكتسب خصائص الرب

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ٢١٩).

عَزَّوَجَلَّ، فهو عزيز مقتدر معز معتز متمكن أزلًا وأبدًا، ولا يلحقه تعالى عكس هذه المعاني ألبتة، وعزته عزة من غير أن يكون لها مثال، وعزته مقترنة بعفوه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

واسم العزيز إذا أُطلق على العبد فعزته وقتية بحسب جاهه، ووقتية من حيث إنه لم يولد عزيزًا بل لا زال محتاجًا، ولا يزال محتاجًا، وعزته مُقدرة، فالعبد ليس له قدرة تمكنه من الاستيلاء على كل الخلائق، بل ولا على كل بني جنسه، بل ولا على كل من تحت يده؛ فكم ترى من عزيز في ملكه يكون في ملكه ما لا يريد، ولا يستطيع أن يغير شيئًا من ذلك، وهذا كله أمارات على أن عزته عزة مناسبة لعجزه وافتقاره؛ فعزته ليست كعزة الجبار عَزَّوَجَلَّ .

وعلى هذا فإذا تسمى العبد ببعض الأسماء والصفات فإنما يتسمى بها من قبيل ما هو لائق به، ويتصف بها من قبيل ما هو لائق به، فيجوز أن يسمى العبد بـ: العزيز، والرحيم، والكريم، ونحو ذلك، بهذا الاعتبار الذي ذكرناه، وقد جاء في كتاب الله تعالى الشيء الكثير من هذا(١).

ولا شك أن الأولى البعد عن التسمي بكل ما هو من أسماء الله تعالى، وإنما يقال: فلان عزيز (نكرة)، ولا يؤتى بها معرفة على أنه اسم، وإن كان يجوز أن يوصف بها معرفًا؛ لأن الوصف غير الاسم والأفضل أن يقال للعبد حين التسمية: عبد العزيز، وعبد الرحيم، وعبد الملك، ونحو ذلك.

وهكذا في التكني يقال: فلان أبو عبد الملك، وأبو عبد الحكم، وأم عبد الرحمن، ونحو ذلك.

وأما ما كان من الأسماء والأوصاف خاصا بالله تعالى فلا يجوز أن يتسمى به العبد، ولا أن يوصف به كما مر.

الفقرة الثالثة: أهمية معرفة الأسماء الحسنى، والصفات العلى:

اعلم أخي المسلم أن باب أسماء الله تعالى من أعظم أبواب العقيدة الإسلامية، والاستقامة في هذا الباب من أعظم أنواع الاستقامة في أبواب العقيدة؛ لأن الله تعالى قد تعرَّف بهذه الأسماء إلى عباده، وعباده يعرفونه تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، ولا يتم للعبد تعظيم لهذه الأسماء والصفات إلا إذا

---

(١) ومن ذلك: {قَالُوا يَاأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا} [يوسف: ٧٨].

عرفها، وعرف معانيها ؛ فلهذا ولغيره تظهر أهمية هذا الباب[١] .

ولكن ينبغي أن يعلم أن أسماء الله تعالى ليست مجردة عن معانيها، بل لها معانٍ حسنى، ولهذا سميت بالحسنى، فالرحمن يدل على الرحمة، والعلي يدل على العلو المطلق، وقد ذكر أهل العلم العارفين أن دلالة أسماء الله تعالى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: دلالة المطابقة: وهي دلالة الاسم على ذات الله تعالى وصفته معا؛ نحو دلالة اسم (الرحمن) على الله تعالى، وعلى رحمته.

النوع الثاني: دلالة التضمن: وهي دلالة الاسم على ذات الله تعالى فقط، أو على صفته تعالى فقط، نحو دلالة اسم الله (العلي) على الله تعالى فقط؛ أو دلالة اسم الله (العلي) على علو الله تعالى فقط.

النوع الثالث: دلالة الالتزام: وهي دلالة الاسم على اسم آخر؛ لكون ذلك لازمًا له، نحو دلالة اسم (القيوم) على اسم (الحي) واسم (القادر)؛ فإن الحياة والقدرة لازمتان للقيومية[٢]، فمن عرف الله تعالى بأسمائه وصفاته فإنه يمكنه أن يعظم هذه الأسماء وهذه الصفات، وأن يتوصل بها إلى تعظيم المتسمي بها والمتصف بها، وهو الله تعالى.

---

(١) ينظر: «بدائع الفوائد» لابن القيم (١/١٦٠-١٦١)، و«مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٦/٢٠٩-٢١٢).

(٢) ينظر: «النونية » (صـ ٢٥٢)، و«بدائع الفوائد» لابن القيم (١/١٦٢).

٤٨- باب من هزل بشيء فيه ذكر الله

١- وقول الله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ**﴾ [التوبة:٦٥].

٢- وعن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة - دخل حديث بعضهم في بعض- أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه القراء، فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عناء الطريق، قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقًا بنسعة ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿**أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ**﴾ [التوبة:٦٥-٦٦]، ما يلتفت إليه وما يزيده عليه(١).

فيه مسائل:

الأولى: - وهي العظيمة- أن من هزل بهذا، أنه كافر.

الثانية: أن هذا تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة وبين النصيحة لله ولرسوله.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله، والغلظة على أعداء الله.

الخامسة: أن من الأعذار ما لا ينبغي أن يقبل.

---

(١) حديث ابن عمر رواه الطبري في «تفسيره» (٥٤٣/١١) ط هجر, وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٨٢٩/٦)، وإسناده حسن، ورواية محمد بن كعب وزيد بن أسلم عند الطبري، ورواية قتادة عند الطبري وابن أبي حاتم في المواطن المشار إليها.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول:

أي: فإن هذا مناف للإيمان بالكلية، ومُخرج من الدين; لأن أصل الدين الإيمان بالله وكتبه ورسله، ومن الإيمان تعظيم ذلك، ومن المعلوم أن الاستهزاء والهزل بشيء من هذه أشد من الكفر المجرد; لأن هذا كفر وزيادة احتقار وازدراء، فإن الكفار نوعان: (معرضون)، و(معارضون)، فالمعارض: المحارب لله ورسوله، القادح بالله وبدينه ورسوله أغلظ كفرًا وأعظم فسادًا، والهازل بشيء منها من هذا النوع.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آية هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة:٦٥].

قال السعدي: «**﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾** عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم يقول طائفة منهم في غزوة تبوك: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء -يعنون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه- أرغب بطونًا وأكذب ألسنًا وأجبن عند اللقاء»، ونحو ذلك.

ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم جاءوا يعتذرون إليه ويقولون: **﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾** أي: نتكلم بكلام لا قصد لنا به ولا قصدنا الطعن والعيب، قال الله تعالى -مبينًا عدم عذرهم وكذبهم في ذلك- **﴿قُلْ﴾** لهم **﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾**، فإن الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفر مخرج عن الدين[1]؛ لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله وتعظيم دينه ورسله والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل ومناقض له أشد المناقضة؛ ولهذا لما جاءوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة والرسول لا يزيدهم على قوله: **﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لا تَعْتَذِرُوا قَدْ**

---

(١) قال أبو بكر بن العربي في «أحكام القرآن» (٥٤٣/٢): «لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جِدًّا أو هزلًا، وهو كيفما كان كفر؛ فإن الهزل بالكفر كفر، لا خُلْف فيه بين الأمة، فإن التحقيق أخو الحق والعلم، والهزل أخو الباطل والجهل».

كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿**إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ**﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم ﴿**نُعَذِّبْ طَائِفَةً**﴾ منكم ﴿**بِأَنَّهُمْ**﴾ بسبب أنهم ﴿**كَانُوا مُجْرِمِينَ**﴾ مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة خصوصًا السريرة التي يمكر فيها بدينه ويستهزئ به وبآياته ورسوله فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها ويعاقبه أشد العقوبة، وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك أو تنقصه أو استهزأ بالرسول أو تنقصه، فإنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة من كل ذنب وإن كان عظيمًا»[1].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان حكم المستهزئين بالله أو بالقرآن أو بالرسول صلى الله عليه وسلم، وأن من فعل ذلك فقد وقع في الكفر الأكبر والردة.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أن الاستهزاء والسخرية بشيء مما فيه ذكر الله عزوجل أو القرآن الكريم، أو الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كفر، فإن الهزل بشيء من ذلك كفر، وأنه ناقض للتوحيد.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف هذا الباب لبيان حكم المستهزئين بالله وبالقرآن وبالرسول صلى اللَّه عليه وسلم، وحكمهم أنهم مرتدون إذا كانوا مسلمين، وأن الاستهزاء ردة وكفر.

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٣٤٢-٣٤٣).

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بين المصنف في الباب السابق أهمية احترام أسماء الله تعالى، وأهمية تغيير الاسم لأجل توقير أسماء الله تعالى ناسب أن يذكر حكم الذي لا يوقّر الله تعالى، أو لا يوقر أسماء الله عزوجل، أو صفاته تعالى، أو شيئًا من دينه، وناسب أن يبين حكم المستهزئ بشيء مما فيه ذكر الله تعالى أو القرآن أو الرسول صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآية وحديث الباب:

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: أورد المصنف الآية لما فيها من الدلالة على أن الاستهزاء في جانب الرب عَزَّوَجَلَّ، أو في جانب كتابه أو في جانب رسوله صلى الله عليه وسلم كُفر وردة، وكذلك الحديث فيه دلالة صريحة على ذلك.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: حكم الاستهزاء بالله وآياته ورسوله:

إن الاستهزاء والسخرية بالله أو بالقرآن أو بالرسول صلى الله عليه وسلم؛ لأجل إضحاك القوم أو شبه ذلك ولو عن غير قصد- رِدَّةٌ وكُفر.

والآية صريحة في بيان ذلك، وأن الاستهزاء بالله عَزَّوَجَلَّ أو بآياته، أو برسله دليل واضح على كفر صاحبه، وبينة أكيدة على عدم تعظيمه لله عَزَّوَجَلَّ وآياته.

وقد أجمع العلماء على أن الاستهزاء بالله تعالى، أو بأسمائه، أو بصفاته كالقرآن، أو بدينه كالإسلام، أو برسله كمحمد صلى الله عليه وسلم، كفر صريح، وفعل قبيح.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه العظيم «الصارم المسلول على شاتم الرسول» أن من استهزأ بالنبي صلى الله عليه وسلم أو سبه، أو نقص من قدره، أو نحو ذلك أنه يكفر، وهل إذا تاب يرتفع عنه الحد بعد موت رسول الله ﷺ؟ ذكر اتفاق الفقهاء على أنه لا يرتفع عنه الحد، وأنه يقتل.

الفقرة الثانية: أمثلة على الاستهزاء:

الاستهزاء والسخرية مما فيه ذكر الله تعالى، أو القرآن، أو الرسول صلى الله عليه وسلم، أو الدين أمثلته لا نهاية لها؛ فإن أهل الباطل كل يوم يأتون بباطل جديد، ومنها:

١ - قولهم : إن الشريعة لا تصلح للحكم بين الناس.

٢ - الاستهزاء بالسنن وبشعائر الإسلام.

٣- السخرية بالعلماء وأهل العلم لأجل تمسكهم بالإسلام.

٤ - الاستهزاء بالصحابة كوصفهم بالجبن، وشدة الخوف والهلع، أو كثرة الأكل.

٥ - الاستهزاء بالآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

الفقرة الثالثة: الاستهزاء بالله وبرسوله من صفات المنافقين:

إن الاستهزاء بالله تعالى أو برسوله صلى الله عليه وسلم، أو بالدين، من علامات النفاق الاعتقادي الأكبر المخرج من الدين، وهو من صفات المنافقين، فقد قالوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء! أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنا! ولا أجبن عند اللقاء!». يعنون الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقد كذبوا في ذلك؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أقل الناس أكلا، وأصدقهم حديثًا، وأشجعهم عند اللقاء في الجهاد، ونَاضَلَ في سبيل الله هو وأصحابه حتى أظهرهم الله تعالى.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

إن الإنسان ليأسف لحال بعض المسلمين اليوم كيف أنهم تساهلوا في سَبِّ الدِّين، وسب الرسول، ولا رادع لهم في كثير من بلاد المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولو أن أحدهم سُب أو ضُرِب لأقام الدنيا، فضلا عن أن يُسب وزير، أو أمير، أو حاكم، أو ملك؛ فلا يغيرون لله تعالى، ولا يدفعون عن عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

٤٩- باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ الآية [فصلت:٥٠].

١- قال مجاهد: «هذا بعملي، وأنا محقوق به»(١).

٢- وقال ابن عباس: «يريد من عندي»(٢).

٣- وقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(٣).

٤- قال قتادة: «على علم مني بوجوه المكاسب»(٤).

٥- وقال آخرون: «على علم من الله أني له أهل»(٥). وهذا معنى قول مجاهد: «أوتيته على شرف»(٦).

٦- وعن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: **«إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، فأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر- شك إسحاق- فأعطي ناقة عشراء، فقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعرا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر، أو الإبل، فأعطي بقرة حاملا، قال: بارك الله لك فيها. قال: وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، فمسحه فرد الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاة والدا، فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم. قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال- بعيرا أتبلغ به في سفري -، فقال: الحقوق كثيرة، فقال له: كأني أعرفك، ألم**

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (٤٥٨/٢٠) ط هجر، وعلقه البخاري في (كتاب التفسير/١٢٧/٦)..
(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (٣٧٣/١٥)، ولم أقف عليه مسندًا.
(٣) القصص: ٧٨.
(٤) ذكره السمعاني في «تفسيره» (١٥٧/٤)، ولم يعزه لأحد.
(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢١/٢٠) ط هجر، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٠١٢/٩).
(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٢١/٢٠) ط هجر.

تكن أبرص يقذرك الناس فقيرا، فأعطاك الله المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا، فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت. قال: ثم إنه أتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله، فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك» أخرجاه[1].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما معنى: ﴿**لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي**﴾[2].

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾[3].

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

مقصود هذه الترجمة أن كل من زعم أن ما أوتيه من النعم والرزق فهو بكدِّه وحذقه وفطنته، أو أنه مستحق لذلك لما يظن له على الله من الحق، فإن هذا مناف للتوحيد؛ لأن المؤمن حقا من يعترف بنعم الله الظاهرة والباطنة ويثني على الله بها، ويضيفها إلى فضله وإحسانه، ويستعين بها على طاعته، ولا يرى له حقا على الله، وإنما الحق كله لله، وأنه عبد محض من جميع الوجوه، فبهذا يتحقق الإيمان والتوحيد، وبضده يتحقق كفران النعم، والعجب بالنفس والإدلال الذي هو من أعظم العيوب.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤) .
(٢) فصلت: ٥٠.
(٣) القصص: ٧٨.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آية هذا الباب:

تفسير الآية المعنون بها الباب: قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ [فصلت:٥٠].

قال السعدي: «﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ**﴾ أي: الإنسان الذي يسأم من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيئوس قنوط ﴿**رَحْمَةً مِنَّا**﴾ أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه، بأن عافاه الله من مرضه، أو أغناه من فقره، فإنه لا يشكر الله تعالى، بل يبغي، ويطغى، ويقول: ﴿**هَذَا لِي**﴾ أي: أتاني لأني له أهل، وأنا مستحق له ﴿**وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً**﴾، وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة، التي أذاقها الله له، ﴿**وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى**﴾ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، إن لي عنده، للحسنى، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل لي في الآخرة، وهذا من أعظم الجراءة والقول على الله بلا علم»[(١)].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان ما غلب على النفوس من إنكار النعم وجحدها، وكفرانها، وعدم الاعتراف بها لمعطيها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أهمية إضافة النعمة إلى الله تعالى، والحذر من الغرور، وهذا على خلاف ما يدعيه الجهال السفهاء من أن النعمة إنما هي بسبب جهده، وأنه إذا رجع في الآخرة كان له جاه ومال كذلك.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف هذا الباب لبيان ما غلب على النفوس من إنكارها لنعم الله،

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٧٥٢).

وجحدها وكفرانها، وعدم الاعتراف بها لمعطيها سبحانه وتعالى؛ فهذا من نقصان التوحيد أو عدمه، وتقييد نعم الله بشكره والثناء عليه من كمال التوحيد، وإنكار النعم وجحودها من الكفر الذي ينافي التوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بين المصنف أن الاستهزاء بشيء مما فيه ذكر الله ناقض للتوحيد، ذكر التمنُّن على الله تعالى، وإنكار نعمه، وأن ذلك جحود وكفر.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآية وحديث الباب:

أورد الآية لبيان ذم من نسب النعمة إلى غير الله، ولو نسبه إلى نفسه وجهده، والحديث فيه الاستدلال على أهمية إضافة النعم إلى منعمها، والبعد عن كفران النعم.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: شكر النعم وكفرانها:

يكون شكر النعم بما يأتي:

١ - الاعتراف بنعم الله الظاهرة والباطنة.

٢- الثناء على الله بها.

٣- إضافتها إلى الله تعالى، وأنها بفضله وإحسانه.

٤- يؤدي حق الله عَزَوَجَلَّ فيها من زكاة، وصدقة وصلة قربى، وأداء ما وجب من الحقوق، كالنفقة على الزوجة والوالدين والأولاد.

٥ - يستعين بها على طاعة الله تعالى؛ فلا يصرفها إلا في طاعة الله.

٦ - ينفق منها من غير تبذير ولا إقتار.

٧- لا يرى له حقًّا على الله، وإنما الحق كله لله، وهذا كله من كمال توحيد الله تعالى.

ويكون كفر النعم بما يأتي:

١ - أن يضيفها إلى غير الله؛ كأن يزعم أن ما أُوتيه من النعم والرزق بكدِّه وفطنته.

٢ - الزعم بأنه مستحق لتلك النعم، لما يظن له على الله من الحق، فإن هذا منافٍ للتوحيد، وعجب بالنفس، وتزكية لها وهو من العيوب العظيمة.

٣- عدم أداء حق الله فيها.

٤ - صرف النعمة في غير مصرفها الشرعي.

٥ - التبذير فيها، أو الإقتار.

الفقرة الثانية: يبتلي الله عَزَّوَجَلَّ عباده بما شاء:

إن الله تعالى خلق هذه الدنيا وخلق الناس فيها ابتلاء وامتحانا، وقد يبتلي الله عَزَّوَجَلَّ عبده بالخير، وهو من أعظم أنواع الابتلاء، وقد يبتلي عبده بالشدة؛ فيبتلي الله تعالى العباد بالصحة والمرض، وبالغنى والفقر، وبالذل والعزة، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ [الأنبياء: ٣٥].

والواجب على العبد الصبر على البلاء، والشكر على النعماء، وأن يعلم أنه مبتلى بكل حال، وألا يعتز بعقله وجهده ورأيه، وأن يعلم أن عقله وجهده ورأيه إنما هو بفضل الله تعالى ورحمته، حيث وهبه عقلا وقوة وفكرًا.

ومن صبر فإن له عند الله تعالى الجزاء الحسن، وهو على خير في الدنيا، ومن جزع فإنه ضار نفسه، وما عند الله له أشد.

وليعلم المسلم أنه إذا كان مقيمًا على الطاعة وأتته الدنيا؛ فإن ذلك لعله يكون من عاجل بشرى المؤمن.

وليعلم العبد أنه إن كان مقيمًا على المعصية أو الفسق أو الكفر وتأتيه النعم؛ فإن ذلك علامة على الاستدراج، يقول تعالى: ﴿**سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:١٨٢].

٥٠- باب قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠].

١- قال ابن حزم: «اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله، كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب»(١).

٢- وعن ابن عباس في الآية: قال: «لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس، فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن، يخوفهما، سمياه عبد الحارث، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت، فأتاهما، فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، فأتاهما فذكر لهما، فأدركهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله: ﴿**جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ**﴾» رواه ابن أبي حاتم(٢).

٣- وله بسند صحيح عن قتادة قال: «شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته»(٣).

٤- وله بسند صحيح عن مجاهد، في قوله: ﴿**لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا**﴾(٤)، قال: «أشفقا أن لا يكون إنسانًا»(٥). وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله.

الثانية: تفسير الآية.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.

---

(١) ينظر: «مراتب الإجماع» لابن حزم (صـ ١٥٤)، وسيأتي الكلام على «عبد المطلب».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٣٤/٥)، وقال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٥٢٨): «وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه، كمجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومن الطبقة الثانية: قتادة، والسدي، وغير واحد من السلف وجماعة من الخلف، ومن المفسرين من المتأخرين جماعات لا يحصون كثرة، وكأنه -والله أعلم -أصله مأخوذ من أهل الكتاب، ... وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري، رحمه الله، في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته؛ ولهذا قال الله: {**فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**}».اهـ. وسيأتي تقرير الشيخ السعدي لذلك القول.

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٣٤/٥).

(٤) الأعراف: ١٨٩.

(٥) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٣٣/٥).

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: قول الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾(١)، مقصود الترجمة أن مَن أنعم الله عليهم بالأولاد، وكمل الله النعمة بهم بأن جعلهم صالحين في أبدانهم، وتمام ذلك أن يصلحوا في دينهم، فعليهم أن يشكروا الله على إنعامه، وأن لا يُعبِّدوا أولادهم لغير الله، أو يضيفوا النعم لغير الله، فإن ذلك كفران للنعم مناف للتوحيد.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

تفسير الآية المعنون بها الباب: قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ [الأعراف:١٩٠].

قال السعدي: «﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا**﴾ على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه ﴿**جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾ أي: جعلا لله شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده والنعمة به، وأقرَّ به أعين والديه، فَعَبَّدَاه لغير الله، إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ «عبد الحارث» و«عبد العزيز»، و«عبد الكعبة» ونحو ذلك، أو يشركا بالله في العبادة، بعدما منَّ الله عليهما بما منَّ من النعم التي لا يحصيها أحد من العباد.

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل إلى الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيرًا، فلذلك قررهم الله على بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال، أم في الأفعال، فإن الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجًا، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلى بعض، ويألفه ويلتذ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة والأولاد والنسل.

---

(١) الأعراف: ١٩٠.

ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات، وقتًا موقوتًا، تتشوف إليه نفوسهم، ويدعون الله أن يخرجه سويًا صحيحًا، فأتم الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم، أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا به في عبادته أحدًا، ويخلصوا له الدين.

ولكن الأمر جاء على العكس، فأشركوا بالله من لا ﴿**يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾، ﴿**وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ**﴾ أي: لعابديها ﴿**نَصْرًا وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ**﴾، فإذا كانت لا تخلق شيئًا، ولا مثقال ذرة، بل هي مخلوقة، ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها، بل ولا عن أنفسها، فكيف تتخذ مع الله آلهة؟ إن هذا إلا أظلم الظلم، وأسفه السفه.

وإن تدعوا، أيها المشركون هذه الأصنام، التي عبدتم من دون الله ﴿**إِلَى الْهُدَى لا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ**﴾.

فصار الإنسان أحسن حالة منها، لأنها لا تسمع، ولا تبصر، ولا تهدِي ولا تُهدى، وكل هذا إذا تصوره اللبيب العاقل تصورًا مجردًا، جزم ببطلان إلهيتها، وسفاهة من عبده»[(١)].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان حكم التعبيد لغير الله، وأنه محرم أن يُعَبَّدَ أحد لغير الله تعالى؛ فلا يقال: عبد النبي، ولا عبد الحسين، ولا عبد المسيح، بل يكون التعبيد في الاسم لله تعالى؛ كعبد الرحمن وعبد الرحيم، ونحو ذلك.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان نوع من أنواع الشرك، وهو الشرك في الألفاظ التي تكون في الأسماء، وبيان وجوب نسبة النعم إلى مُنعِمها، وهو الله تعالى.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٣١١).

عقد المؤلف هذا الباب لبيان أن تعبيد الأسماء لغير الله شرك ينافي كمال التوحيد، وأن من تمام التوحيد نسبة النعم إلى معطيها، وهو الله تعالى.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر في الباب السابق وجوب نسبة النعم إلى الله تعالى أردف ذلك ببيان وجوب نسبة النعم حتى من حيث اللفظ إلى الله تعالى؛ فلا يجوز أن يُعَبَّد الاسم لغير الله تعالى؛ فإن تعبيد الاسم لغيره شرك ينافي كمال التوحيد، وفيه نسبة النعم إلى غير معطيها.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بحديث الباب:

دَلَّ الحديث مع الإجماع على تحريم التعبيد - ولو في الاسم- لغير الله تعالى، وأن ذلك ليس من سنن المسلمين.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: حكم تعبيد الأسماء لغير الله تعالى:

من تمام الشكر لله تعالى ألَّا يُعبَّد الاسم إلا لله وحده عزوجل، فيُسمى المولود بعبد الله، أو عبد الرحمن، أو عبد العزيز، ونحو ذلك مما فيه تعبيد الاسم لله تبارك وتعالى، ويجوز التسمية بالأسماء الحسنة مثل: أحمد، ومحمد، وحارث، وهمام، وعمر، وخالد، والحسن، والحسين، ونحو ذلك.

ويحرم تعبيد الاسم لغير الله فلا يقال: عبد النبي، أو عبد الرسول، أو عبد الكعبة، أو عبد الحسين، أو عبد الزهرة، وما أشبه ذلك، وذم الله مَن فَعَل ذلك، فقال تعالى: ﴿**فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا**﴾؛ أي: أن الله لما رزق الزوجين لم يقوما بشكر تلك النعمة على الوجه المرضي، بل سمياه عبد الحارث؛ فعبَّداه لغير الله، فحصل منهما شرك في التسمية.

فيكون تعبيد الاسم لغير الله تعالى محرم، وهو من الشرك الأصغر، من باب شرك الألفاظ.

الفقرة الثانية: حكم التسمية بـ«عبد المطلب»:

قال ابن القيم رحمه الله: «لا تحل التسمية بعبد علي، وعبد الحسين، ولا عبد الكعبة...، فإن قيل: كيف يتفقون على تحريم الاسم المعبد لغير الله، وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم: «**تعس عبد الدينار**»(١)، وصح عنه صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «**أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب**»(٢).

فالجواب: أما قوله: «**تعس عبد الدينار**» فلم يُرد الاسم، وإنما أراد به الوصف والدعاء على من يُعَبِّد قلبه للدينار والدرهم، فرضي بعبوديتهما عن عبودية الله تبارك وتعالى.

وأما قوله: «**أنا ابن عبد المطلب**»، فهذا ليس من باب إنشاء التسمية بذلك، وإنما هو من باب الإخبار بالاسم الذي عُرِفَ به المسمى دون غيره، والإخبار بمثل ذلك على وجه تعريف المسمى لا يحرم.

ولا وجه لتخصيص أبي محمد - يعني ابن حزم - ذلك بعبد المطلب خاصة.... فباب الإخبار أوسع من باب الإنشاء؛ فيجوز ما لا يجوز في الإنشاء»(٣).

قال الشيخ سليمان بن محمد بن عبد الوهاب - بعد أن أورد كلام ابن القيم: «وهو حسن، ولكن بقي إشكال، وهو أن في الصحابة من اسمه المطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب؟ **فالجواب:** أما من اسمه عبد شمس فغيَّره النبي صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله، كما ذكروا ذلك في تراجمهم، وأما المطلب بن ربيعة فذكر ابن عبد البر أن اسمه: «عبد المطلب».

قال الحافظ: وفيما قاله نظر؛ فإن الزبير أعلم من غيره بنسب قريش، ولم يذكر أن اسمه إلا المطلب، وقد ذكر العسكري أن أهل النسب إنما يسمونه المطلب، وأما أهل الحديث فمنهم من يقول: المطلب، ومنهم من يقول: عبد المطلب(٤).

فقد تبين أنه ليس في الصحابة من هؤلاء من تصح له صحبة، فعلى هذا لا تجوز التسمية بعبد المطلب، ولا غيره مما عُبِّد لغير الله، وكيف تجوز التسمية

---

(١) رواه البخاري (٢٨٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
(٣) ينظر: «تحفة المودود بأحكام المولود» (صـ ١١٣-١١٤).
(٤) فمن ذكر منهم «عبد المطلب»، فإنما هو من باب الإخبار، ويجوز في الإخبار ما لا يجوز في الإنشاء.

وقد أجمع العلماء على تحريم التسمية بعبد النبي، وعبد الرسول، وعبد المسيح، وعبد علي، وعبد الحسين، وعبد الكعبة، وكل هذه أولى بالجواز من عبد المطلب، لو جازت التسمية به»[١].

(١) ينظر: «تيسير العزيز الحميد» (صـ ٥٦٧-٥٦٨)..

٥١- باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف:١٨٠].

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس: ﴿**يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ**﴾[١] يشركون. وعنه: «سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز». وعن الأعمش: «يدخلون فيها ما ليس منها»[٢].

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء.

الثانية: كونها حسنى.

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

السادسة: وعيد من ألحد.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾[٣] إلى آخر الآية:

أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنى، ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله بها ودعاؤه بها، فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه، فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنى، فمن دعاه لحصول رزق فليسأله باسمه الرزاق، ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفو الغفور التواب ونحو ذلك.

---

(١) سورة الأعراف آية: ١٨٠.

(٢)رواهم ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٣٣/٥).

(٣) سورة الأعراف آية: ١٨٠.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة، وذلك باستحضار معاني الأسماء الحسنى وتحصيلها في القلوب حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها، وتمتلئ بأجل المعارف، فمثلًا أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلوب تعظيمًا لله وإجلالًا له، وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله وشوقًا له وحمدًا له وشكرًا، وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعًا لله وخشوعًا وانكسارًا بين يديه، وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات، وحراسة للخواطر عن الأفكار الردية والإرادات الفاسدة، وأسماء الغنى واللطف تملأ القلب افتقارًا واضطرارًا إليه، والتفاتًا إليه كل وقت، في كل حال.

فهذه المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتعبده بها لله لا يُحصل العبد في الدنيا أجل ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي روح التوحيد وروحه، ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخالص، والإيمان الكامل الذي لا يحصل إلا لِلْكُمَّل من الموحدين، وإثبات الأسماء والصفات هو الأصل لهذا المطلب الأعلى، وأما الإلحاد في أسماء الله وصفاته فإنه ينافي هذا المقصد العظيم أعظم منافاة.

والإلحاد أنواع:

إما أن ينفي الملحد معانيها كما تفعله الجهمية ومن تبعهم.

وإما بتشبيهها بصفات المخلوقين كما يفعله المشبهة من الرافضة وغيرهم.

وإما بتسمية المخلوقين بها كما يفعله المشركون حيث سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان، فاشتقوا لها من أسماء الله الحسنى، فشبهوها بالله ثم جعلوا لها من حقوق العبادة ما هو من حقوق الله الخاصة.

فحقيقة الإلحاد في أسماء الله: هو الميل بها عن مقصودها لفظًا أو معنى، تصريحًا أو تأويلًا أو تحريفًا، وكل ذلك مناف للتوحيد والإيمان.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

تفسير الآية المعنون بها الباب: قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال السعدي: «هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنى، أي: له كل اسم حسن، وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى، فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت عَلَمًا محضًا لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو «العليم» الدال على أن له عِلما محيطا عاما لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وكـ«الرحيم» الدال على أن له رحمة عظيمة، واسعة لكل شيء.

وكـ«القدير» الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء، ونحو ذلك.

ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿**فَادْعُوهُ بِهَا**﴾، وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلا: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عَلَيَّ يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ أي: عقوبة وعذابًا على إلحادهم في أسمائه، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لآلهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها»[1].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان أن الله تعالى له الأسماء الحسنى التي لا يعتريها نقص، بل هي كلها تدل على معانٍ عظيمة، يوصف الله بها على الوجه اللائق به، والواجب إثبات أسماء الله وصفاته، والحذر من الإلحاد فيها.

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٣٠٩).

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان وجوب الإيمان بأسماء الله تعالى، وأنها حسنى، ودعاء الله تعالى بها، والبعد عن الإلحاد فيها؛ فإن ذلك من نواقص التوحيد ونواقضه.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف هذا الباب لبيان أن أسماء الله الحسنى لا يعتريها نقص؛ بل كمال، وأن الإلحاد في أسمائه ونفيها أو نفي حقيقة معناها شرك ينافي التوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر المصنف أهمية تعبيد الأسماء لله عَزَّوَجَلَّ ناسب أن يذكر أهمية الإيمان بأسماء الله تعالى والحذر من الإلحاد فيها، ومن الإلحاد فيها: تسمية المخلوقين بهذه الأسماء الخاصة.

الفقرة الخامسة وجه استشهاد المصنف بهذه الآثار في الباب:

هذه الآثار الثلاثة كلها من أدلة المصنف على الحذر من الإلحاد في أسماء الله تعالى.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: واجب المسلم تجاه أسماء الله وصفاته:

الواجب على المسلم أن يُثبت لله تعالى كل الأسماء الحسنى التي أثبتها تعالى لنفسه، أو أثبتها له رسوله صلى الله عليه وسلم، مع إثبات حقيقة معانيها ودلالتها على صفات الكمال، وعدم إطلاقها على غير الله، أو نفيها عن الله، أو صرفها عن معانيها الحقيقية بتأويل ونحوه.

الفقرة الثانية: مذهب أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته:

مذهبهم في ذلك: الإيمان بأسماء الله وصفاته التي وصف الله بها نفسه،

ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم، وإثباتها على ما يليق بجلال الله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيها بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[1].

الفقرة الثالثة: الإلحاد في أسماء وصفات الله، معناه وأنواعه، وحكمه:

الإلحاد لغة: العدول عن القصد، والميل والانحراف، ومنه اللحد في القبر؛ لانحرافه إلى جهة القبلة.

ومعنى الإلحاد في أسماء الله: العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت، وهو أنواع:

١ - تسمية الأصنام بها، كما يفعل المشركون، حيث سموا اللات من الإله، والعُزَّى من العزيز، ومناة من المنان، وكما يفعل مشركو اليوم فيسمون بعض معبوديهم بالغوث الأعظم، مع أن هذا وصف لا يليق إلا بالله تعالى.

٢- تسميته تعالى بما لا يليق بجلاله، مما لم يرد في كتاب ولا في سنة، كتسمية النصارى له أبًا، وكتسمية الفلاسفة له: علة، وكتسمية المتكلمين له: واجب الوجود، وكتسمية أهل التصوف له: محبوبًا، ونحو ذلك.

٣- وصفه تعالى بالنقائص؛ كقول اليهود قبحهم الله-: ﴿**إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ**﴾[2]، وقولهم: إنه استراح يوم السبت، وقولهم: ﴿**يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ**﴾[3]، وكوصف بعض المشركين الرب بأنه محتاج إلى من يبلغه حوائج العباد فيتشفعون بالأموات ويشبهون الرب الكامل بالملك الناقص، ويقولون: لا يقضي الملك الحوائج إلا بالوسطاء.

٤ - تعطيل الأسماء الحسنى عن معانيها، وجحد حقائقها؛ كقول من يقول من الجهمية والمعتزلة في أسماء الله: إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني، فيقولون في السميع البصير مثلًا: «سميع بلا سمع»، «بصير بلا بصر»، ونحو ذلك، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرًا، ويدخل في هذا النوع: تعطيل صفاته تعالى، أو تعطيل بعض صفاته عَزَّوَجَلَّ .

---

(١) الشورى:١١.

(٢) آل عمران:١٨١.

(٣) المائدة:٦٤.

٥ ـ تشبيه صفاته تعالى بصفات خلقه؛ كما يفعله المشبهة؛ فيقولون: له وجه كوجهي، ويد كيدي، تعالى الله عن قول الملحدين علوا كبيرًا(١).

وبهذا يظهر أن الإلحاد محرم بجميع أنواعه، وأن بعضه كفر، وبعضه بدعة وضلالة.

(١) ينظر: التفصيل في مبحث الإلحاد في أسماء الله تعالى وصفاته في المصادر الآتية: «بدائع الفوائد» (١٦٩/١-١٧٠)، و«غريب القرآن» لابن قتيبة (صـ ١٧٥)، و«جامع البيان» لابن جرير (١٣٣/٩-١٣٤)، و«معاني القرآن» للزجاج (٣٩٢/٢)، و«المفردات» للراغب (صـ ٢٤٨)، و«معالم التنزيل» للبغوي (٢١٧/٢-٢١٨)، و«مدارج السالكين» (٣٦/١-٤٠)، و«تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠).

٥٢- باب لا يقال: السلام على الله

في «الصحيح» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام**»(١).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام.

الثانية: أنه تحية.

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

الرابعة: العلة في ذلك.

الخامسة: تعليمهم التحية التي لا تصلح لله.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: لا يقال السلام علي الله:

وقد بين صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بقوله: «**فإن الله هو السلام**»، فهو تعالى السلام السالم من كل عيب ونقص، وعن مماثلة أحد من خلقه له، وهو المُسلِّم لعباده من الآفات والبليات، فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه، المحتاجون إليه في جميع أحوالهم، وهو الغني الحميد.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى حديث الباب إجمالًا:

يخبر ابن مسعود ﷺ أنَّهم كانوا يُسلِّمُون على الله، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلِكَ،

---

(١) رواه البخاري (٨٣٥)، ومسلم (٤٠٢).

وبيَّنَ لهم أنَّ ذلِكَ لا يليقُ بالله ؛ لأنَّه هو السلام ومنه السلام، فلا يليقُ بِهِ أَنْ يسلَّمَ عليه، بل هو الذي يسلِّمُ على عبادِهِ ويسلِّمُهُم مِنَ الآفاتِ(١).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

التحذير من قول: «السلام على الله»؛ لأن هذا دعاء، والله غني عن كل أحد، وليس بحاجة إلى دعاء الناس، وفي الباب إشارة إلى كمال ذات الله تعالى وأسمائه وصفاته.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

باب في بيان أن الله تعالى ليس بحاجة إلى الدعاء، وإنما يُطلب منه الدعاء، وبيان أدب من آداب التخاطب مع الله تعالى.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

لما كان السلام هو طلب السلامة فهو مطلوب مدعو به، والله غني عن أن يُدعى له، والمخلوق هو المحتاج لهذا الدعاء، وفي قول: «**السلام على الله**» عدم تعظيم الله عَزَوَجَلَّ، والله يُمَجَّد ويُعَظَّم، واعتقاد هذا من تمام التوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما ذكر المصنف أن الله عَزَّوَجَلَّ له الأسماء الحسنى، وأنه يُدعى بها، ناسب أن يذكر أن الله تعالى لا يُدعى له فهو المجيد الغني الحميد، ولكن يطلب منه بالدعاء، والسلام هو اسم من أسماء الله تعالى فيطلب من السلام السلامة، ولا يطلب للسلام السلام.

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٣٦٢).

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بحديث الباب:

أورده المصنف للاستدلال به على كمال ذات الله تعالى، وأنه ليس بحاجة إلى أحد.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى اسم الله السلام:

السلام من أسماء الله الحسنى، فقد ورد في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ**﴾ [الحشر:٢٣]، وكما في هذا الحديث: «**فإن الله هو السلام**»، وله معنيان:

١ - السالم من كل عيب ونقص، وعن مماثلة أحد من الخلق. وفي ذلك يقول ابن القيم:

وهو السلام على الحقيقة سالم ... من كل تمثيل ومن نقصان(١)

٢- المُسلِّم عباده من الآفات والبليات فالعباد لن يبلغوا ضره فيضروه، ولن يبلغوا نفعه فينفعوه، بل هم الفقراء إليه المحتاجون إليه في جميع أحوالهم، وهو الغني الحميد.

ولذلك جاء في الحديث: «**اللهم أنت السلام ومنك السلام**»(٢).

الفقرة الثانية: حكمة النهي عن قول: «السلام على الله»:

إن قول: «**السلام على الله**» منافٍ للتوحيد، وذلك لما يلي:

١ - أن السلام دعاء بالسلامة من العيوب والنقائص، والله منزه عن ذلك.

٢- أنه دعاء، والله غني عن كل أحد، وليس بحاجة إلى دعاء الناس، وإنما تعظيمه، وتقديسه، والإيمان بأنه موصوف بصفات الكمال، وأنه هو المشروع

---

(١) ينظر: «نونية ابن القيم» (صـ ٧٢٨) ط عالم الفوائد.

(٢) رواه مسلم (٥٩١) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

النافع والضار، أما المخلوق فيقال له: السلام عليك؛ لأنه محتاج إلى العافية والدعاء، وأما الله فهو الغني الحميد.

٣- أن الله تعالى هو السلام؛ فيطلب منه، وينادى بهذا الاسم.

٤ - كما لا يقال: «السلام على الله»؛ فكذلك لا يقال: «العزة على الله».

٥٣- باب قول: «اللهم اغفر لي إنْ شئت»

١- في «الصحيح» عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإن الله لا مكره له**»[1].

٢- ولمسلم: «**وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه**»[2].

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.

الثانية: بيان العلة في ذلك.

الثالثة: قوله: «**ليعزم المسألة**».

الرابعة: إعظام الرغبة.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

الأمور كلها وإن كانت بمشيئة الله وإرادته، فالمطالب الدينية كسؤال الرحمة والمغفرة، والمطالب الدنيوية المعينة على الدين كسؤال العافية والرزق وتوابع ذلك، قد أُمر العبد أن يسألها من ربه طلبًا ملحا جازما، وهذا الطلب عين العبودية ومحلها.

ولا يتم ذلك إلا بالطلب الجازم الذي ليس فيه تعليق بالمشيئة؛ لأنه مأمور به، وهو خير محض لا ضرر فيه، والله تعالى لا يتعاظمه شيء، وبهذا يظهر الفرق بين هذا وبين سؤال بعض المطالب المعينة التي لا يتحقق[3] مصلحتها ومنفعتها، ولا يجزم أن حصولها خير للعبد، فالعبد يسأل ربه ويعلقه على اختيار ربه له أصلح الأمرين، كالدعاء المأثور: «**اللهم أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرا لي**»[4]، وكدعاء الاستخارة[5]، فافهم هذا

---

(١) رواه البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩).
(٢) رواه مسلم في الموطن السابق.
(٣) أي: لا يتحقق العبد.
(٤) رواه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٥) رواه البخاري (٦٣٨٢) من حديث جابر رضي الله عنه، وفيه: «**اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر**
=

الفرق اللطيف البديع بين طلب الأمور النافعة المعلوم نفعها وعدم ضررها، وأن الداعي يجزم بطلبها ولا يعلقها، وبين طلب الأمور التي لا يدري العبد عن عواقبها، ولا رجحان نفعها على ضررها، فالداعي يعلقها على اختيار ربه الذي أحاط بكل شيء علمًا وقدرة ورحمة ولطفًا.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى أحاديث الباب إجمالًا:

ينهى النبي ﷺ عن تعليق طلب المغفرة والرحمةِ مِنَ اللهِ على المشيئة، ويأمرُ بعزم الطلب دُونَ تعليق؛ ويعللُ ذلِكَ بأَنَّ تعليق الطلب مِنَ اللهِ على المشيئة يشعرُ بأَنَّ اللهَ يُثْقِلُهُ شَيءٌ مِنْ حوائج خلقِهِ أو يضطره شيءٌ إلى قضائها، وهذا خلافُ الحقِّ؛ فإنَّه هو الغنيُّ الحميد الفعالُ لِمَا يريد، كما يشعرُ ذلك بفتور العبدِ في الطلب واستغنائِهِ عَنْ رَبِّهِ ؛ وهو لا غنى لَهُ عَنِ اللهِ طرفة عين(١).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان أن من كمال الإيمان والتوحيد العزم على المسألة في الدعاء، وعدم التردد.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أنه لا يجوز قول: «اللهم اغفر لي إن شئت»، ونحو ذلك من العبارات التي تدل على الاستغناء، ولا تدل على الإلحاح والحاجة، وشدة الطلب من الغني الحميد.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

= **خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري** - أو قال: في عاجل أمري وآجله - **فاقدره لي**».

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٣٦٤).

عقد المؤلف هذا الباب لبيان أن تعليق الدعاء بالمشيئة مما ينافي كمال التوحيد؛ لأنه سوء أدب مع الله؛ حيث إنه يُوهِم دعوى الاستغناء عن مغفرة الله، والاستغناء أمر منافٍ للتوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بيّن أنه تعالى لا يُدعى له، بل يدعى منه؛ ناسب أن يذكر وجوب الإلحاح في الدعاء، وأن ذلك من كمال التوحيد؛ لأن فيه بيان عجز العبد، وإظهار كمال غنى الرب تبارك وتعالى.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

الحديث الأول: «لا يقل أحدكم...»: أورده لما فيه من النهي عن التعليق في الدعاء بالمشيئة.

الحديث الثاني: «وليعظم الرغبة»: فيه دلالة على أهمية التوجه إلى الله بصدق ورغبة.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الله تعالى لا مكره له:

فإن الذي يفعل بمشيئته لا يكون مُكْرَهًا، أما المُكْرَه فإنما يفعل بمشيئة غيره؛ وهو المُكْرِه له، فإنه وإن كان قاصدًا لما يفعله ... فإن مقصوده بالقصد الأول دفع الشيء لا نفس الفعل(١)، والله تعالى بخلاف ذلك، فإنه **{عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [البقرة: ٢٠]، **{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا}** [فاطر: ٤٤].

الفقرة الثانية: حكم تعليق الدعاء بالمشيئة:

تعليق الدعاء بالمشيئة حرام؛ لأن الدعاء عبودية لله تعالى ولا تتم إلا

(١) ينظر: «مجموع الفتاوى» لشيخ الإسلام (٨/٥٠٢).

بالطلب الجازم الذي لا تردد فيه، ومن كمال الإيمان والتوحيد العزم في الطلب من الله تعالى، وعدم التردد، وأن المؤمن إذا دعا ربه فليجزم ولا يتردد، فإن جود الله عظيم، وهو الغني الحميد، الفعال لما يريد.

الفقرة الثالثة: سعة جود الله تعالى:

إن الله تعالى الملك العظيم، يده سَحَّاءُ بالليل والنهار، يعطي من يشاء، ويعز من يشاء، وكلما كان العبد أكثر تعلقا بالله كان طلبه منه أشد، وعلم بأنه لا حول له ولا قوة إلا به، وأنه تعالى جواد كريم؛ فإنه هو الذي أعطاه الحول والقوة، وأعطاه من كل ما سأل، ولو تدبر الإنسان في نفسه لعلم أنه مغمور بنعم الله تعالى؛ فإذا كان جود الله تعالى لا حَدَّ له فعلى العبد أن يسأل ربه بإلحاح ورغبة.

الفقرة الرابعة: الدعاء عبادة عظيمة:

الدعاء عبادة عظيمة؛ ولهذا جاء في الحديث: **«الدعاء هو العبادة»**(١)، وذلك - والله تعالى أعلم - لأن الدعاء مشتمل على جميع أنواع العبادة، فإن العبادة إما أن تكون قلبية، وإما أن تكون بدنية، وإما أن تكون قولية، والدعاء فيه هذه الأنواع كلها؛ فهي قلبية من حيث حضور القلب، وإظهار الرغبة، والفقر، وهي بدنية من حيث توجه الإنسان بجوارحه إلى الله تعالى، ورفعه ليديه، وهي قولية من حيث إنه يطلب بلسانه، ويثني على ربه بما هو أهل له؛ فمن هنا كان الدعاء هو العبادة، وأيضًا فإن الدعاء ينقسم إلى قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ولهذا كان الدعاء هو العبادة.

الفقرة الخامسة: آداب الدعاء المشروع:

إن الدعاء له آداب، وكلما كانت هذه الآداب متوافرة كانت الإجابة أحرى.

ومن هذه الآداب:

١ - بدء الدعاء بالحمد لله، والثناء عليه، والصلاة والسلام على رسوله

---

(١) رواه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، وابن ماجه (٣٨٢٨) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

صلى الله عليه وسلم، وختمه بذلك.

٢ ـ الإلحاح في الدعاء.

٣ـ الدعاء بعزيمة وصدق نية.

٤ ـ على العبد أن يدعو وألا يستبطئ الإجابة.

٥ ـ ألا يدعو بقطيعة رحم.

٦ ـ اليقين بإجابة الدعاء ولو بعد حين.

٧ـ رفع اليدين مع الدعاء، خصوصًا في دعاء الحاجة.

٨ـ طيب المأكل والمشرب.

٥٤- باب لا يقول: عبدي وأمتي

في «الصحيح» عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: **«لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضىء ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»**[١].

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول: عبدي وأمتي.

الثانية: لا يقول العبد: ربي، ولا يقال له: أطعم ربك.

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: لا يقل عبدي وأمتي:

وهذا على وجه الاستحباب أن يعدل العبد عن قول: «عبدي وأمتي» إلى: «فتاي وفتاتي»، تحفظًا عن اللفظ الذي فيه إيهام ومحذور ولو على وجه بعيد، وليس حرامًا، وإنما الأدب كمال التحفظ بالألفاظ الطيبة التي لا توهم محذورًا بوجه، فإن الأدب في الألفاظ دليل على كمال الإخلاص، خصوصًا هذه الألفاظ التي هي أمس بهذا المقام.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى حديث الباب إجمالًا:

يَنْهَى النبي ﷺ عَنِ التلفظ بالألفاظ التي تُوهِمُ الشرك، وفيها إساءة أدبٍ مَعَ

---

(١) رواه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩).

اللهِ، كإطلاقِ ربوبية إنسان لإنسانٍ أو عبودية إنسان لإنسانٍ؛ لأنَّ الله هو الربُّ المعبود وحده، ثم أرشد ﷺ إلى اللفظ السليم الذي لا إيهام فيه؛ ليكون بديلًا مِنَ اللفظ الموهم، وهذا منهﷺ حماية للتوحيدِ وحفاظاً على العقيدة(١).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

فيه ذكر ما ينافي كمال التوحيد بسبب بعض الألفاظ.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أهمية التأدب في الألفاظ، ومن ذلك: البعد عما فيه نوع مشاركة، ولو في اللفظ، تعظيمًا لله تعالى.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

لما كان العبيد عبيد الله والإماء إماء الله كان جديرا ألَّا يُنسبوا إلا إليه؛ فإن إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله مما ينافي كمال التوحيد؛ لما فيهما من التشريك في اللفظ بين الخالق والمخلوق.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بين المصنف في الباب السابق بعض ما لا ينبغي في الدعاء ذكر هنا ما لا ينبغي في الألفاظ، وإذا كان لا يجوز قول: «اللهم اغفر لي إن شئت»؛ لأن فيه إشعارًا بالاستغناء؛ فكذلك لا يجوز قول: «عبدي وأمتي»؛ لما في ذلك من إيهام المشاركة في الربوبية.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بحديث الباب:

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٣٦٦).

فيه دلالة على النهي عن بعض الألفاظ المنافية لكمال التوحيد، والحث على ما يتم به التوحيد من الألفاظ.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: البعد عن الألفاظ الموهمة:

على المسلم أن يتجنب الألفاظ التي تحتمل حقًّا وباطلًا، حتى وإن أراد المعنى الحق، والقاعدة في ذلك قول الله تعالى: **{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا}** [البقرة: ١٠٤]، قال السعدي: «**{رَاعِنَا}** أي: راع أحوالنا، فيقصدون بها معنى صحيحًا، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسدًا، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة، سدًّا لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائز، إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب، واستعمال الألفاظ، التي لا تحتمل إلا الحسن، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن فقال: **{وَقُولُوا انْظُرْنَا}** فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور»(١).

الفقرة الثانية: حكم قول: «عبدي وأمتي» مع التعليل:

الأدب في الألفاظ دليل على كمال الإخلاص؛ لذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التلفظ بالألفاظ التي توهم التشريك، وفيها إساءة أدب مع الله؛ كإطلاق ربوبية إنسان لإنسان؛ كقول المولى لسيده: «ربي»؛ لأن الله هو الرب المالك المتصرف، أو كإطلاق عبودية إنسان لإنسان؛ كقول السيد لمولاه: «عبدي وأمتي»؛ لأن الله هو الرب المعبود وحده.

وهذا النهي في هذا الحديث اختلف فيه أهل العلم على قولين:

الأول: أنه للتحريم، لأن النهي الأصل فيه للتحريم إلا إذا صرفه عن ذلك الأصل صارف.

وقال آخرون: النهي هنا للكراهة، وذلك لأنه من جهة الأدب، ولأنه جاء في

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للشيخ السعدي (صـ ٦١).

القرآن قول يوسف عليه السلام: {اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ} [يوسف: ٤٢] [يوسف: ٤٢] ولأن الربوبية هنا المقصود بها ما يناسب البشر، فرب الدار، ورب العبد هو الذي يملك أمره في هذه الدنيا؛ فلهذا قالوا: النهي للكراهة وليس للتحريم[(١)].

والتحقيق أن الرب من حيث هو اسم لله تعالى فلا يطلق على غيره إلا مضافا، فيقال: رب الدار ورب المال, وإذا ذكر معرفا بالألف واللام فلا يطلق إلاَّ على الله ﷻ[(٢)]، وإذا كانت غير معرفة بالألف واللام وجاءت مضافة، فهي تطلق على الله ﷻ وعلى غيره.

فمن الأول: قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢)} [الفاتحة: ٢]، ومن الثاني: {اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ} [يوسف: ٤٢] في قول يوسف ﷺ لواحد من صاحبيه في السجن[(٣)].

الفقرة الثالثة: اللفظ السليم في هذا الباب:

يستحب أن يعدل الإنسان عن قول: «عبدي وأمتي»، إلى: «فتاي وفتاتي»، وكذا يعدل من قول: «ربي»، إلى: «سيدي ومولاي»، أو ليقل: «عمي»، ونحو ذلك من الألفاظ التي فيها البعد عن مشابهة أسماء الله تعالى، تحفظًا عن الألفاظ التي فيها إبهام ومحذور.

---

(١) انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص٥٢٠).

(٢) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة(ص ٩).

(٣) انظر: المفردات للراغب الأصفهاني (٢٤٥/١)، والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١٧٩/٢).

٥٥- باب لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر - رضي الله عنهما -، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**»(١) رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح.

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

الثانية: إعطاء من سأل بالله.

الثالثة: إجابة الدعوة.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله: «**حتى تروا أنكم قد كافأتموه**».

(يأتي تعليق السعدي على هذا الباب مع الباب الذي يليه؛ للمناسبة بينهما)

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى حديث الباب إجمالًا:

يأمر النبي ﷺ في هذا الحديثِ بخصال عظيمةٍ فيها تعظيم حق اللَّهِ سُبْحَانَهُ بإعطاءِ مَنْ سَأَلَ به، وإعاذةِ مَنِ استعاذ به، وتعظيم لحقِّ المؤمنِ مِنْ إجَابَةِ دعوته، ومكافأته على إحسانِهِ بمثلِهِ أو أحسن منه مَعَ القدرةِ، وَمَعَ عَدَمِهَا بإحالة مكافأته إلى الله بطلب الخيرِ لَهُ منه(٢).

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٢٥٦٧)، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.
(٢) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٣٦٨).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو تعظيم الله تعالى وإجلاله في إعطاء من سأل به.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أهمية تعظيم الله تعالى، وأن ذلك من كمال التوحيد، ومن تعظيم الله عزوجل: ألا يُردَّ من سأل باسمه.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

لما كان السؤال بالله عظيمًا والسائل قد سأل بالله؛ فينبغي إجابة سؤاله تعظيمًا للرب؛ فإِنَّ رَدَّ مَن سأل بالله مما ينافي كمال التوحيد؛ لأن رده دليل على عدم إعظام الله تعالى.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

ما زال المصنف في صدد بيان ما يتعلق بالتعظيم في الأدب مع الله تعالى، والأدب مع الله تعالى من كمال التوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بحديث الباب:

أورده المصنف لما فيه من الدلالة الصريحة على أن من سأل بالله يُعطى.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الخصال الحميدة الواردة في حديث الباب:

١ ـ تعظيم حق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بإعطاء من سأل بالله، وإعاذة من استعاذ

به.

٢- تعظيم حق المؤمن؛ من إجابة دعوته، ومكافأته على إحسانه بمثله، أو أحسن منه مع القدرة، ومع عدمها بإحالة مكافأته إلى الله بطلب الخير له منه.

الفقرة الثانية: إجابة من سأل بالله:

أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإعطاء من سأل الله، وعدم رده ما لم يكن في ذلك مضرة أو مشقة، أو سؤال أمر محرم؛ كقطيعة رحم.

وقد جاءت أحاديث تدل على كراهية السؤال بالله؛ لما فيه من التشديد على الناس، ولكن من سأل بالله حقًّا وجب أن يُعطى، كما لو سأل ميراثًا، أو زكاة، أو من بيت المال، وجب أن يُعطى(١).

والسائل لا يجوز له أن يسأل بالله شيئًا من أمور الدنيا، تعظيمًا الله، واحترامًا لجانب الربوبية.

الفقرة الثالثة: حكم دعاء صفات الله:

لا ينبغي دعاء صفات الله؛ فلا يقال: يا وجه الله، أو يا علم الله أريد كذا، وإنما يُدعى الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ فيقال: يا رحمن ارحمني، يا كريم أكرمني؛ فالصفات يتوسل بها ولا يُدعى بها (٢).

---

(١) ينظر: «شرح كتاب التوحيد» للشيخ ابن باز (صـ ٢٤٠).
(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٢٤٢).

٥٦- باب لا يُسأَل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا يسأل بوجه الله إلا الجنة**»[١] رواه أبو داود.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: (لا يرد من سأل بالله)، وباب: (لا يسأل بوجه الله إلا الجنة):

الباب الأول خطاب للمسئول: وأنه إذا أدلى على الإنسان أحد بحاجة وتوسل إليه بأعظم الوسائل، وهو السؤال بالله، أن يجيبه احترامًا وتعظيمًا لحق الله، وأداء لحق أخيه حيث أدلى بهذا السبب الأعظم.

والباب الثاني خطاب للسائل: وأن عليه أن يحترم أسماء الله وصفاته، وأن لا يسأل شيئًا من المطالب الدنيوية بوجه الله، بل لا يسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم، ورضا الرب والنظر إلى وجهه الكريم والتلذذ بخطابه، فهذا المطلب الأسنى هو الذي يسأل بوجه الله، وأما المطالب الدنيوية والأمور الدنيئة وإن كان العبد لا يسألها إلا من ربه، فإنه لا يسألها بوجهه.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى حديث الباب إجمالًا:

ينهى النبي ﷺ أن يُسأل بوجه الله الكريم الأمور الحقيرة وحوائج الدنيا،

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧١) بإسناد ضعيف، وقد قال الألباني: «ضعيف الإسناد كما بينه المنذري وغيره، ولكن النظر الصحيح يشهد له». «السلسلة الصحيحة» (٥١٣/١).

إجلالًا وتعظيمًا له، ويقصر النبي ﷺ السؤال بوجه الله على الجنة التي هي غايةُ المطالب.

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو تعظيم الله، فلا يسأل بوجهه الكريم إلا ما هو عظيم؛ فلا يسأل بوجهه إلا الجنة؛ فهي أعلى المطالب وأعظمها؛ ففي الجنة النعيم المقيم، والنظر إلى وجه الكريم.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أهمية تعظيم وجه الله عَزَوَجَلَّ، ومن ذلك أنه لا يُسأل به إلا الجنة.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ، وإجلاله، ومن ذلك تعظيم وجهه تبارك وتعالى، وأنه لا ينبغي أن يسأل بوجه العظيم إلا عظيم كالجنة، وهذا من تمام التوحيد وكماله.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما كان السؤال بوجه الله شأنه عظيم، ولا ينبغي أن يبذل في سؤال الدنيا، ناسب أن يعظم ذلك؛ فلا يبذل لأجل أمور دنيوية؛ لأن فيه عدم احترام أسماء الله تعالى وصفاته، فلا يسأل به إلا غاية المطالب التي هي الجنة والتي فيها أعظم مطلب وهو النظر لوجه الله الكريم، وإن احترام أسماء الله تعالى وصفاته من تمام التوحيد وكماله، وعدم تعظيم الأسماء والصفات من نواقص التوحيد ونواقضه.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بحديث الباب:

فيه التصريح بالنهي عن السؤال بوجه الله غير الجنة.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: إثبات صفة الوجه لله تعالى:

صفة الوجه ثابتة لله تعالى بالكتاب والسنة والإجماع، وقد تأول المعطلة هذه الصفة، وقالوا: «المقصود بالوجه: الذات»، وقد ذكر ابن القيم جملة من النصوص في صفة الوجه ومنها حديث الباب، ثم قال: «وهذه الآثار صريحة في أن السؤال بوجهه أبلغ وأعظم من السؤال به، ... فدل على بطلان قول من قال: هو ذاته»[1]. وقد ذكر ستة وعشرين وجهًا في الرد على من تأول صفة الوجه.

الفقرة الثانية: لا يسأل بوجه الله شيء من المطالب الدنيوية:

من احترام أسماء الله وصفاته: ألا يسأل المرء شيئًا من المطالب الدنيوية بوجه الله، بل لا يسأل بوجهه إلا أهم المطالب وأعظم المقاصد وهي الجنة بما فيها من النعيم المقيم، ورضا الرب، والنظر إلى وجهه الكريم، والتلذذ بخطابه، وكذلك ما يقرب إليها؛ كأن يسأل الإخلاص، والتوفيق للخير، والاستقامة على الطاعة فيما يقرب من الجنة؛ فإنه من طلب الجنة؛ فهذا الطلب الأسنى الذي يسأل بوجه الله تعالى.

---

(١) ينظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٦/١٠٠٦) ط أضواء السلف.

٥٧- باب ما جاء في اللو

١- وقول الله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا**﴾[١].

٢- وقوله: ﴿**الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا**﴾[٢].

٣- في «الصحيح» عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**»[٣].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.

الثانية: النهي الصريح عن قول: «لو» إذا أصابك شيء.

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع، مع الاستعانة بالله.

السادسة: النهي عن ضد ذلك وهو العجز.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

اعلم أن استعمال العبد للفظة: «لو» تقع على قسمين: (مذموم)، و(محمود).

أما المذموم: فأن يقع منه أو عليه أمر لا يحبه فيقول: «لو أني فعلت كذا لكان كذا»، فهذا من عمل الشيطان؛ لأن فيه محذورين:

أحدهما: أنها تفتح عليه باب الندم والسخط والحزن الذي ينبغي له إغلاقه،

---

(١) آل عمران: ١٥٤.
(٢) آل عمران: ١٦٨.
(٣) رواه مسلم (٢٦٦٤).

وليس فيها نفع.

الثاني: أن في ذلك سوء أدب على الله وعلى قدره، فإن الأمور كلها والحوادث دقيقها وجليلها بقضاء الله وقدره، وما وقع من الأمور فلا بد من وقوعه، ولا يمكن رده، فكان في قوله: «لو كان كذا أو لو فعلت كذا كان كذا»، نوع اعتراض ونوع ضعف إيمان بقضاء الله وقدره، ولا ريب أن هذين الأمرين المحذورين لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد إلا بتركهما.

وأما المحمود من ذلك: فأن يقولها العبد تمنيا للخير؛ كقوله صلى الله عليه وسلم: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولأهللت بالعمرة**»(١)، وقوله في الرجل المتمني للخير: «**لو أن لي مثل مال فلان، لعملت فيه مثل عمل فلان**»(٢)، و«**لو صبر أخي موسى لقص الله علينا من نبأهما**»(٣) أي: في قصته مع الخضر.

وكما أن «لو» إذا قالها متمنيا للخير فهو محمود، فإذا قالها متمنيا للشر فهو مذموم، فاستعمال «لو» تكون بحسب الحال الحامل عليها، إن حمل عليها الضجر والحزن وضعف الإيمان بالقضاء والقدر أو تمنى الشر كان مذمومًا، وإن حمل عليها الرغبة في الخير والإرشاد والتعليم كان محمودًا، ولهذا جعل المصنف الترجمة محتملة للأمرين.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ [الأعراف:١٥٤].

قال السعدي: «أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة **﴿مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾**، وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ﷺ، ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: **﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾** التي هي أبعد شيء عن مظان القتل **﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾**، فالأسباب -وإن عظمت- إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء،

---

(١) رواه البخاري (١٧٨٥)، ومسلم (١٢١٦) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٥)، وابن ماجه (٤٢٢٨) من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن صحيح».

(٣) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئًا، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة»[1].

٢- وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران:١٦٨].

قال السعدي: «أي: جمعوا بين التخلف عن الجهاد، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره، قال الله ردًّا عليهم: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا﴾ أي: ادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إنهم لو أطاعوكم ما قتلوا، لا تقدرون على ذلك ولا تستطيعونه»[2].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

حكم كلمة «لو» وهل تجوز أو لا تجوز، والمقصود أنه لا ينبغي استعمالها لمعارضة القدر.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أنه لا يجوز للإنسان أن يتحسر على أمر وقع بأنه لو فعل كذا لما كان ليقع، وأن يعلم أن الأمور بمقاديرها.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف هذا الباب لبيان حكم كلمة «لو»، وأنه لا ينبغي استعمالها لمعارضة القدر، فمن قالها معارضًا بها أقدار الرب تعالى؛ فإن هذا مما ينافي كمال التوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ١٥٣).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ١٥٦).

لا زال المصنف في صدد بيان بعض ما ينافي التوحيد، ومن ذلك المعارضة على أقدار الله تعالى، بأنه لو فعل كذا لكان كذا، وعدم التسليم بالقدر، وأن ذلك مناف لكمال التوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وحديث الباب:

الآية الأولى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾: أوردها المصنف مستدلًا بها على أن استعمال «لو» في معارضة المقدور من أفعال المنافقين، لا من أفعال المؤمنين الموحدين.

الآية الثانية: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا﴾: استشهد بها المصنف لبيان أن التحسر بـ: «لو» من أعمال المنافقين، وهم مذمومون على قولهم هذا.

حديث: «احرص على ما ينفعك»: فيه إرشاد النبي صلى الله عليه وسلم لأمته ماذا يقولون عند المصيبة والمقدور.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الحال المحمودة في استعمال كلمة «لو»:

إذا استعملت «لو» على أمر مستقبل، أو حمل عليها الرغبة في الخير والإرشاد والتعليم، كان محمودًا؛ كقوله صلى الله عليه وسلم: **«لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولأهللت بالعمرة»**(١).

الفقرة الثانية: الحال المذمومة في استعمال كلمة «لو»:

إذا استعملت «لو» على أمر خاص وحمل عليها الضجر والحزن، وضعف الإيمان بالقضاء والقدر، كان مذمومًا؛ لما في ذلك من الإشعار بعدم الصبر، والأسف على ما فات مما لم يمكن استدراكه؛ كقوله تعالى إخبارًا عن المنافقين: **﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾** [آل عمران:١٥٤].

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

الفقرة الثالثة: معنى الآية التي استشهد بها المصنف، وفيمن نزلت:

قول الله تبارك وتعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا**﴾ [آل عمران:١٦٨]، إخبار من الله تعالى عن المنافقين الذين قالوا لإخوانهم المسلمين ممن قتلوا في غزوة أُحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج إلى الجهاد ما قتلوا مع من قتل.

وهذه الآية نزلت في عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين وأصحابه الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة أُحد.

الفقرة الرابعة: الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب:

يجب على العبد أن يعتمد على الله، ويتوكل عليه، ويحرص على فعل الأسباب التي تنفعه في دنياه وآخرته مما شرعه الله لعباده، وأمرهم به، ويكون في حال فعله للسبب مستعينًا بالله وحده، معتمدًا عليه في ذلك؛ فإن الأخذ بالأسباب المشروعة لا ينافي التوكل، والاعتماد على الأسباب وحدها دون الاعتماد على الله شرك مناف للتوحيد.

الفقرة الخامسة: ما يشرع قوله عند عند المصائب:

يشرع لمن أصيب بمصيبة أن يقول: «قدر الله وما شاء فعل»، وأن يقول: «إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها».

٥٨- باب النهي عن سب الريح

عن أُبي بن كعب رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: **«لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشرما أُمرت به»**(١) صححه الترمذي.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير، وقد تؤمر بشر.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

وهذا نظير ما سبق في سب الدهر، إلا أن ذلك الباب عام في سب جميع حوادث الدهر، وهذا خاص بالريح، ومع تحريمه فإنه حمق وضعف في العقل والرأي، فإن الريح مصرفة مدبرة بتدبير الله وتسخيره، فالساب لها يقع سبه على من صرفها، ولولا أن المتكلم بسب الريح لا يخطر هذا المعنى في قلبه غالبًا لكان الأمر أفظع من ذلك، ولكن لا يكاد يخطر بقلب مسلم.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى حديث الباب إجمالًا:

ينهى النبي ﷺ عن سب الريح؛ لأنَّها مخلوقة مأمورةٌ مِنَ اللهِ، فسبها سب لله وتسخط لقضائِهِ، ثم أرشد النبي ﷺ إلى الرجوع إلى خالِقِها بسؤالِهِ مِنْ خَيرِهَا والاستعاذَةِ بِهِ مِنْ شرِّهَا ؛ لِمَا في ذلك مِنَ العبودية لله - تعالى - وذلك هو حال

---

(١) رواه الترمذي (٢٢٥٢)، وقال: «حسن صحيح».

أهل التوحيد(١).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو حكم سب الريح وغيرها من المخلوقات، وهو نقص في الإيمان، وقدح في التوحيد.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان النهي عن سب الريح، وأن سبها منافٍ للتوحيد.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف هذا الباب للتنبيه على أن سب الريح نقص في الإيمان وقدح في التوحيد؛ لأن الريح مدبّرة والمدبر لها هو الله؛ فنهى عن سبها؛ لأنه في الحقيقة مسبة للمدبر، واعتراض على المتصرف فيها.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لا زال المصنف في صدد ذكر نواقض التوحيد، ومن ذلك: سب الريح؛ لأنها تسير بتدبير الله تعالى؛ فسبها دليل على نقصان التوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بحديث الباب:

سب الريح؛ فيه التصريح بالنهي عن سب الريح، وإرشاد إلى ما فيه الخير العاجل للمكلف.

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٣٧٨).

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الكون كله مربوب مُدَبَّر من خالقه:

لا بد أن يعتقد المسلم أن الله هو الذي «{يُدَبِّرُ الأَمْرَ} في العالم العلوي والسفلي من الإماتة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين، فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مذعنون لعزه خاضعون لعظمته وسلطانه»(١)، فلا شيء في هذا الكون إلا وهو مربوب مُدَبَّر من خالقه تعالى.

الفقرة الثانية: حكم سب الريح:

سب الريح يكون بشتمها أو بلعنها، والريح مخلوق من مخلوقات الله مسخر، وهي واحدة الرياح، يجريها الله- جل وعلا- كما يشاء، وهي-كالدهر- لا تملك شيئا، ولا تدبر أمرا، فسب الريح كسب الدهر يرجع في الحقيقة إلى أذية الله- جل وعلا-؛ لأن الله هو الذي يصرف الريح كيف يشاء، فيجعل الريح تأتي بأمر مكروه؛ ليذكر العباد بالتوبة والإنابة؛ ويذكر بمعرفة قدرته عليهم، وأنه لا غنى لهم عنه- جل وعلا- طرفة عين. وهو الذي يجعل الرياح بشرا، فيسخرها- جل وعلا- لما فيه مصلحة العباد.

وسب الريح من جنس سب الدهر، ويكثر على ألسنة الناس إلا من رحم سب الريح، وكلاهما محرم لا يجوز، لأنه أذى لله جل وعلا(٢).

قال الإمام الشافعي رحمه الله: (لا ينبغي شتم الريح؛ فإنها خلق مطيع لله وجند من جنوده يجعلها رحمة إذا شاء ونقمة إذا شاء) (٣).

الفقرة الثالثة: ما يقوله الإنسان إذا خاف من أضرار الريح:

يشرع للمؤمن أن يقول إذا هبت الريح:

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٣٥٧).

(٢) التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص: ٥٣٣-٥٣٤).

(٣) نقله صاحب فيض القدير للمناوي (٦/٣٩٩).

١ - «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به».

٢- وفي الحديث الصحيح الآخر: «**الريح مَن رَوْح الله، تأتي بالرحمة والعذاب؛ فلا تسبوها، ولكن سلوا الله من خيرها، وتعوذوا بالله من شرها**»[١].

٣- «اللهم إني أسألك من خير ما أُمرت به، وأعوذ بك من شر ما أُمرت به».

وفي رواية: «كان إذا رأى الريح فزع»[٢].

٤ - «**اللهم لَقْحًا لا عَقِيمًا**»[٣].

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٧)، وابن ماجه (٣٧٢٧)، وصححه الحافظ ابن حجر في «نتائج الأفكار» (١٢٠/٥).

(٢) رواه أبو يعلى في «مسنده» (٤٠١٢)، وفي إسناده انقطاع؛ كما في «نتائج الأفكار» (١٢٩/٥-١٣٠)، وبنحوه رواه مسلم (٨٩٩)، وفيه: «وإذا تَخَيَّلَت السماء، تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر».

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٨)، وابن حبان (١٠٠٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٣/٧ برقم ٦٢٩٦)، وفي «الأوسط» (٢٨٥٧)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٩)، وصححه الحافظ في «نتائج الأفكار» (١٢٦/٥).

٥٩- باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

١- وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾(١).

٢- قال ابن القيم في الآية الأولى: «فسر هذا بأنه سبحانه لا ينصر رسوله وأن أمره سيضمحل، وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم وأن يظهره على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق.

فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده، فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة   وإلا فإني لا إخالك ناجيا»(٢).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.

---

(١) سورة الفتح آية: ٦.

(٢) ينظر: «زاد المعاد» (٣/٢٠٥-٢١١).

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

وذلك أنه لا يتم للعبد إيمان ولا توحيد حتى يعتقد جميع ما أخبر الله به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر إليه به من أسمائه وصفاته وكماله، وتصديقه بكل ما أخبر به، وأنه يفعله، وما وعد به من نصر الدين، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، فاعتقاد هذا من الإيمان، وطمأنينة القلب بذلك من الإيمان.

وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد; لأنها سوء ظن بالله ونفي لكماله وتكذيب لخبره وشك في وعده. والله أعلم.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

١- تفسير الآية المعنون بها الباب: قال الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران:١٥٤].

قال السعدي: «الطائفة الذين **﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾** فليس لهم هم في غيرها، لنفاقهم أو ضعف إيمانهم، فلهذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم، **﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾** وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر -أي: النصر والظهور- شيء، فأساءوا الظن بربهم وبدينه ونبيه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفيصلة والقاضية على دين الله، قال الله في جوابهم: **﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾** الأمر يشمل الأمر القدري، والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبة النصر والظفر لأوليائه وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى.

﴿يُخْفُونَ﴾ يعني المنافقين **﴿فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾** ثم بين الأمر الذي يخفونه، فقال: **﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾** أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة **﴿مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾** وهذا إنكار منهم وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورأي أصحابه، وتزكية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: **﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾** التي هي أبعد شيء عن مظان القتل **﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾** فالأسباب -وإن

عظمت- إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئا، بل لا بد أن يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ من الموت والحياة»[١].

٢- وقول الله تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح:٦].

قال السعدي: «وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريهم ما يسوءهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا»[٢].

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان أن كثيرًا من الناس يسيء الظن بالله تعالى، ولا يسلم لحكمة الله، ولا يسلم لقدر الله السابق.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أهمية الظن الحسن بالله تعالى، وأن الظن السيئ بالله تعالى من نقص التوحيد.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

لما كان ظن السوء فيه عدم الثقة بالله الذي وعد رسوله بالنصر، وفيه اعتراض على قدر الله وتدبيره وتصريفه الأمور، ففيه عدم تحقيق الإيمان بالله والتسليم لقضائه وقدره، ولهذا فإنه منافٍ للتوحيد؛ لأنه سوء ظن بالله، ونفي لكماله، وتكذيب لخبره، وشك في وعده.

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ١٥٣).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٧٩١).

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لا زال المصنف في صدد بيان نواقص التوحيد، ومن ذلك سوء الظن بالله تعالى.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: سوء الظن بالله من صفات المنافقين:

الكفار والمنافقون يتمنون للمسلمين الهزيمة والهلاك، وظهر ذلك في وقعة أُحد؛ فقد ظنوا أن الله سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل ويذهب ويتلاشى، وأن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، وأنكروا أن يتم أمر الله ورسوله، وأن يظهره على الدين كله؛ فصار ظنهم هذا جمعًا بين سوء الظن بالله من جهة أن الله لا ينصر رسوله ولا يظهر دينه على الأديان كلها، ومن جهة أنها لم تقع هذه عن حكمة، وهذا كله باطل، فقد نصر الله رسوله بعد ذلك، وأظهر دينه على الأديان كلها، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

الفقرة الثانية: حسن الظن بالله من تمام التوحيد:

لا يتم إيمان العبد وتوحيده حتى يعتقد ما أخبر الله به بجميع أسمائه وصفاته، وتصديقه بكل ما أخبر به، وأن ما وعد به من نصر الدين وإحقاق الحق وإبطال الباطل سيقع، وكل ظن ينافي ذلك فإنه من ظنون الجاهلية المنافية للتوحيد؛ لأنها سوء ظن بالله، ونفي لكماله، وتكذيب لخبره، وشك في وعده.

الفقرة الثالثة: الطريق إلى السلامة من ظن السوء:

هو معرفة الله تعالى، ومعرفة أسمائه وصفاته، والعلم بآثارها الحسنة، وموجب حكمته وحمده، والتوبة والاستغفار من هذا الظن السيئ، وأنه تعالى لا يفعل شيئًا، ولا يقع منه شيء إلا لحكمة.

٦٠- باب ما جاء في منكري القدر

١- وقال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أُحد ذهبا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**»(١) رواه مسلم.

٢- وعن عبادة بن الصامت: أنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «**إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة**»، يا بني، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**من مات على غير هذا فليس مني**»(٢).

٣- وفي رواية لأحمد: «**إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»(٣).

٤- وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار**»(٤).

٥- وفي «المسند»، و«السنن» عن ابن الديلمي، قال: أتيت أُبي بن كعب، فقلت له: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء، لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: «**لو أنفقت مثل أُحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار**». قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم(٥) حديث صحيح، رواه الحاكم في «صحيحه».

فيه مسائل:

---

(١) رواه مسلم (٨).
(٢) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، واللفظ لأبي داود، وهو حديث صحيح.

(٣) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٧٠٥).
(٤) رواه ابن وهب في «القدر» (٢٦).
(٥) رواه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧) وغيرهما، وصححه الألباني.

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

الثانية: بيان كيفية الإيمان به.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

الرابعة: الإخبار بأن أحدًا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

السابعة: براءته صلى الله عليه وسلم ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

قد ثبت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة: أن الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان، وأنه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فمن لم يؤمن بهذا فإنه ما آمن بالله حقيقة، فعلينا أن نؤمن بجميع مراتب القدر: فنؤمن أن الله بكل شيء عليم، وأنه كتب في اللوح المحفوظ جميع ما كان وما يكون إلى يوم القيامة، وأن الأمور كلها بخلقه وقدرته وتدبيره، ومن تمام الإيمان بالقدر: العلم بأن الله لم يجبر العباد على خلاف ما يريدون، بل جعلهم مختارين لطاعتهم ومعاصيهم.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى أحاديث الباب إجمالًا:

الحديث الأول: أنَّ عبد الله بن عمر لمَّا بلغَهُ أَنَّ قوماً يُنْكِرُون القدر: بيَّن أَنَّهم بهذا الاعتقادِ الفاسِدِ قد خرجوا مِنَ الدين؛ حيثُ أنكروا أصلًا من أصوله، واستدل على ذلك بحديث الرسول ﷺ الذي وَرَدَ فيه أنَّ الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة التي يجب الإيمان بها جميعاً؛ فمن جَحَدَ بعضها فهو كافر

بالجميع(١).

الحديث الثاني، والثالث، والرابع: أنَّ عبادَةَ بن الصامت ﷺ يُوصِي ابنَهُ الوليد بالإيمان بالقدر خيره وشره ويبين له ما يترتب على الإيمانِ بهِ مِنَ الثمراتِ الطيبة والنتائج الحسنة في الدنيا والآخرة، وما يترتب على إنكار القدرِ مِنَ الشرور والمحاذير في الدنيا والآخرة، ويستدلُّ على ما يقولُ بسُنَّةِ الرسول ﷺ التي تثبتُ أَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ المقادِيرَ وأمرَ القلم بكتابَتِهَا قبلَ وجودِ هذه المخلوقاتِ، فلا يقعُ في الكونِ شيء إلى قيام الساعة إلا بقضاء وقدر(٢).

الحديث الخامس: يخبرُ عبد الله بن فيروز الديلمي أنَّه حدث في نفسِهِ إشكال في أمر القدر، فخشي أَنْ يُفْضِي به ذلِكَ إلى جحودِهِ، فذهب يسألُ أهل العلم مِنْ صحابَةِ رسولِ اللهِ؛ لحل هذا الإشكال - وهكذا ينبغي للمؤمن أن يسأل العلماء عَمَّا أشكل عليه عَمَلًا بقولِ اللهِ تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: ٤٣] - فأفتاه هؤلاء العلماء كلُّهُم بأنَّه لا بُدَّ مِنَ الإيمان بالقضاء والقدر، وأنَّ مَنْ ماتَ وهو لا يؤْمِنُ بِهِ كَانَ مِنْ أَهلِ النارِ(٣).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو لبيان ما جاء من الوعيد الشديد والتحذير الأكيد من إنكار القدر، والتكذيب به؛ فالقدر من أصول الإيمان والتوحيد.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان الوعيد الشديد الذي جاء فيمن أنكر تقدير الله عَزَّوَجَلَّ للأشياء.

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٣٨٦).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٣٨٨).

(٣) ينظر: المصدر السابق (صـ ٣٩٠).

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن إنكار القدر منافٍ للتوحيد، وأنه من نواقض التوحيد ونواقصه، وأن الإيمان به من تمام التوحيد وأصله.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

ذكر المؤلف في الباب السابق تشكيك المنافقين في نصر الله لرسوله، وظنوا الظن السيئ في قدر الله عَزَوَجَلَّ، وهذا مما يخالف تحقيق التوحيد؛ فناسب أن يذكر بعده القدر ومكانته من الإيمان، وأن الشك فيه أو إنكاره منافٍ للتوحيد أصلًا.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

الحديث الأول: فيه ذكر أركان الإيمان، ومراد المصنف أن القدر منه.

الحديث الثاني والثالث: أوردهما المصنف لما فيهما من سابق علم الله وكتابته للأشياء.

الحديث الرابع: فيه الوعيد الشديد لمن أنكر قدر الله تعالى.

الحديث الخامس: استدل به لبيان أن الإيمان لا يصح بدون الإيمان بالقدر خيره وشره، وأنه من الله تعالى.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: حكم الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر واجب، وهو ركن من أركان الإيمان الستة، كما في حديث جبريل الطويل المشهور[١]، وقال الله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾ [القمر: ٤٩]، والنصوص من الصحابة رضوان الله عليهم- متواترة في ذم منكري القدر.

---

(١) تقدم تخريجه في أول هذا الباب.

الفقرة الثانية: كيفية الإيمان بالقدر وبيان مراتبه:

هي أن تعتقد أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئة الله وقدرته وأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأن الخير والشر كائن بإرادة الله تعالى، وأنه مخلوق، وحتى يكون إيمان العبد بالقدر تامًّا؛ فإنه لا بد له من أن يؤمن بمراتب القدر الأربع، وهي:

١ - **العلم:** ومعناه أن الله تعالى علم بالأشياء قبل كونها.

٢ - **الكتابة:** ومعناه أن الله كتب كل شيء قبل خلق السموات والأرض.

٣- **المشيئة:** ومعناه أن الله تعالى شاء ما علمه وكتبه؛ فيوجد ما علمه وكتبه كما شاءه.

٤- **الخلق والإيجاد:** ومعناه أن الله تعالى أوجد المخلوق عندما شاءه، على وفق ما علمه وكتبه.

الفقرة الثالثة: الآثار المترتبة على الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر سر الحياة، ونظام التوحيد، وإن الإيمان بالقدر له آثار حسنة كثيرة على العبد، ومنها:

١ - أنه ينتظم توحيده، ويسلم إيمانه.

٢ - أنه يكون مرتاحًا في الحياة؛ لعلمه بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٣- أنه يكون شجاعًا؛ فهو يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

٤ - أنه يستسلم في المصائب، ويصبر على المعاطب.

٥- أنه يتوب إذا أصاب ذنبًا، ويعلم أن ربه غفور كريم، يقبل التوبة من عباده، وأن ذلك مكتوب عليه؛ فلا ييأس من التوبة، والندم، والاستغفار، وكذا.

الفقرة الرابعة: الآثار المترتبة على عدم الإيمان بالقدر:

إن عدم الإيمان بالقدر له مضار جسيمة، وآثار سيئة على العبد، منها:

١ - العيش الضنك، والحياة الصعبة؛ لأنه يقول: لو فعلت كذا لكان كذا.

٢ - براءة النبي صلى الله عليه وسلم ممن لم يؤمن بالقدر.

٣- عدم وجود طعم الإيمان في قلبه.

٤ - حبوط جميع أعماله الصالحة.

٥- استحقاق منكر القدر لإطلاق اسم الكفر عليه.

الفقرة الخامسة: المنحرفون في قضية القدر:

اعلم أن المنحرفين في باب القدر فرقتان شاذتان عن عقيدة السلف أهل الحديث والسنة والتوحيد، وكلتاهما في طرفي النقيض:

الأولى: القدرية، وهم المنكرون للقدر، القائلون بأن العبد هو خالق أفعاله، وأنه مطلق العنان في أفعاله بدون مشيئة الله تعالى، وهؤلاء أهل التفريط في القدر.

والثانية: الجبرية، وهم الذين يزعمون أن الإنسان مجبور محض؛ كالأشجار تفيئها الرياح يمينًا وشمالًا بلا اختيار، وهؤلاء هم أهل الإفراط في هذا الباب، والأشعرية من الجبرية أيضًا؛ لأنهم يثبتون كسبًا لا حقيقة له في الواقع؛ فقولهم يئول إلى قول الجبرية.

وأما أهل السنة والجماعة: فيعتقدون أن الله تعالى قدر للإنسان، ولكن أعطاه اختيارًا للخير والشر، وأن كل شيء هو بقدر الله ومشيئته، وأن الله تعالى خالق للعبد وأفعاله؛ فالعبد فاعل لفعله، والله خالق للعبد ولفعله[1].

---

(١) ينظر: كلام شيخ الإسلام في «الواسطية»، وكلام الدكتور الشيخ محمد خليل هراس في «شرحها» (صـ ٢٢٧-٢٣٠).

٦١- باب ما جاء في المصورين

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**»[١] أخرجاه.

٢- ولهما عن عائشة - رضي الله عنها -، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**»[٢].

٣- ولهما عن ابن عباس، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «**كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم**»[٣].

٤- ولهما عنه مرفوعًا: «**من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ**»[٤].

٥- ولمسلم عن أبي الهياج: قال: قال لي علي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ «**أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته**»[٥].

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبيه على العلة وهو ترك الأدب مع الله لقوله: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**».

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم لقوله: «**فليخلقوا ذرة أو شعيرة**».

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابًا.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بها المصور في جهنم.

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١).
(٢) رواه البخاري (٥٩٥٤)، ومسلم (٢١٠٧).
(٣) رواه البخاري (٢٢٢٥)، ومسلم (٢١١٠)، واللفظ لمسلم.
(٤) رواه البخاري (٥٩٦٣)، ومسلم (٢١١٠).
(٥) رواه مسلم (٩٦٩).

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

وهذا من فروع الباب السابق أنه لا يحل أن يجعل لله ندًّا في النيات والأقوال والأفعال، والند المشابه ولو بوجه بعيد، فاتخاذ الصور الحيوانية تشبه بخلق الله، وكذب على الخلقة الإلهية، وتمويه وتزوير، فلذلك زجر الشارع عنه.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى أحاديث الباب إجمالًا:

الحديث الأول: يروي النبي ﷺ عن ربه أنَّه يقولُ : «لا أحدَ أشدُّ ظلماً ممَّن يصوِّرُ الصور على شكل خلقِ اللهِ»؛ لأنَّه بذلِكَ يحاولُ مشابهة الله في فعله، ثم يتحداه الله ويبيِّنُ عجزَهُ عَنْ أن يخلق أصغر شيء من مخلوقاتِهِ وهو الذرة، بل هو عاجز عن أن يخلق ما هو أدنى مِنْ ذلِكَ وهو الجمادُ الصغير، ومع ذلك لا قدرة لهم على ذلِكَ كلّه ؛ لأنَّ الله هو المتفرد بالخلْقِ(١).

الحديث الثاني: يخبر النبي ﷺ خبرًا معناه: النهي والزجر أن المصورين أشد الناس عذابًا في الدار الآخرة، لأنهم أقدموا على جريمة شنعاء وهي صناعتهم ما يشابه لخلق الله في صناعة الصور(٢).

الحديث الثالث، والرابع: يخبر النبي ﷺ أنَّ مَآلَ المصورين يومَ القيامَةِ إلى النارِ، يُعذَّبُونَ فيها بأشد العذاب بأن تُحْضَرَ جميع الصور التي صوَّرُوهَا في الدنيا، فيُجعلُ فِي كُلِّ صورةٍ منها روحٌ، ثمَّ تُسلَّط عليه بالعذاب في نارِ جهنَّمَ، فيعذبُ بما صنعت يده والعياذُ باللهِ، ومن تعذيبه أيضاً أن يكلّف ما لا يَطِيقُ وهو نفخُ الروح في الصورة التي صوَّرَهَا(٣).

الحديث الخامس: يعرضُ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه على أبي الهياج أن يوجهه إلى القيام بالمهمة التي وجّهَهُ رسولُ اللهِ ﷺ للقيام بها؛ وهي: إزالة الصور ومحوها؛ لِمَا فِيهَا مِنَ المضاهاة لخلق الله والافتتانِ بها بتعظيمها؛

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٣٩٢).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٣٩٣).

(٣) ينظر: المصدر السابق (صـ ٣٩٤).

مما يؤول بأصحابها إلى الوثنية، وتسوية القبور العالية حتّى تصير مساويةً للأرض؛ لِمَا فِي تَعْلِيتِهَا مِنَ الافتتانِ بِأصحابها واتخاذهم أندادًا لله في العبادَةِ والتعظيم(١).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان أن التصوير من جملة الكبائر التي تقدح في التوحيد، وتعرض فاعله لغضب الله والنار وتنقص إيمانه وتضعفه.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان حكم الذين يصورون، وبيان ما جاء في فعلهم من الوعيد.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

نهى النبي صلى الله عليه وسلم أَن يُجْعَلَ لله نِدّ في النيات والأقوال والأفعال، والند هو المشابه؛ فاتخاذ صور ذوات الأرواح تشبيه بخلق الله، وتشبيه لفعل المصور بفعل الله عَزَّوَجَلَّ، وفي الصور ذرائع موصلة للشرك، فهو منافٍ لكمال التوحيد؛ لأن فيه مشابهة لخلق الله تعالى.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد لأجل أن التصوير من أعظم الأسباب الموصلة إلى الشرك؛ كما هو مشاهد محسوس ومرئي ملموس، وتاريخ الشرك والوثنية شاهد عدل عليه(٢).

---

(١) ينظر: المصدر السابق (صـ ٣٩٦).

(٢) قد تهاون كثير من الناس في التصوير الفوتوغرافي، وزعموا أنه ليس من التصوير المحرم، ولكن هذا الزعم باطل؛ لأن التصوير الفوتوغرافي تصوير لغة وعرفًا وشرعًا واصطلاحًا، بل هذا النوع من الصورة أولى بالتحريم؛ لأنها أظهر وأبين وأشد افتتانًا من الصورة التي رسمت باليد؛ كما ترى حتى الشعرة تكون بادئة بائنة، سبحان قاسم العقول، وقد وقع في نفوس كثير من الناس تعظيم =

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

الحديث الأول: استدل به المصنف لما فيه من إنكار الله تعالى على مَن صور.

الحديث الثاني، والثالث، والرابع: أوردها المصنف لما فيها من التهديد الشديد للمصورين.

الحديث الخامس: استدل به المصنف على وجوب طمس الصور.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: المشروع والممنوع من التصوير، وحكم كل نوع:

ينقسم التصوير إلى عدة أقسام من حيث حكمه:

١- جائز كالشجر وما لا روح فيه.

٢ - محرم بالإجماع: كالصور المجسمة والتماثيل، سواء كانت للحيوانات، أو للناس، أو تماثيل الملوك، أو تماثيل محنطة، ونحو ذلك.

٣- محرم عند جمهور العلماء لعموم الأدلة، وهي الصور التي لا ظل لها، وليست بجسم؛ كصور الحيوانات في الستائر، أو على الفرش، أو صور البشر تخط في الأوراق، ونحوها.

٤- جائز ضرورة بقدر الحاجة: يرى البعض التسامح فيما عمت به البلوى من إثبات الشخصيات؛ كصور حفائظ النفوس، وحفظ الأمن والحقوق، وذلك بمقدار ما يفي بالغرض للضرورة.

الفقرة الثانية: عقوبة المصور:

في أحاديث الباب وعيد شديد للمصورين على فعلهم، وأنهم أشد الناس عذابًا يوم القيامة، وأن الله يخلق بكل صورة نفسًا يعذب بها المصور في جهنم، ويكلف أن ينفخ فيها الروح ولا يستطيع أن ينفخ فيها الروح.

= أصحاب هذه الصور، فكم من رجل يعظم صورة ستالين، أو لينين، أو غيرهم من الطواغيت.

الفقرة الثالثة: عجز الخلق عن الخلق:

إن من خصائص الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنه وحده الخالق، فهو الذي ينبت ويخرج الحب من الخبء، وينشئ من النطفة بشرًا سويا، وليس ذلك إلى غيره، وأما ما يدعيه بعض الأطباء، وعلماء الأحياء، من تصرفهم في إخراج بعض الحبوب، أو الجينات الوراثية؛ فإن ذلك ليس إلا تصرف وتحكم في المخلوق الحي، وليس ذلك خلقًا جديدًا؛ فهم يأتون إلى الحبة الحية، ويتصرفون في بعض خصائصها ليس إلا.

٦٢- باب ما جاء في كثرة الحلف

١- وقول الله تعالى: ﴿**وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾[(١)].

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «**الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب**»[(٢)] أخرجاه.

٣- وعن سلمان، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه**»[(٣)] رواه الطبراني بسند صحيح.

٤- وفي «الصحيح» عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم** - قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثة؟ - **ثم إن بعدكم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن**»[(٤)].

٥- وفيه عن ابن مسعود، أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**»[(٥)].

٦- وقال إبراهيم: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار»[(٦)].

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة.

---

(١) المائدة: ٨٩.

(٢) رواه البخاري (٢٠٨٧)، ومسلم (١٦٠٦).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٤٦/٦ برقم ٦١١١)، وفي «الأوسط» (٥٥٧٧)، وفي «الصغير» (٨٢١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٥١١) بلفظ: «**ورجل جعل الله بضاعة**»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧٨/٤): «رجاله رجال الصحيح». وصححه أيضًا الألباني.

(٤) رواه البخاري (٢٦٥١)، ومسلم (٢٥٣٥).

(٥) رواه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

(٦) قول إبراهيم عقب رواية البخاري السابقة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع إلا بيمينه ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون.

السادسة: ثناؤه صلى الله عليه وسلم على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث بعدهم.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

أصل اليمين إنما شرعت تأكيدًا للأمر المحلوف عليه، وتعظيمًا للخالق، ولهذا وجب أن لا يحلف إلا بالله، وكان الحلف بغيره من الشرك، ومن تمام هذا التعظيم أن لا يحلف بالله إلا صادقًا، ومن تمام هذا التعظيم أن يحترم اسمه العظيم عن كثرة الحلف بالكذب، وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

وقول الله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩].

قال السعدي: «﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ عن الحلف بالله كاذبًا، وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيرًا، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير»(١).

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٢٤٢).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان أن كثرة الحلف نقص في الإيمان والتوحيد.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان تحريم إكثار الحلف بالله تعالى.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

أراد المؤلف بعقد هذا الباب أن يبين أن كثرة الحلف استخفاف بجانب الربوبية وعدم تعظيم كامل للرب عَزَّوَجَلَّ، فمن تمام التعظيم أن تحترم أسماء الله فلا يحلف بها لأدنى حاجة، وأتفه مسألة، وكثرة الحلف تنافي التعظيم الذي هو روح التوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد هو أن الاستكثار من الحلف سبب لوقوع الإنسان في قلة تعظيم المحلوف به؛ فناسب أن يبين أنه من نواقص التوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية: أوردها المصنف لما فيها من الأمر بحفظ الأيمان.

الحديث الأول: ذكر المصنف الحديث مستشهدًا به على عدم بركة البيع مع كثرة الحلف.

الحديث الثاني: أورده لما فيه من الوعيد الشديد لمن يبيع ويشتري بيمينه.

الحديث الثالث، والرابع: أراد بهما الاستدلال على ما في الأزمان المتأخرة من الشرور.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: حفظ الأيمان، ومآل كثرة الحلف:

حفظ اليمين بعدم ابتذالها بكثرة الحلف والمسارعة إليها، وليتذكر المسلم أن الله عَزَّوَجَلَّ أعظم من أن يُحلف به في كل حقير.

وليتذكر أن كثرة الحلف يفضي إلى:

١ـ التساهل في الأيمان، وعدم المبالاة بها.

٢ـ الكذب.

٣ ـ الظن السيئ.

ومن حفظ اليمين أنه إذا حدث ووقعت فلا يجوز أن تترك بدون تكفير، والكفارة في ذلك: إطعام عشرة مساكين، لكل مسكين مُدٌّ بُرٍ، أو نصف صاع من غيره، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة مؤمنة من الرق، وإن لم يجد واحدًا من هذه الثلاثة فإن عليه أن يصوم ثلاثة أيام متتابعات.

الفقرة الثانية: عاقبة الأيمان الكاذبة:

إن الأيمان الكاذبة وبال على صاحبها في الدنيا والآخرة، وأما الإكثار منها كحلف البائع على السلعة لترويجها فإنه يؤدي إلى بيعها والربح فيها، لكنه سبب لزوال كسبها وطيبها، وعدم نمائه فيأتيه النقص من أبواب أخرى، وربما ذهب رأس المال والربح معًا، فالمال الذي يكون بالأيمان لا بركة فيه؛ فإن ما عند الله لا ينال بمعصيته، والدنيا وإن تزخرفت للعاصي مؤقتًا، فإن نهايتها إلى الزوال والعقاب في الآخرة.

الفقرة الثالثة: الخصال السيئة الواردة ذِكرها في حديث سلمان رضي الله عنه:

يخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن ثلاثة أصناف من الناس لا يكلمهم القيامة، ولا يطهرهم من دنس الذنوب بالمغفرة؛ وذلك لارتكابهم المعاصي مع عدم الدافع إليها مما يدل على أن المعصية خُلُقٌ لهم، وطبع، وجبلوا عليه.

وأول هؤلاء الثلاثة: الذي زني، وقد كبر في السن، وضعفت شهوته.

وثانيهم: الذي تكبر على الناس، وقد فُقدت لديه أسباب الكبر من المال والجاه.

وثالثهم: الذي استخف بالله عَزَوَجَلَّ فأكثر الحلف به لغير سبب قوي.

الفقرة الرابعة: خير القرون زمن الرسول صلى الله عليه وسلم:

القرن: أهل جيل واحد، متقاربة أعمارهم، والمراد بقرن الرسول صلى الله عليه وسلم: زمن الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي عاش فيه هو وأصحابه، وإنما خص قرن الرسول صلى الله عليه وسلم على من بعدهم في الفضل؛ لأنهم سبقوا إلى الإيمان، والهجرة، والجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفاقوا في العلم والإيمان والعمل الصالح جميع القرون.

فخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث دليل على أن خير هذه الأمة قرنه، والقرون الثلاثة التي بعده، وذلك لطراوة الإسلام ونضارته، وسلامته من دس الملحدين والزنادقة، ثم يقل الخير في هذه الأمة، وينتشر الشر قرنًا بعد قرن فيظهر أناس يبتدرون الشهادة قبل أن تطلب منهم، ويخونون من استأمنهم، ولا يوفون إذا نذروا، ويقبلون على الدنيا وزخرفها وشهواتها حتى يظهر فيهم السمن.

٦٣- باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ

١- وقوله تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾[١].

٢- عن بريدة، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أمر أميرًا على جيش، أو سرية أوصاه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرا. فقال: «**اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال- أو خلال- فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فأقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله، فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا؟**»[٢] رواه مسلم.

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطرًا.

الثالثة: قوله: «**اغزوا بسم الله في سبيل الله**».

الرابعة: قوله: «**قاتلوا من كفر بالله**».

---

(١) النحل: ٩١.
(٢) رواه مسلم (١٧٣١).

الخامسة: قوله: «**استعن بالله وقاتلهم**».

السادسة: الفرق بين حُكم الله وحُكم العلماء.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدري أيوافق حُكم الله أم لا؟

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

المقصود من هذه الترجمة البعد والحذر من التعرض للأحوال التي يخشى منها نقض العهود والإخلال بها، بعدما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله، فإنه متى وقع النقض في هذه الحال كان انتهاكًا من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه، وتركًا لتعظيم الله، وارتكابًا لأكبر المفسدتين كما نبه عليه صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك أيضًا تهوين للدين والإسلام وتزهيد للكفار به، فإن الوفاء بالعهود خصوصًا المؤكدة بأغلظ المواثيق من محاسن الإسلام الداعية للأعداء المنصفين إلى تفضيله واتباعه.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

وقوله تعالى: ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ...**﴾ [النحل:٩١].

قال السعدي: «هذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برًّا، ويشمل أيضًا ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال: ﴿**وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا**﴾ بعقدها على اسم الله تعالى: ﴿**وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ**﴾ أيها المتعاقدون ﴿**كَفِيلًا**﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلًا فيكون ذلك ترك تعظيم الله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلًا، فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك فلتف له بما قلته وأكدته ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾ يجازي كل عامل بعمله على حسب نيته ومقصده»[1].

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٤٤٧).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو ما جاء في تعظيم ذمة الله تعالى، وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم، والتحذير من إخفارها، والتعرض للأحوال التي يخشى منها نقض العهود، والإخلال بها، وتعظيم ذمة الله تعالى، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان أهمية احترام ذمة الله، وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الاستهانة بها أمر عظيم.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان وجوب احترام ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن الاختفار في ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم أمر عظيم مخالف لكمال التوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما كان إخفار ذمة الله وذمة نبيه فيه عدم التأدب مع جانب الربوبية، وعدم التعظيم لله فيكون فاعل ذلك لم يكمل توحيده لذلك ناسب أن يذكره المصنف في كتاب التوحيد.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

الآية فيها: الاستدلال على المحافظة على العهود، ومن ذلك عهد الله وعهد رسوله صلى الله عليه وسلم.

الحديث: أورده المصنف لبيان عظم ذنب من أخفر الله في ذمته، أو أخفر ذمة رسوله صلى الله عليه وسلم.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: وجوب حفظ ذمة الله وذمة نبيه:

من عاهد بذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، فعليه أن يوفي بذلك، ويحذر من التعرض للأحوال التي يخشى منها نقض العهود، والإخلال بها بعدما يجعل للأعداء المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فإنه متى وقع النقض في هذه الحالة كان احتقارًا من المسلمين لذمة الله وذمة نبيه، وتركًا لتعظيم الله.

ولهذا لو أنهم أخفروا في ذممهم -مع حرمتها- فهو أهون؛ ولهذا فالواجب على المسلمين وولاة أمرهم ألا يجعلوا للناس ذمة الله وذمة نبيه صلى الله عليه وسلم، وإنما يجعلون لهم ذمة الرئيس مثلًا، أو الملك، أو الوزير، أو أحد أصحابه، وهذا من باب تعظيم ذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهو من باب إكمال التوحيد، واحتقارهما نقض للتوحيد، ووسيلة إلى التلاعب.

الفقرة الثانية: حكم الوفاء بالعهود والمواثيق:

يجب على المسلمين الوفاء بالعهد إذا هم أعطوا أحدًا عهدهم؛ لأن نقض العهد خسة وانحدار لا يتفق مع ما أمر به الإسلام من الوفاء بالعهد، ثم في ذلك أيضًا تهوين للدين والإسلام، وتزهيد للكفار فيه؛ فإن الوفاء بالعهود خصوصًا المؤكدة بأغلظ المواثيق من محاسن الإسلام، وهذا العهد يجب الوفاء به، ولو كان العهد لكافر مشرك؛ فأما إن كان العهد لمسلم فهو آكد وآكد.

٦٤- باب ما جاء في الإقسام على الله

١- عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له وأحبطت عملك**»(١) رواه مسلم.

٢- وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»(٢).

فيه مسائل:

الأولى: التحذير من التألي على الله.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة**»(٣)إلى آخره.

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

(يأتي تعليق السعدي على هذا الباب مع التعليق على الباب الذي يليه؛ للمناسبة بين البابين)

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى أحاديث الباب إجمالًا:

الحديث الأول: التألي بمعنى الحلف، والحديث فيه وعيد وتهديد لمن أقسم على الله بأنه لا يغفر لفلان، فهذا سوء أدب مع الله تعالى، ورجم بالغيب، وتحجير لرحمة الله تعالى.

الحديث الثاني: فيه بيان أن التألي على الله تعالى قد يحبط العمل، فيفسد الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢١).

(٢) رواه أبو داود (٤٩٠١)، وهو حديث حسن.

(٣) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها، يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق**».

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

ما جاء في الوعيد على الإقسام على الله تعالى.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان حكم الإقسام على الله تعالى، وهو التألّي عليه.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

عقد المؤلف هذا الباب لبيان ما جاء في الإقسام على الله من الوعيد؛ فإن التألّي على الله، والحلف بأنه لا يغفر لفلان، فيه عدم التأدب، بل فيه التعدي عليه تعالى وعلى سعة رحمته؛ فكان منافيًا للتوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بين في الباب السابق أنه لا ينبغي أن يعطي ذمة الله وذمة رسوله للمحاربين خشية الوقوع في نقضه؛ ناسب أن يذكر أنه لا يجوز التألّي عليه؛ لأنه أمر مستقبل لا يعلم الإنسان وقوعه حقيقة.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

الحديث الأول: فيه التصريح بعظيم جرم من تألى على الله تعالى.

الحديث الثاني: أن التألّي على الله سبب للخسارة في الدنيا والآخرة.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: الله تبارك وتعالى فعال لما يريد:

لا بد للمسلم أن يعتقد أن الله تعالى **{فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}**، فكل ما أراد واقتضته

حكمته فعله، لا يرده أحد عن مراده، «فإذا أراد شيئًا قال له: «كن» فيكون، وليس أحد فعالًا لما يريد إلا الله، فإن المخلوقات، ولو أرادت شيئًا، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد»[١].

الفقرة الثانية: معنى الإقسام على الله تعالى:

الإقسام على الله هو الحلف أن يفعل الرب عَزَّوَجَلَّ كذا، أو لا يفعل كذا، وحكمه التحريم إذا كان على جهة الحجر على الله، والقطع بحصول المقسم على حصوله، وهذا النوع منافٍ للتوحيد؛ لأنه سوء أدب مع الله.

وأما إذا كان على جهة حسن الظن بالله؛ فهو جائز لقوله صلى الله عليه وسلم: «**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره**»[٢]. رواه البخاري ومسلم وغيرهما؛ وهذا محمول على أنه يقسم على الله مع إظهاره الذلة والعبودية والحاجة، بخلاف المتألي فإنه يُظهر القسم مع التعالي، والتعاظم، والاغترار بحاله.

الفقرة الثالثة: الآثار المترتبة على الإقسام على الله مع التألي:

١ - حبوط العمل الصالح للمتألي على الله.

٢ - بطلان وخسارة المتألي على الله في الدنيا والآخرة.

المقصد الرابع: الأخطاء والانحرافات الواقعة في بعض المجتمعات المناقضة لمقاصد الباب:

ومن الأمور المنتشرة الآن أن الرجل يغضب من ولده أو امرأته أو جاره، فيقول لمن غضب عليه: «والله لن يغفر الله لك أبدًا»، أو: «لن ترد على جنة أبدًا»، ويحدث الجزم والتألي بعكس ذلك، فإذا مات أحد المشاهير أو الذين قدموا خدمات للبشرية على غير الإسلام، نرى من يجزم ويحلف أن هؤلاء من أهل الجنة؛ لأنهم قدموا خدمات للبشرية، ويتناسى أن الدين عند الله الإسلام، وأن من مات على غير الإسلام فهو من الخاسرين، وأن الخدمات التي قدمها هؤلاء قد

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٩١٨).

(٢) رواه البخاري (٢٧٠٣)، ومسلم (١٦٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

أخذوا أجرها في الدنيا من مال وصحة وعافية وشهرة ونحو ذلك.

٦٥- باب لا يُستَشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «**سبحان الله، سبحان الله!**»، فلا زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**ويحك! أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه**»[1] وذكر الحديث، رواه أبو داود.

فيه مسائل:

الأولى: الإنكار على من قال: «نستشفع بالله عليك».

الثانية: تغيره تغيرًا عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله».

الرابعة: التنبيه على تفسير «سبحان الله».

الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

باب: الإقسام على الله، وباب: لا يستشفع بالله على خلقه:

وهذان الأمران من سوء الأدب في حق الله، وهو مناف للتوحيد، أما الإقسام على الله فهو في الغالب من باب العجب بالنفس والإدلال على الله، وسوء الأدب معه، ولا يتم الإيمان حتى يسلم من ذلك كله.

وأما الاستشفاع بالله على خلقه فهو تعالى أعظم شأنا من أن يتوسل به إلى خلقه; لأن رتبة المتوسل به غالبًا دون رتبة المتوسل إليه، وذلك من سوء الأدب

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٢٦)، وحسنه ابن القيم في «مختصر الصواعق» (١٠٦٧/٣) ط أضواء السلف.

مع الله، فيتعين تركه، فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه، فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافع، وهو الكبير العظيم الذي خضعت له الرقاب، وذلت له الكائنات بأسرها.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى حديث الباب إجمالًا:

يذكر هذا الصحابي أنَّ رجلاً مِنَ البادِيةِ جاءَ إلى النبي ﷺ يَشْكُو مَا أَصابَ النَاسَ مِنَ الحاجة إلى المطر، ويطلبُ مِنَ النبي ﷺ أَنْ يسأل ربَّه أَنْ ينزله عليهم؛ لكنَّه أساء الأدبَ مَعَ اللهِ؛ حيثُ استشفع به إلى النبي ﷺ وهذا جهل منه بحقّ اللهِ؛ لأنَّ الشفاعةَ إنما تكونُ مِنَ الأدنى إلى الأعلى، ولذلك أنكر عليه النبي ﷺ ذَلِكَ ونزَّه ربَّه عَنْ هذا التنقُّصِ، ولم ينكر عليه الاستشفاعَ بالنبي ﷺ إلى الله سبحانَهُ بدعائِهِ إيَّاهُ(١).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

الاستشفاع بالله على خلقه من وسائل الشرك؛ فشأن الله أعظم من أن يستشفع به عند مخلوق.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان عظمة الله عَزَوَجَلَّ، وأنه لا يستشفع به عند أحد من الخلق.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان عظمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وأنه فوق كل عظيم، ويطلب منه، ولا يطلب منه أن يشفع عند أحد فهو الفعال لما يريد، والاستشفاع به على المخلوقين فيه

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» (صـ ٤١٥).

عدم الإجلال والتعظيم، وعدم تعظيمه وإجلاله منافٍ للتوحيد.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

لما بين المصنف أنه لا يقسم على الله لما فيه من التألي؛ وذلك لأن الله تعالى أعظم من أن يقسم به على وجه التألي؛ ناسب أن يذكر أنه لا ينبغي أن يستشفع به عند أحد من خلقه.

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بحديث الباب:

في الحديث التصريح عن غضب النبي صلى الله عليه وسلم لقول ذلك الأعرابي، ثم إنكاره عليه، ثم بيانه صلى الله عليه وسلم عظمة الله.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: معنى الاستشفاع بالله على خلقه وحكمه:

الاستشفاع هو طلب الشفاعة عند الغير، والاستشفاع بالله على خلقه حرام؛ لأنه تعالى أعظم شأنًا من أن يتوسل به إلى خلقه؛ لأن رتبة المتوسل به غالبًا دون رتبة المتوسل إليه، وذلك سوء أدب مع الله؛ فيتعين تركه، فإن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا بإذنه، وكلهم يخافونه، فكيف يعكس الأمر فيجعل هو الشافع، وهو الكبير العظيم الذي خضعت له الرقاب وذلت له الكائنات جميعها؟!

الفقرة الثانية: الاستشفاع بالخلق على الله:

إذا كان الاستشفاع هو طلب الشفاعة من أحد عند الغير؛ فإن طلب الشفاعة من الحي القادر جائز، كطلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وسلم وقت حياته، كما في هذا الحديث، ولم ينكره النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث السابق، وقد ثبت طلب الصحابة الشفاعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلب نزول المطر، وفي طلب الصحبة في الجنة، وغير ذلك؛ فكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه؛ فيستجاب له، وكذلك طلب الشفاعة من الصالحين في أن يدعوا الله تعالى في كشف الكرب، وإجابة الدعوات، ونحو ذلك هو من سنن

المسلمين؛ فإن الدعاء وسيلة عظيمة من وسائل نفع العباد، والصالح من يرجى له القبول، وهو قادر على الدعاء والطلب.

وأما طلب الشفاعة من الأموات، الذين أفضوا إلى ما قدموا، وصاروا إلى ما عملوا؛ فهو أمر محرم، بل طلب الدعاء من الأموات من البدع التي لم تثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع بأبيه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو غيره، ولا الصحابة دعوا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد موته، بل ثبت في «الصحيح»: أن عمر رضي الله عنه طلب من العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو حتى يغاثوا(١)، ولم يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه قد مات -عليه الصلاة والسلام، وحياتهم في قبورهم حياة خاصة لا تقاس بأمور الدنيا.

وثبت طلب الشفاعة من النبي صلى الله عليه وسلم في عرصات القيامة(٢)، وثبتت الشفاعة للشهداء والصالحين، وذلك وقت مقدرة كل منهم على الطلب والقيام بذلك.

والمسلم يطلب من الله تعالى أن يجعل محمدًا صلى الله عليه وسلم شفيعًا له؛ فالله تعالى قادر على ذلك، ولا يطلب من النبي صلى الله عليه وسلم الشفاعة الآن، ولكنه إذا أراد أن ينال الشفاعة فليسلك المسالك الشرعية التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وسلم حتى ينال شفاعته يوم القيامة؛ فإن الشفاعة لا تنال بالهوى، والطلب المجرد، بل لا بد من عمل وسبب.

ومن أعظم الأسباب التي ينال بها العبد الشفاعة:

١ - الإخلاص في التوحيد.

٢-اتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

٣- إجابة المؤذن وطلب الوسيلة بعد الأذان للنبي صلى الله عليه وسلم، ونحو ذلك.

---

(١) رواه البخاري (١٠١٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

٦٦- باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك

١- عن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «**السيد الله تبارك وتعالى**». قلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طولًا. فقال: «**قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان**»(١) رواه أبو داود بسند جيد.

٢- وعن أنس رضي الله عنه، أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «**يا أيها الناس قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله**»(٢) رواه النسائي بسند جيد.

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: «أنت سيدنا».

الثالثة: قوله: «**لا يستهوينكم الشيطان**» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: «**ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي**».

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

تقدم نظير هذه الترجمة(٣) وأعادها المصنف اهتمامًا بالمقام، فإن التوحيد لا يتم ولا يحفظ ولا يحصن إلا باجتناب جميع الطرق المفضية إلى الشرك، والفرق بين البابين أن الأول فيه حماية التوحيد بسد الطرق الفعلية، وهذا الباب فيه حمايته وسده بالتأدب والتحفظ بالأقوال، فكل قول يفضي إلى الغلو الذي يخشى منه الوقوع في الشرك، فإنه يتعين اجتنابه ولا يتم التوحيد إلا بتركه.

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٠٦) بإسناد صحيح.

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٣٥٩٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٠٠٦) بإسناد صحيح، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩٧).

(٣) تقدم في الباب رقم (٢٢) «باب: ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك».

والحاصل أن تمام التوحيد بالقيام بشروطه وأركانه ومكملاته ومحققاته، وباجتناب نواقضه ومنقصاته ظاهرًا وباطنًا، قولًا وفعلًا وإرادة واعتقادًا، وقد مضى من التفاصيل ما يوضح ذلك.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: معنى أحاديث الباب إجمالًا:

الحديث الأول: لما بالغ هذا الوفد في مدح النبي ﷺ نهاهُمْ عَنْ ذَلِكَ؛ تأدُّبًا مَعَ اللَّهِ وحماية للتوحيد، وأمرهُم أنْ يقتَصرُوا على الألفاظ التي لا غُلُوَّ فيها ولا محذور؛ كأن يدعُوهُ بمحمدِ رسولِ اللهِ كَمَا سَمَّاهُ اللهُ(١).

الحديث الثاني: كره ﷺ مَدْحَهُ بهذه الألفاظ ونحوِهَا؛ لئلا يكون ذلك وسيلة إلى الغلو فيه والإطراء؛ لأنه قد أكمل الله له مقامَ العبودية، فصارَ يَكْرَهُ أن يبالغ في مدحِهِ؛ صيانةً لهذا المقام، وإرشادًا للأمة إلى ترك ذلك؛ نصحاً لهم وحماية للتوحيد، وأرشدَهُم أَنْ يَصِفُوهُ بصفَتَيْنِ هُمَا أعلى مراتب العبد، وقد وَصَفَهُ اللهُ بهما في مواضِعَ وهما: عبدُ اللهِ ورسوله ولا يريدُ أَنْ يرفَعُوه فوق هذه المنزلة التي أنزلَهُ اللهُ إيَّاها(٢).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

هو حماية النبي صلى الله عليه وسلم حِمى التوحيد من جهة الأقوال، وقد تقدم باب فيه حمايته للتوحيد وعنى به من جهة الأفعال فالرسول صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد من الجهتين كلتيهما.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان حماية النبي صلى الله عليه وسلم أطراف التوحيد فضلًا

---

(١) ينظر: «الملخص في شرح كتاب التوحيد» للشيخ صالح الفوزان (صـ ٤١٨).

(٢) ينظر: المصدر السابق (صـ ٤١٩).

عن أصله، وبيان أنه أغلق كل الطرق الموصلة إلى الشرك وحذر منها؛ فضلًا عن الشرك ذاته.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن النبي صلى الله عليه وسلم بلَّغ جانب التوحيد البلاغ المبين، الذي لم يترك معه شاردة ولا واردة إلا وبينها، فما يحفظ توحيدنا أرشدنا إليه، وما يخدش فيه حذرنا منه.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

تقدم ذكر حماية النبي صلى الله عليه وسلم جناب التوحيد؛ وذكر المصنف أمثلة على حماية جناب التوحيد من الأفعال والأقوال؛ فناسب أن يبين في ختام كتاب التوحيد أن النبي صلى الله عليه وسلم حمى التوحيد، حتى من أشياء يسيرة قد تخدش فيه؛ فليس لأحد أن يضل عنها، وقد تركنا على المحجة البيضاء؛ فأعظم شيء بُعث به هو بيان التوحيد؛ فإذا ضل عنه الناس فهذا دليل إما على جهل صاحبه، أو زندقته.

وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الشرك، ومن وسائله الموصلة إليه، وهذا من كمال البلاغ، وتمامه، وقد كان صلى الله عليه وسلم أرحم الأمة بالأمة؛ فلم يترك شيئًا يقربنا إلى الله إلا بينه وأرشدنا إليه، ولا شيئًا يبعدنا عن الله تعالى إلا حذرنا منه .

الفقرة الخامسة: وجه استشهاد المصنف بأحاديث الباب:

الحديث الأول: فيه أن الشيطان يحرص على إغواء بني آدم في الأقوال.

الحديث الثاني: استدل به المصنف على نهيه صلى الله عليه وسلم عن إطرائه.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: حفظ جناب التوحيد:

لقد جرت العادة عقلًا وشرعًا على حفظ الأمور الثمينة؛ ولما كان التوحيد غاليًا إلى حد لا نهاية له، وكان الشرك أخطر ما يكون؛ أُمرنا في الشريعة بحفظ التوحيد، وتجنب وسائل الشرك.

وسد الشرع جميع الذرائع الموصلة إلى الشرك، ومنها تشييد القبور، والطواف عليها، وأكل ترابها، والصلاة إليها، وتعظيمها بما لا يجوز، والغلو في الصالحين، والتبرك بكل ما لم يرد به التبرك.

وكذلك نهينا عن الأقوال التي توهم الشرك، أو توصل إليه؛ كملك الأملاك، أو قاضي القضاة، أو ما شاء الله وشاء فلان، ولولا فلان لكان كذا وكذا، ونحو ذلك من الأقوال، كل ذلك لحماية حمى التوحيد، وسد جميع ذرائع الشرك(١).

الفقرة الثانية: النهي عن الغلو في الألفاظ:

كل قول يفضي إلى الغلو الذي يخشى منه الوقوع في الشرك فإنه يتعين اجتنابه؛ فالنبي سيد ولا شك، وأفضل الناس ولا شك، وإنما نهى عن هذا اللفظ: «أنت سيدنا ، وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا»، خشية أن يقعوا في الغلو والإطراء المنهيين.

وهكذا كل لفظ من الألفاظ التي يأتي بها الناس الآن من الغلو فهو محرم؛ فإنه قد يجرهم ذلك إلى أن يدعوه من دون الله، ويستغيثوا به، ويزعموا أنه يعلم الغيب، ومطلع على كل شيء، ونحو ذلك من العبارات التي قد تكون شركا لفظيا، أو من العبارات التي تؤدي إلى ذلك.

فالواجب على المسلم أن يحفظ لسانه، وأن يقتصد في قوله، وعليه التأدب بالآداب الشرعية في أقواله وأعماله؛ حتى لا يقع في الغلو.

الفقرة الثالثة: حكم إطلاق السيد على الخلق:

إن إطلاق لفظ: «السيد» مختلف فيه، فأجازه قوم، واحتجوا بقول النبي

---

(١) ينظر: التفصيل في «إغاثة اللهفان» (٢٨٦/١-٣٤٤)، وللإمام البابرتي الحنفي اختصار لهذا المبحث من «إغاثة اللهفان» سماه: «زيارة القبور» وهو نفيس جدًّا.

صلى الله عليه وسلم للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**»(١).

ومنعه قوم، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الباب: «**السيد الله**»، والصحيح أنه لا يجوز إطلاق هذا القول على الخلق بعد نهي النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان المقصود به المدح والثناء، وإنما يجوز إذا كان من باب الإخبار على أنه كبير القوم، ورئيسهم، أو كان من باب التحدث بنعمة الله تعالى.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**قوموا إلى سيدكم**»، فإنه إنما كان في عام الخندق، وهذا النهي إنما هو في عام الوفود، فدل على أنه متأخر، ثم يحمل على أنه من باب الإخبار المجرد؛ فهو كان رئيس قومه، وكبيرهم، والأدب يقتضي مع الله تعالى أن يخاطب بأنه السيد الكامل، والرب المتصرف على الحقيقة، وأما غيره فأنى له السيادة، وهو المملوك للرب عَزَّوَجَلَّ وعبد له؟!

وقوله صلى الله عليه وسلم: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(٢)؛ فهذا خبر عما أنعم الله به عليه؛ فهو من باب التحدث بنعمة الله تعالى لا أنه ينادى ويسمى بذلك، كيف وقد نهى عنه صلى الله عليه وسلم؟!

قال الخطابي رحمه الله: «يريد عَلَيْهِ السَّلَامُ السؤدد حقيقة لله عَزَّوَجَلَّ، وأن الخلق كلهم عبيد له؛ فعلمهم الثناء عليه، وأرشدهم إلى الأدب في ذلك، وقال عليه السلام: «**قولوا بقولكم**»، يريد قولوا بقول أهل دينكم وملتكم، وادعوني نبيا ورسولًا، كما سماني الله في كتابه... ولا تسموني سيدًا كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم، ولا تجعلوني مثلهم؛ فإني لست كأحدهم؛ إذ كانوا يَسُودونكم في أسباب الدنيا، وأنا أسودكم بالنبوة والرسالة؛ فسموني رسولًا نبيًّا»(٣).

وقد اتفق العلماء على منع استعمال هذا الوصف للمنافق، لما روي عنه صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «**لا تقولوا للمنافق سيد؛ فإنه إن يكن سيدًا فقد أسخطتم ربكم عَزَّوَجَلَّ**»(٤)، رواه أبو داود في «سننه»، وإسناده صحيح.

---

(١) رواه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.
(٢) رواه الترمذي (٣١٤٨)، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، ورواه دون قول: «ولا فخر»: البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) ينظر: «معالم السنن» للخطابي (١١٢/٤).
(٤) رواه أبو داود (٤٩٧٧) بإسناد صحيح.

٦٧- باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية [الزمر:٦٧].

١- عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه، تصديقًا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**[الزمر:٦٧][1]. متفق عليه.

٢- وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله»[2].

٣- وفي رواية للبخاري: «يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع»[3] أخرجاه.

٤- ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا: «**يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟**»[4].

٥- وروي عن ابن عباس، قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»[5].

٦- وقال ابن جرير: حدثني يونس أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس**»[6].

٧- قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «**ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري**

---

(١) رواه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).
(٢) رواه مسلم (٢٧٨٦).
(٣) ينظر: تخريج الصحيحين السابق.
(٤) رواه مسلم (٢٧٨٨).
(٥) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١٠٩٠)، والطبري في «تفسيره» (٢٤٦/٢٠) ط هجر.
(٦) رواه الطبري في «تفسيره» (٥٣٩/٤) ط هجر، وأبو الشيخ في «العظمة» (٥٨٧/٢).

فلاة من الأرض»(١).

٨- وعن ابن مسعود، قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم». أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة عن عاصم عن زر عن عبد الله، ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله. قاله الحافظ الذهبي - رحمه الله تعالى -، قال: وله طرق(٢).

٩- وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**هل تدرون كم بين السماء والأرض؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله سبحانه وتعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم**»(٣) أخرجه أبو داود وغيره.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿**وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾(٤).

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه صلى الله عليه وسلم ولم ينكروها ولم يتأولوها.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

---

(١) علقه الطبري، وأبو الشيخ في المصدرين السابقين، وينظر: «السلسلة الضعيفة» (٦١١٨)، و«السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

(٢) رواه ابن خزيمة في «التوحيد» (٨٨٥/٢)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠٢/٩ برقم ٨٩٨٧)، واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦٥٩)، والذهبي في «العلو» (١٧٥)، وقال الألباني: «صحيح». «مختصر العلو» (٤٨).

(٣) رواه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣) من طريق سماك بن حرب، عن عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، عن العباس مرفوعًا، وهو معل بتفرد سماك، وجهالة عبد الله بن عميرة، وهذا القدر له شواهد، وينظر: «مجموع الفتاوى» (١٩٢/٣).

(٤) الزمر: ٦٧.

الرابعة: وقوع الضحك منه صلى الله عليه وسلم لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى والأرضين في الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: «كخردلة في كف أحدكم».

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماوات.

العاشرة: عظمة العرش بالنسبة إلى الكرسي.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء؟

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي؟

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء؟

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض؟

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات بين أعلاه وأسفله [مسيرة] خمسمائة سنة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

القول السديد في بيان مقاصد التوحيد، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي:

ختم المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ كتابه بهذه الترجمة. وذكر النصوص الدالة على عظمة الرب العظيم وكبريائه، ومجده وجلاله وخضوع المخلوقات

بأسرها لعزه; لأن هذه النعوت العظيمة والأوصاف الكاملة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده، المحمود وحده، الذي يجب أن يذل له غاية الذل والتعظيم وغاية الحب والتأله، وأنه الحق وما سواه باطل، وهذه حقيقة التوحيد ولبه وروحه، وسر الإخلاص.

فنسأل الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبته والإنابة إليه، إنه جواد كريم، وهذا آخر التعليق المختصر على «كتاب التوحيد» وتوضيح مقاصده، وقد حوى من غرر مسائل التوحيد، ومن التقاسيم والتفصيلات النافعة ما لا يستغني عنه الراغبون في هذا الفن الذي هو أصل الأصول، وبه تقوم العلوم كلها. والحمد لله على تيسيره ومنته. وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

شرح كتاب القول السديد:

المقصد الأول: تقريرات الشيخ السعدي في تفسير آيات هذا الباب:

تفسير الآية المعنون بها الباب: قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر:٦٧].

قال السعدي: «يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئًا.

فسووا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات ـ على سعتها وعظمها ـ مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوَّى به غيره، ولا أظلم منه، **﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** أي: تنزه وتعاظم عن شركهم به»[1].

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٧٢٩).

المقصد الثاني: شرح مقاصد الإمام المصنف من عقد هذا الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: موضوع الباب:

بيان النصوص الدالة على عظمة الله وكبريائه، وهو يدل على جميع أنواع التوحيد.

الفقرة الثانية: شرح ترجمة الباب:

هذا باب في بيان عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما يتبين عظمة الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى من تأمل في هذه النصوص التي أوردها المصنف.

الفقرة الثالثة: غرض المصنف من عقد هذا الباب:

بيان أن التوحيد مبني على عظمة الله تعالى والبعد عن كل ما ينقص قدره عزوجل.

الفقرة الرابعة: مناسبة الباب:

ختم المؤلف كتابه بهذا الباب، وذكر النصوص الدالة على عظمة الله وكبريائه ومجده وجلاله، وخضوع المخلوقات بأسرها لعزّه، وهذه النعوت العظيمة أكبر الأدلة والبراهين على أنه المعبود وحده، وأن أعظم ما يتقرب به الإنسان هو تعظيم الله تعالى بتوحيده، وإذا وقع في قلب العبد عظمة الله تعالى لم ينظر إلى الغير، وإنما يكون قلبه متعلقًا بالله العظيم؛ في كل ما يعنيه ويهمه، وفي كل عباداته وخطراته.

الفقرة الخامسة: وجه استتشهاد المصنف بآيات وأحاديث الباب:

كل ما ذكره المصنف من الآيات والأحاديث والآثار إنما مراده منها الاستدلال على عظيم عظمة الله تعالى وجلاله، وعظيم سلطانه.

المقصد الثالث: مسائل عقدية مستنبطة من آيات وأحاديث الباب، وتحته الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: عظمة المخلوقات دليل على عظمة خالقها:

خاطب الله المعاندين بقوله: **{هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}** [لقمان: ١١]، قال السعدي: «**{هَذَا}** أي: خلق العالم العلوي والسفلي، من جماد، وحيوان، وسَوْقِ أرزاق الخلق إليهم **{خَلْقُ اللَّهِ}** وحده لا شريك له، كل مقر بذلك حتى أنتم يا معشر المشركين، **{فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ}** أي: الذين جعلتموهم له شركاء، تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا، أن يكون لهم خلق كخلقه، ورزق كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك فأرونيه، ليصح ما ادعيتم فيهم من استحقاق العبادة، ومن المعلوم أنهم لا يقدرون أن يروه شيئًا من الخلق لها؛ لأن جميع المذكورات قد أقروا أنها خلق الله وحده، ولا ثَمَّ شيء يعلم غيرها، فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد»(١).

ومن نظر في هذه المخلوقات من نجوم وسماوات وأرض، وتفكر فيها، دله ذلك على عظمة خالقها، وهو الله العظيم الذي من عظمته الباهرة وقدرته القاهرة أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السموات على سعتها وعظمها مطويات بيمينه، وجميع المخلوقات خاضعة له، وهي دالة على عظمة الرب وكبريائه ومجده وجلاله؛ فهو المعبود وحده الذي يجب أن يذل له الخلق غاية الذل والتعظيم، وغاية الحب والتأله وأنه الحق، وما سواه باطل، وأن من سوى به غيره في الفعل، أو القول لم يعظمه حق تعظيمه، وهو رب كل شيء وخالقه.

الفقرة الثانية: إثبات حديث ابن مسعود رضي الله عنه في قصة الحبر اليهودي الذي جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم:

حديث ابن مسعود رضي الله عنه في «صحيح البخاري»، وغيره من دواوين الإسلام، والترجمة التي وضعها المصنف مأخوذة من كلام الإمام البخاري رحمه الله في «صحيحه»، فلقد بوب الإمام البخاري على هذا الحديث في صحيحه» في عدة أبواب:

الأول: باب قوله تعالى: **{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}**(٢).

---

(١) ينظر: «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (صـ ٦٤٧).

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (كتاب التفسير، ١٢٦/٦ برقم ٤٨١١) من حديث ابن مسعود رضي الله =

الثاني: باب قوله تعالى: ﴿**وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ**﴾(١).

الثالث: باب يقبض الله الأرض يوم القيامة(٢).

الرابع: باب قول الله تعالى: ﴿**مَلِكِ النَّاسِ**﴾(٣).

الخامس: باب قول الله تعالى: ﴿**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾(٤).

السادس: باب قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا**﴾(٥)،(٦).

فبعد ثبوت الحديث - بما لا يدع مجالًا للشك - ينبغي للعاقل أن يفهمه على وجه التعظيم، وأن يثبت ما فيه من المعاني المحكمة البديعة، من مثل: عظمة الرب تبارك وتعالى وإثبات الأصابع لله تعالى، وإثبات سكوت النبي صلى الله عليه وسلم وضحكه على هذا القول الحق الذي أتى به اليهودي، وغير ذلك.

= عنه.

(١) ينظر: «صحيح البخاري» (كتاب التفسير، ١٢٦/٦ برقم ٤٨١٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) ينظر: «صحيح البخاري» (كتاب التوحيد، ١١٩/٩ برقم ٧٣٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر: «صحيح البخاري» (كتاب التوحيد، ١١٩/٩ برقم ٧٣٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) ينظر: «صحيح البخاري» (كتاب التوحيد، ١٢٣/٩ برقم ٧٤١٢-٧٤١٥) من حديث ابن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة رضي الله عنهم.

(٥) ينظر: «صحيح البخاري» (كتاب التوحيد، ١٣٤/٩ برقم ٧٤٥١) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٦) وقد أخرج الحديث جمهور أهل الحديث في دواوينهم، وقدح بعض الناس في هذا الحديث الصحيح الصريح المحكم، وزعموا أن ذكر الأصابع من تخليط اليهود، وهم مشبهة، وأن الضحك في الحديث من زيادة بعض الرواة! ولكن الحافظ ابن حجر وقف لهم بالمرصاد، فجعل قدحهم كأمس الدابر، ودافع عن هذا الحديث. ينظر: «فتح الباري» (١٣/ ٣٩٩)، وفي طبعة أخرى (٤١٠/١٣)، وهذا يدلك على أن أهل البدع إذا لم ترق لهم آية أو حديث عملوا فيها بمعول الهدم الذي سموه تأويلًا.

ملحق[1]:
نواقض التوحيد والإيمان

(١) أشكر كل من أعان عاى كتابة ووضع هذه الجداول، وبارك الله في علمهم وعملهم.

الفصل الأول: نواقض التوحيد

الناقض الأول: الكفر.

١

الفصل الأول: نواقض التوحيد

الناقض الأول: الكفر

(أ) تعريف الكفر:

لغة: التغطية والستر.

شرعا: ضد الإيمان – فإن الكفر عدم الإيمان بالله ورسله – سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، أو شك وريب، أو إعراض، أو حسد، أو كبر، أو اتباع لبعض الأهواء الصادة عن اتباع الرسالة، وإن كان المكذب أعظم كفرًا.

(ب) أنواع الكفر:



الفصل الأول: نواقض التوحيد

الناقض الأول: الكفر.

٢

الفصل الأول: نواقض التوحيد

الناقض الأول: الكفر

(أ) تعريف الكفر:

لغة: التغطية والستر.

شرعا: ضد الإيمان – فإن الكفر عدم الإيمان بالله ورسله – سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، أو شك وريب، أو إعراض، أو حسد، أو كبر، أو اتباع لبعض الأهواء الصادة عن اتباع الرسالة. وإن كان المكذب أعظم كفرًا.

(ب) أنواع الكفر:

النوع الأول: الكفر الأكبر.

النوع الثاني: الكفر الأصغر. لا يخرج من الملة. وهو الذنوب التي وردت تسميتها في الكتاب والسنة كفرا وهي لا تصل إلى حد الكفر الأكبر – فمن ذلك:

كفر النعمة:

وهو المقصود في قوله تعالى:﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝١١٢﴾ [سورة النحل:١١٢].

وهو أيضًا الكفر المقصود في قوله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت». فهذا كذلك من كفر النعمة.

الحلف بغير الله تعالى:

قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» لكن إذا كان الحالف معظمًا للمحلوف به يخافه ويرجوه، فقد يدخله ذلك في الكفر الأكبر.

قتال المسلم:

المذكور في قوله ﷺ: «اسباب المسلم فسوق وقتاله كفر» وفي قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض». فإنه ليس كفرا أكبر مخرجًا من الملة لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ [سورة الحجرات:٩]. إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [سورة الحجرات:١٠].، فإن الله تعالى أثبت اسم الإيمان للمقتتلين رغم ارتكابهم لكبيرة من الكبائر.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ﴾ [سورة البقرة:١٧٨].، فلم ينف الإيمان عن القاتل بل جعله أخًا لولي القصاص فقال: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [سورة البقرة:١٧٨]. والمراد بالأخوة هنا أخوة الدين بلا ريب.

الفصل الأول: نواقض التوحيد

الناقض الأول: الكفر.

٣

(ج) أمثلة على الفاظ وأفعال هي من الكفر:

هناك ألفاظ تعتبر كفرًا وذلك بالنظر إلى أن فيها نوعًا من الاستهزاء بالله تعالى وشرعه وملائكته وغير ذلك، أو لأن فيها جحودا لمعلوم من الدين بالضرورة، أو تشبيها لله تعالى بخلقه، كما أن هناك أفعالا تعتبر كفرا لنفس الأسباب، ونحن نورد هنا أمثلة على هذه الألفاظ والأفعال التي هي من الكفر، ليكون المسلم منها على حذر، حتى يحفظ إيمانه وتوحيده مما يخدشه أو ينقضه.

أمثلة على ألفاظ من الكفر

أولا – أمثلة على الفاظ الكفر:

١. سب الله تعالى، أو سب دين الإسلام، او سب الملائكة أو أحدهم.
٢. سب النبي ﷺ، أو سب أحد من الرسل.
٣. الاستهزاء والسخرية بالله وملائكته أو رسله أو الدين.
٤. من قال: أنا لا أخاف الله. أو: أنا لا أحب الله تعالى.
٥. من قال: إن بعض الناس يمكنه التصرف في الكون كله أو بعضه.
٦. من قال: اليهودية أو النصرانية خير من دين الإسلام.
٧. من دعا غير الله وطلب منه ما لا يقدر عليه إلا الله، كشفاء المريض ورد الغائب وقضاء الحاجات، معتقدًا ذلك.
٨. من قال: الزنا حلال. أو: الخمر حلال، ونحو ذلك.
٩. من قال: ليتني لم أكن مسلمًا. أو قال: أنا يهودي. أو: نصراني. عامدًا عالمًا راضيًا.
١٠. من قال: إن تعاليم الإسلام لا تناسب زماننا الحالي. معتقدًا ذلك.

أمثلة على أفعال هي من الكفر

ثانيا – أمثلة على أفعال الكفر:

١. السجود لغير الله تعالى.
٢. الذبح لغير الله تعالى من صنم أو ولي صالح تعظيمًا له.
٣. إلقاء المصحف وما فيه ذكر الله في أماكن القذارة عمدا وهو يعلم.
٤. الحكم بغير ما أنزل الله تعالى معتقدًا جواز ذلك.
٥. عمل السحر وتعلمه وتعليمه معتقدًا جوازه.
٦. الطواف بالأضرحة وقبور الصالحين تعظيما لها.
٧. لبس شيء من شعار أهل الكفر كالصليب ونحوه عالما عامدا راضيا بذلك.
٨. مشاركة أهل الكفر في عبادتهم كصلاتهم ونحوها عامدًا عالمًا راضيًا بذلك.
٩. هدم المساجد الإسلامية ونحو ذلك عامدًا عالمًا.
١٠. بناء دور العبادة للمشركين كمعابد اليهود وكنائس النصارى ونحو ذلك عامدًا عالمًا راضيًا.

(د) الفرق بين الكفر الأكبر والكفر الأصغر

الفرق	الكفر الأكبر	الكفر الأصغر
الخروج من الملة	يخرج صاحبه من الملة ويحبط جميع أعماله	لا يخرج صاحبه من الملة ولا يحبط الأعمال لكن ينقصها بحسبه، ويعرض صاحبها للوعيد وقد يحبط العمل الذي يقع فيه، مثل الرياء، لقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه تعالى: «من عمل عملا أشرك فيه غيري تركته وشركه».
الخلود في النار	يخلد صاحبه في النار	لا يخلد صاحبه في النار إن دخلها. وقد يعفو الله عنه فلا يدخله النار أصلاً.
إباحة الدم والمال	يبيح الدم والمال	لا يبيح الدم والمال
الموالاة والمعاداة	يوجب العداوة الخالصة بين صاحبه وبين المؤمنين؛ فلا يجور للمؤمنين محبته وموالاته ولو كان أقرب قريب.	لا يمنع الموالاة مطلقًا، بل صاحبه يحب ويوالى بقدر ما فيه من الإيمان ويبغض ويعادى بقدر ما فيه من العصيان.

الفصل الأول: نواقض التوحيد | **الناقض الأول: الكفر.** | ٥

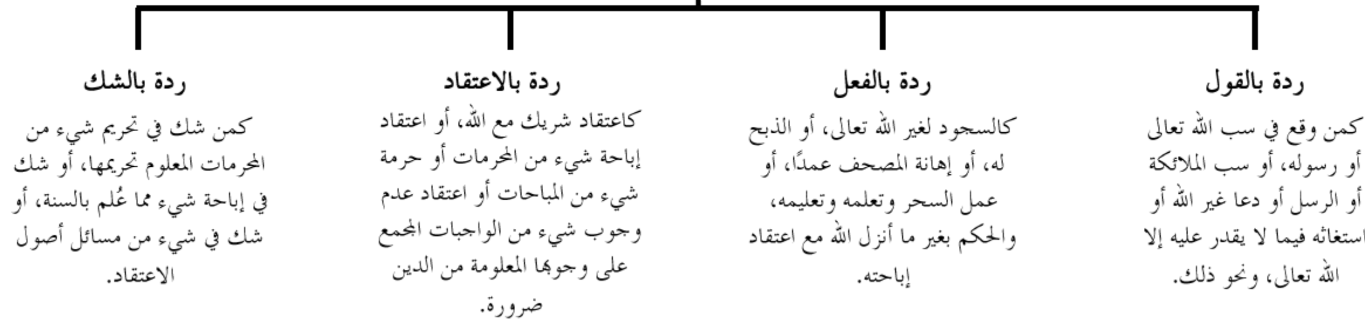
(هـ) الــردة

تعريف الردة: لغة: الرجوع كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ﴾ [سورة المائدة:٢١].

واصطلاحا: الرجوع إلى الكفر بعد الدخول في الإسلام، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [سورة البقرة:٢١٧].

أقسام الردة:

تقع الردة إذا ارتكب الشخص ناقضًا من نواقض الإسلام، وهي متعددة لكنها ترجع إلى أربعة أقسام:



الأحكام المترتبة على الردة بعد ثبوتها

يترتب على الحكم بالردة إذا ثبتت في حق شخص عدة أحكام؛ هي:



الفصل الأول: نواقض التوحيد

الناقض الثاني: النفاق.

٦

الناقض الثاني: النفاق

(أ) تعريفه: النفاق هو إظهار الإسلام والخير، وإبطان الكفر والشر، سمي بذلك لأنه يدخل في الشرع من باب ويخرج منه من باب آخر، وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾ [سورة التوبة:٦٧]، أي الخارجون من الشرع. وجعل الله المنافقين شرًّا من الكافرين فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة النساء:١٤٥]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [سورة النساء:١٤٢]. وقال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [سورة البقرة:٩-١٠].

(ب) أنواع النفاق:

النوع الأول: النفاق الاعتقادي:

وهو النفاق الأكبر الذي يظهر صاحبه الإسلام ويبطن الكفر ، وهذا النوع مخرج من الدين بالكلية، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار.

وهذا النفاق ستة أنواع:

١. تكذيب الرسول ﷺ.
٢. تكذيب بعض ما جاء به الرسول ﷺ.
٣. بغض الرسول ﷺ.
٤. بغض بعض ما جاء به الرسول ﷺ.
٥. المسرة بانخفاض دين الرسول ﷺ.
٦. الكراهية لانتصار دين الرسول ﷺ.

النوع الثاني: النفاق العملي

ويقصد به ارتكاب خصلة من خصال النفاق من غير مصير إلى الكفر، وذلك مع بقاء أصل الإيمان في القلب، والنفاق العملي لا يخرج صاحبه من الملة، لكنه على خطر عظيم، وهو جامع بين الإيمان وبين خصال النفاق.

الناقض الثاني: النفاق

(ج) أمثلة على النفاق الاعتقادي والعملي:

أولا – أمثلة على النفاق الاعتقادي:

١. عدم تصديق الرسول ﷺ فيما أخبر به، أو ادعاء عدم وجوبه كالصلاة وعدم وجوب تصديقه كالزكاة والجهاد، وغير ذلك.

٢. بغض شيء من شرائع الإسلام التي جاء بها الرسول ﷺ.

٣. الفرح بانهزام المسلمين أمام الكافرين في معركة معينة، أو طمس معالم الإسلام في بلد معين.

٤. الحزن عند انتصار المسلمين، أو الحزن عند ظهور شرائع الإسلام في بلد ما.

ثانيا – أمثلة على النفاق العملي:

١. إخلاف الوعد وذلك بأن يَعِدَ الإنسان بشيء وفي نيته عدم الوفاء بهذا الوعد.

٢. الكذب على الناس في حديثه.

٣. خيانة الأمانة إذا ائتمن على شيء معين، والدليل على ذلك قوله ﷺ : «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

٤. الغدر بالعهد بعد أن يعاهد الإنسان غيره على أمر معين.

٥. الفجور في الخصومة مع الغير بأن يفضحه بما يعلم عنه ويعيره ولا يتقي الله فيه.

غير أن كل هذه الأعمال من النفاق الأصغر الذي لا يكفر صاحبه، إنما يكون فيه خصال من خصال المنافقين مع بقاء إطلاق اسم الإسلام عليه.

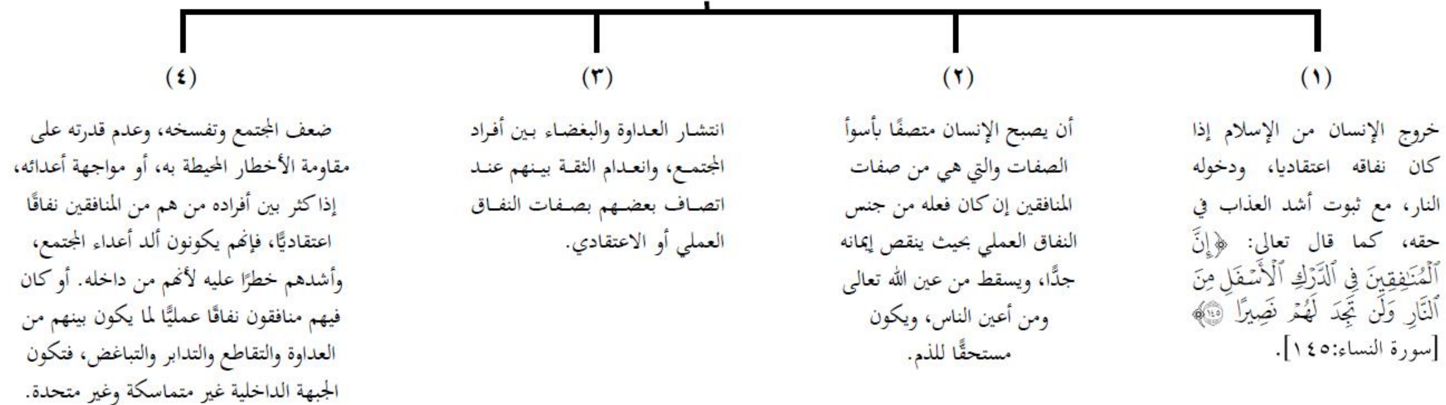
الفصل الأول: نواقض التوحيد | **الناقض الثاني: النفاق.** | ٨

(د) الفرق بين النفاق الأكبر والنفاق الأصغر

النفاق الأكبر	النفاق الأصغر
هو التناقض بين السر والعلانية في الاعتقاد.	هو تناقض بين السر والعلانية في الأعمال دون الاعتقاد.
يخرج من الملة ويحبط الأعمال فهو نوع من الكفر في الحقيقة.	لا يخرج من الملة وإنما يحبط العمل الذي يقع فيه.
لا يصدر من مؤمن.	قد يصدر من المؤمن.
في الغالب لا يتوب صاحبه ولو تاب فقد اختلف في قبول توبته عند الحاكم.	صاحبه قد يتوب إلى الله فيتوب الله عليه.

(ه) أثر النفاق على الفرد والمجتمع

الاتفاق عمومًا له آثار خطيرة جدًّا على المجتمع المسلم، وعلى الفرد، سواء كان نفاقًا عمليًا أو اعتقاديًا؛ فمن هذه الآثار:



(١) خروج الإنسان من الإسلام إذا كان نفاقه اعتقاديا، ودخوله النار، مع ثبوت أشد العذاب في حقه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [سورة النساء:١٤٥].

(٢) أن يصبح الإنسان متصفًا بأسوأ الصفات والتي هي من صفات المنافقين إن كان فعله من جنس النفاق العملي بحيث ينقص إيمانه جدًّا، ويسقط من عين الله تعالى ومن أعين الناس، ويكون مستحقًّا للذم.

(٣) انتشار العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع، وانعدام الثقة بينهم عند اتصاف بعضهم بصفات النفاق العملي أو الاعتقادي.

(٤) ضعف المجتمع وتفسخه، وعدم قدرته على مقاومة الأخطار المحيطة به، أو مواجهة أعدائه، إذا كثر بين أفراده من هم من المنافقين نفاقًا اعتقاديًّا، فإنهم يكونون ألد أعداء المجتمع، وأشدهم خطرًا عليه لأنهم من داخله. أو كان فيهم منافقون نفاقًا عمليًّا لما يكون بينهم من العداوة والتقاطع والتدابر والتباغض، فتكون الجبهة الداخلية غير متماسكة وغير متحدة.

الفصل الأول: نواقض التوحيد

الناقض الثالث: الشرك.

٩

الناقض الثالث: الشرك

(أ) تعريفه: الشرك هو مساواة المخلوق بالخالق في ربوبيته أو صفاته، أو صرف العبادة إلى غيره.



(ب) **لماذا ندرس الشرك؟**: ندرس الشرك ونتعرف عليه لعدة أسباب؛ **هي كما يلي**:

(١)

أن الشرك هو أعظم ذنب يقع من الإنسان، ومجلبة لغضب الله تعالى، وسبب للخلود في النار. فوجب أن نتعرف عليه حتى نحذره ولا نقع فيه، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنما تُنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية». ومن المعلوم أن الإنسان يجب عليه معرفة موطن الخطر عليه حتى يتجنبه.

(٢)

أن التوحيد هو حق الله تعالى الواجب له، ولهذا كان الشرك أظلم الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [سورة لقمان:١٣]. لهذا وجب على الإنسان معرفة الشرك حتى لا يقع فيما يناقض توحيده، ويضيع حق ربه عليه، فيكون متصفا بالظلم مع الشرك.

(ج) سبب وقوع الشرك:

سبب وقوع الشرك في بني آدم عموما هو الغلو في الصالحين، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ [سورة نوح:٢٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كان هؤلاء رجالا صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا الهم أنصابًا، فعكفوا عليها، حتى إذا طال عليهم الأمد عبدوهم».

من هذا يتضح أن من أخطر الأمور على التوحيد، الغلو في شأن الصالحين من الموتى، وعمل الأضرحة والمشاهد لهم، والعكوف عندها، وصرف العبادة لها من دون الله تعالى، فإن هذا من أعظم أبواب الشرك.

(د) هل يقع الشرك في هذه الأمة؟

لقد وقع بالفعل في هذه الأمة أنواع من الشرك، منها ما وقع منذ قرون وما زال موجودًا، كالإشراك بالصالحين، وصرف العبادة لهم والنذر والعكوف عند قبورهم ودعائهم من دون الله، وهذا موجود مشاهد في كثير من البلدان الإسلامية ولا ينكر ذلك عاقل، بل لقد وجد قبل نحو قرنين من الزمن من كان يعبد شجرًا أو حجارة حتى في الجزيرة العربية قبل أن يمن الله عليها بزوال مظاهر الشرك هذه.

وقد ثبت عن النبي ﷺ الخبر بأن الشرك يقع في هذه الأمة، حتى في أوضح صوره وهي عبادة الأصنام، فقد ورد عنه ﷺ قوله: «**لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد الأوثان** ...)). وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة**»، وذلك إشارة إلى الطواف بهذا الصنم الذي كانوا يعبدونه من دون الله، والازدحام الحاصل حوله.

الفصل الأول: نواقض التوحيد

الناقض الثالث: الشرك.

١٠

(هـ) أنواع الشرك:

النوع الأول: الشرك الأكبر:

وهو الذي لا يغفره الله تعالى أبدًا، ويكتب لصاحبه الخلود في النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝٧٢﴾ [سورة المائدة:٧٢]. **ومعناه:** صرف شيء من العبادة لغير الله، كالخوف من غير الله واعتقاد أنه مالك للنفع والضر، ومحبته كمحبة الله تعالى، والذبح له، وتعظيمه كتعظيم الله، ونحو ذلك، وكذلك مساواة غير الله بالله في أمر الربوبية، أو الأسماء والصفات الإلهية.

النوع الثاني: الشرك الأصغر

أقسام الشرك الأكبر: وهو على أربعة أقسام:

الأول: شرك الدعوة، أي: الدعاء:

وهو دعاء غير الله كدعاء الله مسألة وعبادة، فإن كان المقصود بالدعاء طلب النفع أو دفع الضر، سمي: دعاء مسألة، وإن كان المقصود الذل والخضوع والانكسار بين يدي الله، يسمى: دعاء عبادة، وسواء كان الدعاء دعاء عبادة، أو دعاء مسألة فلا يجوز التوجه به لغير الله؛ لأنهما لا يعبد بهما غير الله سبحانه، وصرفهما أو أحدهما لغير الله شرك في الدعاء، كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [سورة غافر:٦٠].

ولما أطلق الله تعالى على الدعاء اسم العبادة دل على أنه من أجل العبادات وأفضل القربات وأعظم الطاعات، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [سورة البقرة:١٨٦].

وقال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [سورة النساء:٣٢].

وقال ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»(١). وقال عليه الصلاة السلام: «**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**»(٢).

ولهذا فإن دعاء غير الله كان من الشرك، وفاعله مشرك، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١١٧﴾ [سورة المؤمنون:١١٧].

الثاني: شرك النية والإرادة والقصد:

وذلك إذا نوى الإنسان وقصد بعمله أصلا غير الله تعالى، وهو شرك اعتقادي؛ ودليل ذلك قوله سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ [سورة الكافرون:١-٢]. وقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [سورة هود:١٥-١٦].

فأوضحت الآيات أن من أراد بعمله الدنيا -لا غير- أعطاه الله من الدنيا ما أراد، لكن عمله حابط في الآخرة وليس له إلا النار.

وأما دخول بعض النيات الفاسدة، والمقاصد السيئة على إرادة العبد في بعض الأعمال، فإن ذلك لا يخرجه عن ملة الإسلام، لكن قد ينقص أجره، أو يؤدي إلى فساد بعض الأعمال من غير أن يخرج من الإسلام.

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجة وابن أبي شيبة في العنف والبيهقي في شعب الإيمان وابن حبان وابن جرير في تفسيره من حديث النعمان بن بشير.
(٢) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم والبخاري في الأدب عن أبي هريرة.

الفصل الأول: نواقض التوحيد

الناقض الثالث: الشرك.

١١

(هـ) أنواع الشرك:

النوع الأول: الشرك الأكبر:

وهو الذي لا يغفره الله تعالى أبدًا، ويكتب لصاحبه الخلود في النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ۝٧٢﴾ [سورة المائدة:٧٢]. **ومعناه:** صرف شيء من العبادة لغير الله، كالخوف من غير الله واعتقاد أنه مالك للنفع والضر، ومحبته كمحبة الله تعالى، والذبح له، وتعظيمه كتعظيم الله، ونحو ذلك، وكذلك مساواة غير الله بالله في أمر الربوبية، أو الأسماء والصفات الإلهية.

أقسام الشرك الأكبر:

الثالث: شرك الطاعة:

وهو المساواة بين غير الله وبين الله في التشريع والحكم وذلك لأن الحكم والتشريع حق من حقوقه تعالى، كما قال سبحانه:

قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ﴾ [سورة الأنعام:٥٧].

وقال: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [سورة المائدة:٤٩]. وقال جل شأنه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ﴾ [سورة الشورى:٢١].

وقال جل شأنه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣١﴾ [سورة التوبة:٣١].

وقد فسرها النبي ﷺ بأنها طاعتهم في تحليل الحرام، وتحريم الحلال. فمن ادعى أن لأحد حق التشريع مع الله، أو من دون الله، فقد كفر بما أنزل من عند الله وجعل مع الله إلها آخر يشركه مع الله في حقه.

قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٤٤﴾ [سورة المائدة:٤٤]. وقال تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [سورة المائدة:٥٠]. فجعل الحكم بغير ما أنزل حكمًا بأحكام الجاهلية. وأوضح أنه لا أفضل ولا أجل من حكمه لمن آمن به.

وقال سبحانه: قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ۝٦٠﴾ [سورة النساء:٦٠].

فسمى من يحكم بغير ما أنزل الله طاغوتًا، وهو ما عبد من دون الله من معبود أو متبوع أو مطاع وكان راضيًا بتلك العبادة، وبين أنه أمرهم أن يكفروا بهذا الطاغوت، وذلك بأن يؤمنوا أنه لا حكم ولا حاكم إلا حكم الله ورسوله، وبين أن التحاكم إلى الطاغوت هو مما يحبه الشيطان ويرضاه، وأنه من الضلال العظيم.

الرابع: شرك المحبة:

وذلك بأن يحب مع الله غيره كمحبته لله أو أشد، محبة مستلزمة لغاية الذل والخضوع كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ﴾ [سورة البقرة:١٦٥].

والمعنى: أن من المشركين من يجعل لله نظيرًا ومثيلًا يحبه كمحبته لله أو أكثر من محبته لله، ويختلف ذلك على حسب اختلاف المشركين في درجة حبهم لما يعبدونه من دون الله من الأنداد، ولكن المؤمنين محبتهم لله أشد من محبة المشركين لما يعبدونه، أو أن محبة المؤمنين لربهم أشد من محبة المشركين لله، لأن محبة المشركين له فيها شريك وأما محبة المؤمنين فهي محبة خالصة لله.

النوع الثاني: الشرك الأصغر

الفصل الأول: نواقض التوحيد

الناقض الثالث: الشرك.

١٢

(هـ) أنواع الشرك:

النوع الأول: الشرك الأكبر

النوع الثاني: الشرك الأصغر:

وهو دون الشرك الأكبر، ولا يخرج صاحبه من الإسلام لكنه ينقص التوحيد وهو وسيلة إلى الشرك الأكبر.

أقسام الشرك الأصغر:

القسم الأول: الشرك الظاهر:

وهو: ألفاظ وأفعال. فالألفاظ كالحلف بغير الله، عن ابن عمر قال: لا يحلف بغير الله. فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»(١) .

وقول: ما شاء الله وشئت، وقول: لولا الله وفلان، والصواب أن يقال: ما شاء الله ثم فلان، ولولا الله ثم فلان؛ لأن (ثم) تفيد الترتيب مع التراخي فتجعل مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة التكوير:٢٩].

ولما قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. قال له: «**أجعلتني لله عدلا** (ندًا) **قل: ما شاء الله وحده**»(٢) .

وأما الواو فهي لمطلق الجمع والاشتراك، لا تفيد ترتيبًا ولا تعقيبًا، ومثله قول: ما لي إلا الله وأنت، وهذا من بركات الله وبركاتك.

وأما الأفعال: فمثل لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه، ومثل تعليق التمائم خوفًا من العين وغيرها إذا اعتقد أن هذه أسباب لرفع البلاء أو دفعه فهذا شرك أصغر؛ لأن الله لم يجعل هذه أسبابًا، أما إن اعتقد أنها تدفع أو ترفع البلاء بنفسها فهذا شرك أكبر؛ لأنه تعلق بغير الله.

القسم الثاني: الشرك الخفي:

وهو الشرك في الإرادات والنيات - كالرياء والسمعة - كأن يعمل عملًا مما يتقرب به إلى الله يريد به ثناء الناس عليه، كأن يحسن صلاته أو يتصدق لأجل أن يمدح ويثنى عليه، أو يتلفظ بالذكر ويحسن صوته بالتلاوة لأجل أن يسمعه الناس فيثنوا عليه ويمدحوه، والرياء إذا خالط العمل أبطله.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف:١١٠].

وقال النبي ﷺ: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال: «**الرياء**»(٣) .

ومنه العمل لأجل الطمع الدنيوي، كمن يحج أو يؤذن أو يؤم الناس لأجل المال، أو يتعلم العلم الشرعي أو يجاهد لأجل المال، قال النبي ﷺ:«**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط**»(٤) .

---

(١) حديث صحيح رواه الترمذي وأحمد والحاكم وغيرهم.
(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة وغيرهم.
(٣) حديث حسن رواه أحمد.
(٤) رواه البخاري وغيره.

الفصل الأول: نواقض التوحيد

الناقض الثالث: الشرك.

١٣

(و) الفرق بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر:

الشرك الأكبر	الشرك الأصغر
يخرج من الملة	لا يخرج من الملة.
يخلد صاحبه في النار	لا يخلد صاحبه فيها إن دخلها.
يحبط جميع الأعمال	لا يحبط جميع الأعمال وإنما يحبط العمل الذي خالطه الرياء أو كان العمل لأجل الدنيا فقط.
يبيح الدم والمال	لا يبيح الدم والمال
يوجب العداوة الخالصة بين صاحبه وبين المؤمنين فلا يجوز للمؤمنين محبته وموالاته ولو كان أقرب قريب	فإنه لا يمنع الموالاة مطلقًا، بل صاحبه يُحَبُّ ويُوالَى بقدر ما فيه من الإيمان ويُعَادَى بقدر ما فيه من العصيان.

(ز) الآثار السيئة للشرك على الفرد والمجتمع

الآثار السيئة للشرك على الفرد والمجتمع كثيرة، منها:

(١) تعبيد الناس بعضهم لبعض من دون الله، وهذا حط من كرامة الإنسان وإهانة له بإذلاله لمن لا يستحق.

(٢) انتشار البدع والخرافات بين الناس بسبب العقائد الفاسدة فيصدق الجهال بكل ما يقال لهم.

(٣) تضييع خالص حق الله تعالى على الناس بصرف العبادة لغيره تبارك وتعالى رغم أنه لا يستحقها سواه.

(٤) أن الإنسان المشرك يتسبب بشركه هذا في إحباط جميع عمله، واستحقاقه للخلود في النار.

(٥) أنه وسيلة لأكل أموال الناس بالباطل من قِبَل سدنة الأضرحة والمشاهد والأوثان وغيرهم من أهل الفتنة الذين يزينون للناس الشرك والفساد.

(٦) أن المجتمع الذي ينتشر فيه الشرك يمتلئ بالفواحش والمعاصي والظلم؛ لأنه إذا كان قد سمح للشرك بالتفشي فيه والانتشار فلن يمنع ما دون الشرك من الكبائر والفواحش وأنواع الظلم.

(٧) أنه سبب لشيوع الوهن والضعف النفسي والروحي نتيجة للتوكل على غير الله تعالى وطلب العون منه.

١٤

الفصل الثاني: الكلام على صور من الأعمال الشركية الموجودة في بعض المجتمعات الإسلامية

تمهيد:

لما كان الشرك أحد نواقض التوحيد والإيمان، وحيث سبق الكلام عن الشرك وأنواعه كان من المناسب الكلام عن بعض الأعمال الشركية المنتشرة في كثير من المجتمعات الإسلامية.

فالتمائم منها ما هو شرك ومنها ما ليس كذلك، وكذلك الرقي وغيرهما مما سيأتي تفصيله.

لذلك كان الواجب على المسلم التعرف على المشروع من ذلك ليعمل به، وعلى الممنوع ليتجنبه ويحذر منه، وسنورد في الفقرات التالية الجائز بأدلته، والممنوع بأدلته، فقد اختلط ذلك الأمر على كثير من الناس نتيجة الجهل بالعلوم الشرعية، وذلك بسبب التلبيس على الناس من قِبَلِ المستفيدين من هذه البدع لأكل أموال الناس بالباطل، والله المستعان.

الفصل الثاني: الكلام على صور من الأعمال الشركية الموجودة في بعض المجتمعات الإسلامية

الصورة الأولى: الرقى.

١٥

الصورة الأولى: الرقى.

(أ) معنى الرقية: جمع رقية وهي العُوْذَة التي يُرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات، وتسمى عند بعض الناس العزائم.

(ب) أنواعها وحكم كل نوع:

النوع الأول: الرقى المشروعة:

وهي ما كان خاليًا من الشرك بأن يقرأ على المريض شيء من القرآن أو يعوذ بأسماء الله وصفاته فهذا مباح؛ لأن النبي ﷺ قد رقى نفسه وغيره وأمر بالرقى وأجازها.

عن عوف بن مالك رضي الله عنه قال: كنا نرقي في الجاهلية فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك. فقال: «**اعرضوا عليّ رقاكم لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا**» (١) .

شروط الرقية الشرعية:

إن للرقية المشروعة شروطًا ذكرها أهل العلم ينبغي معرفتها والاهتمام بها والعمل على توفرها عند الرقية، فقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط:

الأول: أن تكون بكلام الله أو بأسماء الله وصفاته أو بالأدعية النبوية.

الثاني: أن تكون باللسان العربي وما يعرف معناه.

الثالث: أن يعتقد الإنسان أن الرقى لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله تعالى.

كيفيتها: أن يقرأ الآيات القرآنية أو الأدعية النبوية الواردة وينفث على المريض، كما جاء في حديث عائشة ﵂: أن النبي ﷺ كان يقول للمريض: «**باسم الله تربة أرضنا بريقه بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا**»(٢)

النوع الثاني: الرقى الممنوعة:

وهي ما اشتمل على الشرك وهي الرقى التي يستعان فيها بغير الله من دعاء غير الله والاستغاثة والاستعاذة به، كالرقى بأسماء الجن أو بأسماء الملائكة والأنبياء والصالحين، فهذا دعاء لغير الله، وهو شرك أكبر، وأما إن كان بغير اللسان العربي أو بما لا يعرف معناه، فيخشى أن يدخلها كفر أو شرك ولا يعلم عنه، فهذا النوع من الرقى ممنوع سدًّا للذرائع.

تنبيــــه:

ورد عن الرسول ﷺ رقى ناسًا من أهل بيته ومن أصحابه ورقاه جبريل عليه السلام، ورقى نفسه فكل ذلك جائز، بل ومستحب، لكن أن يطلب الإنسان من غيره أن يرقيه فهذا ينافي كمال التوكل على الله، وإن كان جائزًا في نفسه، فإن النبي ﷺ قال في وصف الذين يدخلون الجنة بغير حساب: «**هم الذين لا يسترقون** .... »(٣) أي: لا يطلبون الرقية من غيرهم.

---

(١) رواه مسلم وغيره. (٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم وغيره.

الفصل الثاني: الكلام على صور من الأعمال الشركية الموجودة في بعض المجتمعات الإسلامية

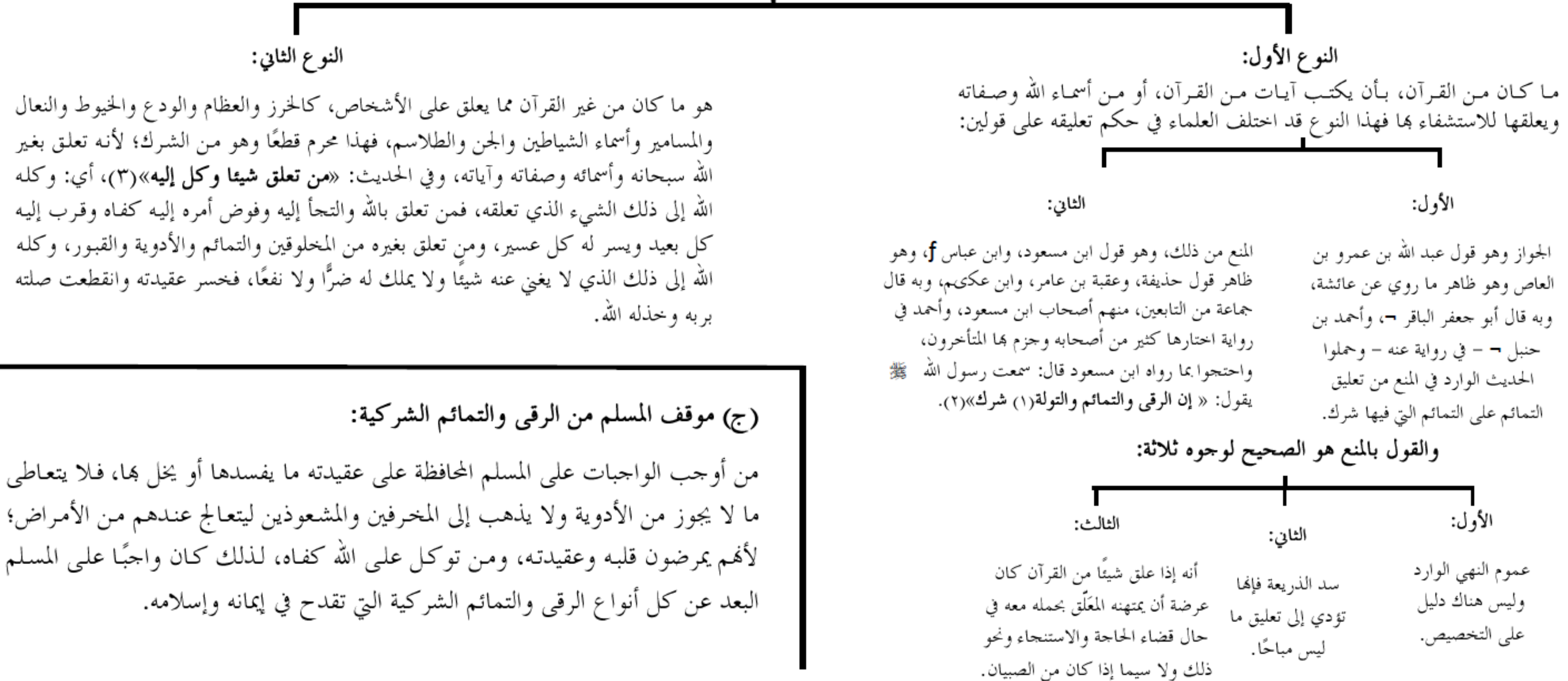
الصورة الثانية: التمائم.

١٦

الصورة الثانية: التمائم.

(أ) معنى التمائم: هي جمع تميمة، وهي: ما يعلق بأعناق الصبيان لدفع العين، وقد يعلق على الكبار من الرجال والنساء.

(ب) أنواعها وحكم كل نوع:



(١) التولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته.

(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود، وابن ماجه، والحاكم والبغوي في شرح السنة. وانظر كلام الألباني في الصحيحة ج١ ح(٣٣١).

(٣) حديث حسن رواه أحمد والترمذي والحاكم.

الفصل الثاني: الكلام على صور من الأعمال الشركية الموجودة في بعض المجتمعات الإسلامية | الصورة الثالثة: لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه. | ١٧

الصورة الثالثة: لبس الحلقة والخيط لرفع البلاء أو دفعه.

(أ) معنى الحلقة والخيط:

الحلقة: طوق من النحاس كان المشركون يجعلونها في عُضودهم يزعمون أنها تحفظهم من العين والجن ونحو ذلك.

الخيط: في الأصل ما يخاط به، كان المشركون يعقدون الخيوط على أيديهم ورقابهم يزعمون أنها تدفع عنهم الحمى.

(ب) حكم لبس الحلقة والخيط: هي من الشرك الأكبر إذا اعتقد أنها تدفع البلاء بنفسها، أما إذا اعتقد أنها سبب لرفع البلاء فهو شرك أصغر، والكل حرام.

(ج) آثار تعلق القلب بغير الله:

(١) عدم الفلاح والفوز والظفر والسعد في الدنيا والآخرة.

(٢) القلق والتعب النفسي وعدم الراحة والدعة والسكون آثار لدعوة النبي ﷺ حيث قال: **«فلا ودع الله له»**، أي: لا جعله في دعة وسكون.

(د) النافع والضار هو الله وحده:

يجب على العبد أن يتعلق قلبه بالله وحده طمعًا ورجاء وخوفًا وأن يعتمد على الله وحده وأن يفوض الأمور كلها لله وحده فهو وحده الدافع للبلاء وهو الضار والنافع. قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١٧﴾ [سورة الأنعام:١٧].

فالله تعالى هو المتفرد بكشف الضراء وجلب الخير والسراء، فإذا كان وحده النافع والضار فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية، وأما غير الله فلا يملك كشف الضر أو جلب النفع، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ۝٣٨﴾ [سورة الزمر:٣٨].

---

(١) رواه مسلم وغيره.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم وغيره.

الصورة الرابعة: التبرك بالشجر والحجر ونحوهما.

(أ) معنى التبرك: هو طلب البركة وهي ثبوت الخير في الشيء وزيادته، وطلب ثبوت الخير وزيادته إنما يكون ممن يملك ذلك ويقدر عليه وهو الله سبحانه، فهو الذي ينزل البركة ويثبتها، أما المخلوق فإنه لا يقدر على منح البركة وإيجادها ولا على إبقائها وتثبيتها.

(ب) حكم التبرك: التبرك بالأماكن والآثار والأحجار والأشجار والأشخاص أحياء وأمواتًا لا يجوز، لأنه إما أن يكون شركًا، إن اعتقد أن ذلك الشيء يمنح البركة، أو وسيلة إلى الشرك إن اعتقد أن زيارته وملامسته والتمسح به سبب لحصولها من الله.

(ج) حقيقة تبرك الصحابة بآثار النبي ﷺ: لقد حاول بعض الناس أن يدافعوا عن التبرك الشركي الممنوع استدلالًا بما ورد من أن الصحابة كانوا يتبركون بآثار النبي ﷺ لكن نقول: إن ما كان الصحابة يفعلونه من التبرك بشعر النبي ﷺ وريقه وما انفصل من جسمه ﷺ، فذلك خاص به ﷺ في حال حياته ووجوده بينهم بدليل أن الصحابة لم يكونوا يتبركون بحجرته وقبره بعد موته، ولا كانوا يقصدون الأماكن التي صلى فيها أو جلس فيها ليتبركوا بها، وكذلك مقامات الأولياء من باب أولى، و لم يكونوا يتبركون بالأشخاص الصالحين كأبي بكر وعمر رضي الله عنهما وغيرهما من أفاضل الصحابة لا في الحياة ولا بعد الموت، و لم يكونوا يذهبون إلى غار حراء ليصلوا فيه أو يدعوا، و لم يكونوا يذهبون إلى الطور الذي كلم الله عليه موسى ليصلوا فيه ويدعوا، أو إلى غير هذه الأمكنة من الجبال التي يقال إن فيها مقامات الأنبياء أو غيرهم، ولا إلى مشهد نبي من الأنبياء، وأيضًا فإن المكان الذي كان النبي ﷺ يصلي فيه بالمدينة النبوية دائمًا كان يطؤه بقدميه الكريمتين ويصلي عليه لم يشرع لأمته التمسح به ولا تقبيله، فكيف بما يقال إن غيره صلى فيه أو نام عليه؟! فتقبيل شيء من ذلك والتمسح به قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا ليس من شريعته ﷺ.

---

(١) رواه مسلم وغيره. (٢) متفق عليه.
(٣) رواه مسلم وغيره.

الصورة الخامسة: الطيرة.

(أ) معنى الطيرة: هي التشاؤم بالطيور والأسماء والألفاظ والبقاع والأشخاص، وهي من التطيُّر، وأصله فيما يقال: التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، فإن العرب كانت تتبرك بالطير أو الحيوان وتزجره فإن أخذ ذات اليمين سمي سانحًا، وإن اتجه ذات الشمال سمي بارحًا، وما أقبل اسمي ناصحًا، وإن جاء من القفا (الخلف) سمي معيدًا، فكان بعضهم يتشاءمون بالبارح ويتبركون بالسائح، وبعضهم بالعكس.

فلما جاء الإسلام أبطل ذلك ونهى عنه، وبين لهم أنه لا تأثير لذلك في جلب المنافع ودفع الضرر، وبذا يعلم أن الحد الجامع للطيرة هو التشاؤم بالطيور والحيوانات والألوان والأشخاص والأشهر والأيام ونحو ذلك، على وجه يرد عن المطلوب أو يدفع إليه.

(ب) حكم الطيرة:

الطيرة محرمة شرعًا، وهي من الشرك الأصغر المنافي لكمال التوحيد إن كانت بالأقوال أو الأفعال، أو اعتقد بالمقارنة بينها وبين ما يتوقعه من نافع أو ضار.

وأما إن اعتقد أن هذه الأشياء فاعلة بنفسها أو سببٌ مؤثر في جلب النفع أو دفع الضر، فهذا شرك أكبر مناف للتوحيد.

قال ﷺ: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك**»(١)، والطيرة تكون في الأقوال والأفعال.

(ج) التوكل يذهب بالطيرة:

إن التوكل على الله تعالى هو أعظم الأسباب المقاومة التطير. قال ابن مسعود رضي الله عنه في بيان أثر التوكل للقضاء على الطيرة: «وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل»(٢).

والمعنى: ما منا إلا وقد تحصل منه الطيرة، ولكن يذهب الله ذلك بالاعتماد على الله وتفويض الأمر له.

وفي صحيح مسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي أنه قال: يا رسول الله، ومنا أناس يتطيرون. فقال: «**ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا** يصدنه»(٣).

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والحاكم والبخاري في الأدب وابن حبان والطحاوي عن ابن مسعود. وهو صحيح.
(٢) رواه أبو داود والترمذي وصححه. (٣) رواه مسلم.

الفصل الثاني: الكلام على صور من الأعمال الشركية الموجودة في بعض المجتمعات الإسلامية

الصورة الخامسة: الطيرة.

٢٠

الصورة الخامسة: الطيرة.

(د) كفارة الطيرة: بين ﷺ ما يكفر الطيرة فقال: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**»(١)، قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «**أن يقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**».

(هـ) أسباب تحريم الطيرة:

إنما حرمت الطيرة لعدة أمور؛ أهمها:

(١) ما في الطيرة من نسبة المنافع والمضار والقدرة عليها لغير الله.

(٢) ما فيها من الاعتماد والتوكل على غير الله.

(٣) ما فيها من تعلق القلب بغير الله.

(٤) ما تولده في نفس العبد من الخوف، وعدم الأمن من المكروه، الأمر الذي يصيب كيانه بالاضطراب وعدم الاستقرار النفسي والذي هو بالتالي مؤثر على خلافته في الأرض.

(٥) أن الطيرة طريق لنشر الخرافة عن طريق إعطاء كثير من الكائنات قدرات وتأثيرات لا أصل لها مما يكون بريدًا للشرك الأكبر.

---

(١) رواه أحمد والطبراني وغيرهما عن ابن عمرو. وهو صحيح.

الفصل الثاني: الكلام على صور من الأعمال الشركية الموجودة في بعض المجتمعات الإسلامية

الصورة السادسة: ادعاء علم الغيب.

٢١

الصورة السادسة: ادعاء علم الغيب.

(أ) المراد بالغيب: هو ما غاب عن الناس من الأمور المستقبلة والماضية وما لا يرونه، وقد اختص الله بعلمه، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة النمل:٦٥]. فلا يعلم الغيب إلا الله سبحانه وحده، وقد يطلع الله بعض رسله على ما شاء من غيبه لحكمة ومصلحة، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [سورة الجن:٢٦-٢٧]. أي: لا يطلع على شيء من الغيب الذي يطلعه الله عليه، وهذا يعم الرسول والملائكة والبشر ولا يطلع عليه غيرهم بدليل أن الله لم يذكر إلا الرسل وهم من البشر ومن الملائكة.

(ب) حكم ادعاء علم الغيب: من ادعى علم الغيب بأي وسيلة من الوسائل غير من استثناه الله من رسله فهو كاذب كافر.

(ج) صور ادعاء علم الغيب:

ادعاء الغيب يكون بواسطة صور متنوعة؛ منها:

(١) قراءة الكف أو الفنجان بعد الشرب منه.

(٢) الكهانة وهي ادعاء علم الغيب وسيأتي الكلام عنها.

(٣) السحر وسيأتي الكلام عنه.

(٤) التنجيم وسيأتي كذلك، ولادعاء علم الغيب صور أخرى.

وهذا الذي يحصل من بعض المشعوذين والدجالين من الإخبار عن مكان الأشياء المفقودة والأشياء الغائبة وعن أسباب بعض الأمراض، فيقولون: فلان عمل لك كذا وكذا فمرضت بسببه، وإنما هو نتيجة لاستخدام الجن والشياطين، ويظهرون للناس أن هذا يحصل لهم عن طريق عمل هذه الأشياء من باب الخداع والتلبيس، وقد يكون إخبارهم عن ذلك عن طريق التنجيم.

الفصل الثاني: الكلام على صور من الأعمال الشركية الموجودة في بعض المجتمعات الإسلامية

الصورة السابعة: السحر.

٢٢

الصورة السابعة: السحر.

(أ) تعريف السحر:

هو عزائم وعقد ينفث فيها ورقى وكلام يتكلم به وأدوية وتدخينات، وله حقيقة، ومنه ما يؤثر في القلب والأبدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه وتأثيره بإذن الله الكوني القدري.

وهو عمل شيطاني وكثير منه لا يتوصل إليه إلا بالشرك والتقرب إلى الأرواح الخبيثة بما تحب، والتوصل إلى استخدامها بالإشراك بها؛ ولهذا قرنه الشارع بالشرك حيث يقول النبي ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قالوا: وما هن.. قال: «**الإشراك بالله والسحر**»(١) الحديث.

(ب) حكم السحر:

السحر كفر وشرك يناقض العقيدة ويجب قتل متعاطيه، كما قتل جماعة من أكابر الصحابة ﷺ السحرة، وقد تساهل الناس في شأن الساحر والسحر وربما عدوا ذلك فنًّا من الفنون التي يفتخرون بها ويمنحون أصحابها الجوائز والتشجيع، ويقيمون النوادي والمسابقات للسحرة ويحضرها آلاف المتفرجين والمشجعين، وهذا من الجهل بالدين والتهاون بشأن العقيدة وتمكين للعابثين بها.

(ج) النشرة:

(١) معناها: النشرة لغة: الكشف والإزالة.

وشرعًا: حل السحر عن المسحور بنوع من العلاج والرقية. وسميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء أي يكشف ويزال

(٢) أنواع النشرة وحكم كل نوع: **النشرة نوعان:**

(١) حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان وعليه يحمل قول الحسن وهذا النوع محرم.

(٢) النشرة بالرقية والتعويذات والأدوية والدعوات المباحة، فمثل هذا جائز وعليه يحمل قول سعيد بن المسيب.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

الصورة الثامنة: الكهانة والعرافة.

(أ) تعريف الكهانة والعرافة:

هما ادعاء علم الغيب ومعرفة الأمور الغائبة كالإخبار بما سيقع في الأرض وما سيحصل، وعن مكان الشيء المفقود، وذلك عن طريق استخدام الشياطين الذين يسترقون السمع من السماء، كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٢٢٢ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ٢٢٣﴾ [سورة الشعراء:٢٢١-٢٢٣]. وذلك أن الشيطان يسترق الكلمة من كلام الملائكة فيلقيها في أذن الكاهن ويكذب الكاهن مع هذه الكلمة مائة كذبة فيصدقه الناس بسبب تلك الكلمة التي سمعت من السماء.

(ب) حكم الكهانة والعرافة:

إن الله تعالى هو المنفرد بعلم الغيب، فمن ادعى مشاركته في شيء من ذلك بكهانة أو غيرها أو صدّق من يدعي ذلك فقد جعل لله شريكًا فيما هو من خصائصه، والكهانة لا تخلو من الشرك، فهي شرك في الربوبية من حيث ادعاء مشاركة الله في علمه، وشرك في الألوهية من حيث التقرب إلى غير الله بشيء من العبادة، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**».

(١) حديث صحيح رواه أحمد والحاكم.

الصورة الثامنة: الكهانة والعرافة.

(ج) خطر الكهنة والسحرة والعرافين على المجتمع:

ما يجب التنبيه عليه والتنبه له: أن السحرة والكهان والعرافين يعبثون بعقائد الناس بحيث يظهرون بمظهر الأطباء فيأمرون المرضى بالذبح لغير الله، بأن يذبحوا خروفًا صفته كذا وكذا أو دجاجة، أو يكتبون لهم الطلاسم الشركية والتعاويذ الشيطانية بصفة حروز يعلقونها في رقابهم أو يضعونها في صناديقهم أو في بيوتهم، والبعض الآخر يظهر بمظهر المخبر عن المغيبات وأماكن الأشياء المفقودة بحيث يأتيه الجهال فيسألونه عن الأشياء الضائعة فيخبرهم بها أو يحضرها لهم بواسطة عملائه من الشياطين، وبعضهم يظهر بمظهر الولي الذي له خوارق وكرامات كدخول النار من غير أن تؤثر فيه، وضرب نفسه بالسلاح، أو وضع نفسه تحت عجلات السيارة ولا تؤثر فيه، أو غير ذلك من الشعوذات التي هي في حقيقتها سحر من عمل الشيطان يصنعه على أيدي هؤلاء للفتنة، أو هي أمور تخيلية لا حقيقة لها، بل هي حيل خفية يتعاطونها أمام الأنظار كعمل سحرة فرعون بالحبال والعصي.

(د) علاقة السحر والكهانة والعرافة بالشرك:

إن السحر والكهانة والعرافة من الأمور الشيطانية المحرمة، تخل بالعقيدة أو تناقضها لأنها لا تحصل إلا بأمور شركية ولا يمكن للمسلم أن يجمع بين الإسلام وبين واحد من هذه الأمور، فهي داخلة في الشرك من ناحيتين:

الناحية الأولى:

ما فيها من استخدام الشياطين والتعلق بهم والتقرب إليهم بما يحبونه من طاعتهم وصرف شيء من العبادة لهم ليقوموا بخدمة الساحر والكاهن، فالسحر من تعليم الشياطين، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ [سورة البقرة:١٠٢].

الناحية الثانية:

ما فيها من دعوى علم الغيب ودعوى مشاركة الله في ذلك، وهذا كفر وضلال قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [سورة البقرة:١٠٢].

الصورة التاسعة: التنجيم.

(أ) تعريف التنجيم: هو الاستدلال بأحوال النجوم على الحوادث الأرضية، فيقولون: من تزوج في نجم كذا وكذا حصل له كذا وكذا، ومن سافر في نجم كذا حصل له كذا، ومن ولد في نجم كذا وكذا حصل له كذا من السعود أو النحوس كما يعلن في بعض المجلات الساقطة من الخزعبلات حول البروج وما يجري فيها من الحظوظ.

(ب) حكم المنجمين ومن يأتيهم: قد يذهب بعض الجهال وضعاف الإيمان إلى هؤلاء المنجمين فيسألهم عن مستقبل حياته وما يجري عليه فيه وعن زواجه وغير ذلك، ومن ادعي علم الغيب أو صدق من يدعيه فهو مشرك كافر؛ لأنه يدعي مشاركة الله فيما هو من خصائصه، والنجوم مسخرة مخلوقة ليس لها من الأمر شيء ولا تدل على نحوس ولا سعود ولا موت ولا حياة.

(ج) حكم تعلم منازل الشمس والقمر: ليس من علم التنجيم المحرم تعلم منازل الشمس والقمر ومعرفة النجوم؛ للاستدلال بذلك على القبلة وأوقات الصلوات والفصول، قال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة النحل:١٦]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة الأنعام:٩٧].

الصورة العاشرة: تعظيم الأضرحة والمزارات والتقرب إليها بالقرابين والنذور.

(أ) معنى الأضرحة والمزارات:

الأضرحة: هي القبور التي يعظمها الجهال.

المزارات: هي ما يزار من القبور والأمكنة والآثار ونحو ذلك بقصد التعبد.

القرابين: جمع قربان: وهو ما يتقرب به من النذور والذبائح والأطعمة.

النذور: جمع نذر: وهو ما يلزم الإنسان به نفسه من أنواع القربات.

(ب) حكم تعظيم الأضرحة والمزارات والتقرب إليها:

إن هذا الفعل محرم غاية التحريم، وهو إشراك بالله تعالى لأنه صرف للعبادة لغير الله، فلا ينبغي التقرب بشيء من العبادة لغيره، وهو غلو في الصالحين وغيرهم مما حرمه الله تعالى لأنه يفضي إلى عبادتهم، وقد نهى النبي ﷺ عن المبالغة في تعظيمه فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»(١).

وجعل النبي ﷺ القبر الذي يُعَظَّم ويجتمع عنده الناس بمثابة الوثن المعبود من دون الله تعالى فقال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد**»(٢) .

ولهذا فقد نهى ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور، فقال ﷺ: « **لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». يحذر ما صنعوا(٣).

وأمر النبي ﷺ بهدم القبور المُشْرِفة (المرتفعة)، فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأبي الهياج الأسدي: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «**ألا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته، ولا صورة إلا طمستها**»(٤).

---

(١) رواه البخاري وغيره.
(٢) رواه أحمد وغيره.
(٣) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٤) رواه مسلم وغيره.

الصورة العاشرة: تعظيم الأضرحة والمزارات والتقرب إليها بالقرابين والنذور.

(ب) حكم تعظيم الأضرحة والمزارات والتقرب إليها:

وكذلك نهي ﷺ عن الكتابة على القبور وتجصيصها والبناء عليها، فعن جابر رضي الله تعالى عنه وأرضاه، قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه، وأن يبني عليه»(١).

فالحاصل أن الإسلام حرَّم كل هذه الأمور لأنها ذرائع للشرك وأبواب موصلة إليه يجب إغلاقها.

وقد وقع كثير من المسلمين في أكثر البلدان الإسلامية في هذه المخالفة الخطيرة، فعظموا الأضرحة وقبور الصالحين، وطافوا بها كطوافهم بالكعبة، وقبلوها وتمسحوا بها كتقبيلهم للحجر الأسود وصرفوا لها أنواعًا من العبادات التي لا تنبغي إلا لله، كالنذر والذبح وغيره، وقصدوها لجلب النفع، ودفع الضر، وغير ذلك، فوقعوا في الشرك الأكبر حيث أشركوا مع الله آلهة أخرى، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

(ج) بعض الآثار الخطيرة لهذه البدع:

(١) شيوع الخزعبلات والخرافات والأفكار الرديئة، وذلك عند كثير من الجهال الذين يفعلون ذلك.

(٢) انتشار الشرك بالله تعالى، فإن هذه الأعمال من الشرك كما سبق.

(٣) أكل أموال الناس بالباطل، وذلك من جهة السدنة والحجبة القائمين على خدمة الأضرحة ونحوهم.

(٤) صد الناس عن سبيل الله تعالى، حتى وصل الأمر بالبعض إلى أن يستغنوا عن الحج إلى بيت الله الحرام، والاكتفاء بالحج إلى الأضرحة والمشاهد.

(٥) مشابهة اليهود والنصارى في شركهم حيث كانت هذه هي بداية شركهم، وهي اتخاذ المساجد على قبور أنبيائهم وصالحيهم.

---

(١) رواه مسلم.

الفصل الثاني: الكلام على صور من الأعمال الشركية الموجودة في بعض المجتمعات الإسلامية

الصورة الحادية عشر: زيارة القبور.

٢٨

الصورة الحادية عشر: زيارة القبور.

لقد انتشر بين الناس قبل بعثة الرسول ﷺ دعاء غير الله من الأوثان والأشجار وغيرها، لجلب النفع أو دفع الضر، ولذا فإن الرسول ﷺ قد حرص على سد كل باب يمكن أن يفضي بالناس إلى الإشراك في عبادة الله تعالى ودعائه، لذا فإنه ﷺ قد نهى الناس عن زيارة القبور كي لا تكون ذريعة لدعائهم وصرف العبادة لهم من دون الله حتى خلصت عقائد الناس وتخلصوا من أدران الشرك فأذن لهم في زيارة القبور بعد ذلك.

(أ) حكم زيارة القبور: إن زيارة القبور مستحبة بدليل قول النبي ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكر الآخرة**»(١) وكذا فإنه ﷺ قد زار مقابر موتى المسلمين بالبقيع غير مرة يدعو لهم.

(ب) هل استحباب زيارة القبور خاص بالرجال؟

لقد اختلف أهل العلم في جواز زيارة القبور للنساء، والصحيح المنع من زيارتهن للقبور؛ لثبوت النهي لهن عن ذلك، وللمفاسد المترتبة على زيارتهن للقبور من الجزع والتسخط ونحوه بسبب ضعفهن، ومما يدل على منع النساء من زيارة القبور ما يلي:

(١) حديث: «**لعن الله زوارات القبور**»(٢).

(٢) ورود النهي للنساء عن اتباع الجنائز بسبب المفاسد المترتبة عليه، فمن باب أولى زيارة القبور.

(٣) تعليل النبي ﷺ لزيارة القبور بأنها «تذكر الموت وتدمع العين وترقق القلب»(٣) ولو فتح هذا الباب للمرأة لأخرجها إلى الندب والنياحة والجزع لما فيها من الضعف.

---

(١) رواه الترمذي في الجنائز.
(٢) رواه أحمد والترمذي.
(٣) رواه أحمد.

الصورة الحادية عشر: زيارة القبور.

(ج) علة مشروعية زيارة القبور:

لقد شرعت زيارة القبور لسببين:

(١) التذكر والاعتبار بحال الموتى حتى يتذكر الزائر الموت ويستعد للقاء الله تعالى.

(٢) السلام على الموتى والاستغفار لهم والدعاء لهم.

فهذه هي الزيارة المشروعة وما عداها فإنها زيارة ممنوعة محرمة.

(د) دعاء زيارة القبور:

علم النبي ﷺ أصحابه الدعاء الذي يدعون به عند زيارة القبور فقد كان ﷺ يدعو عند زيارة القبور يقول: «**السلام عليكم أهل الديار من المسلمين والمؤمنين يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين وإنا إن شاء الله بكم للاحقون**»(١) وغير ذلك من الأدعية الواردة في الباب.

وأما ما يفعله بعض الناس من الدعاء لأنفسهم عند القبور أو القراءة والصلاة عندها ونحو ذلك فكل ذلك من البدع المحرمة، وأشر من ذلك طلب البركة من أصحاب القبور وطلب جلب النفع ودفع الضر عنهم، فإن ذلك إشراك بالله تعالى ولا سيما مع اعتقاد أن المقبور يعلم الغيب وأنه يملك الضر والنفع فهذا شرك أكبر مخرج من الإسلام.

---

(١) مسلم عن عائشة.

الفصل الثاني: الكلام على صور من الأعمال الشركية الموجودة في بعض المجتمعات الإسلامية

الصورة الحادية عشر: زيارة القبور.

٣٠

الصورة الحادية عشر: زيارة القبور.

(هـ) حكم شد الرحال لزيارة القبور: لا يجوز شرعًا شد الرحال والسفر لأجل زيارة القبور مهما كانت، فإن ذلك حرام؛ إذ لا يجوز شد الرحال إلا إلى المساجد المذكورة في الحديث الشريف: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى**»(١) .

(و) حكم رفع القبور وتجصيصها وغير ذلك:

وهذا مما انتشر وشاع بين الناس من رفع القبور والبناء عليها وبناء القباب والكتابة عليها والأحاديث الواردة في النهي عن ذلك كثيرة فمنها:

(١) حديث عائشة أنه ﷺ قال: «**لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»(٢).

(٢) حديث جندب أنه ﷺ قبل موته بخمس قال: «**ألا إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك**»(٣).

(٣) حديث ابن مسعود أنه ﷺ قال: «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد**»(٤).

ويتضح من المقارنة بين حال النبي ﷺ وسنته وأصحابه في زيارة القبور، وبين حال الناس اليوم التناقض الشديد بين الحالتين، واستحالة الجمع بينهما، فمن ذلك:

(١) نهيه ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون إليها.

(٢) نهيه ﷺ عن اتخاذ القبور مساجد، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسموها المشاهد.

(٣) نهيه ﷺ عن إيقاد السرج على القبور، وهؤلاء يوقدون القناديل والمصابيح عليها.

(٥) أمره ﷺ بتسوية القبور وهؤلاء يرفعونها.

(٤) نهيه ﷺ عن اتخاذ القبور عيدًا، وهؤلاء يتخذونها عيدا ومواسم يجتمعون فيها.

(٦) نهيه ﷺ عن الكتابة على القبور وهؤلاء يكتبون عليها.

---

(١) البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري
(٣) رواه مسلم
(٤) رواه أحمد بسند جيد.

فهرس المحتويات